فاتنات وأفاعى

بقلم
أحمد الشنوانى

تقديم
كمال النجمى

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :
حلمى التـــونى



تقديم

الأستاذ أحمد الشنوانى هو أحد الأدباء الصحفيين، أو الصحفيين الأدباء، فهو يجمع بين الأدب والصحافة، ويعيش فى الصحافة أديباً، كما يعيش فى الأدب صحفياً، وكثيراً ما ينوء المرء بحمل هاتين الصفتين، أو هاتين الصنعتين، لأن الأدب وحده حمل ثقيل، والصحافة وحدها عبء باهظ، فكيف بحملهما معاً، والسير بهما فى قوة وفتوة ؟!.. إن صديقنا الأستاذ الشنوانى يفعل ذلك، ومن عجب أنَّهُ لا يحاول أن يلفت الأنظار إلى ما يفعله، فهو هادىء وادع متواضع قابع فى ركنه من مكتبة دار الهلال، لا يريم، ولا يتطلع إلاّ لما أخذ نفسه به من حمل عبئية هذين كأنهما عبء واحد، وكأنّ هذا العبء الواحد - وهو فادح - مظلة يرفعها فوق رأسه، يستظل بها فى يوم حارٍّ، أو فى يوم مطير!.

عرفت الأستاذ أحمد الشنوانى عندما كان يزود مجلة «الهلال» بباب ثابت من مقتطفات الأدب والتاريخ والفن والعلم، وكنت أيامئذ - فى أوائل الثمانينات - رئيسا لتحرير مجلة الهلال، ولم أكن أعرف أنه مدير مكتبة دار الهلال، لأننى لم أكن أتردد

عليها إلا نادرا، حتى اقتضت الأعمال أن أستعينُ ببعض المراجع من هذه المكتبة الحافلة ، فاكتشفت عندئذ أن صديقنا الذى يزوّدنا فى «الهلال» بباب ثابت ، هو مدير هذه المكتبة ذات التاريخ الطويل.

والحقيقة أن الأستاذ أحمد الشنوانى لم يتردد فى استغلال مكتبة دار الهلال، فقرأ مجلداتها بدأب، وتزوّد منها بزاد وفير، وتعلم منها أكثر مما تعلمه فى مراحل التعليم بالمدارس والجامعات، وتخرج فيها أديباً وكاتباً ومؤرخاً واسع الحصيلة من العلم والأدب، وتحت سقف هذه المكتبة، وبجوار رفوفها المحملة بذخائر العلم، حدثته نفسه أن ينضم إلى أصحاب هذه الأسماء التى تحملها المجلدات والكتب، وأن يكون كاتبا تعرض المكتبات كتبه، لا مجرد مدير للمكتبة يعير كتبها لطلاب القراءة والتحصيل، ولا مجرد صحفى يكتب أبواباً ومقالات فى الصحف.

وهكذا جمع الأستاذ الشنوانى حصيلته من التعليم الرسمى، إلى حصيلته من العلم الذى اكتسبه بعرق جبينه وهو يطالع المكتبة ركناً ركنا، ويستعرضها سفراً بعد سِفْر، ومن هذا وذاك جاء هذا الكاتب الدءوب، المتدفق الأسلوب، الغزير المادة الذى أخرج للمكتبة العربية - حتى الآن - مجموعة من كتب الأدب والتاريخ، يريد بها أن يسهم فى إثراء الفكر المصرى والعربى، والإنسانى، ولم يكن

هنا المعنى بعيدا عنه حين أصدر آخر كتبه الذى جعل عنوانه : «كتب غيرت الفكر الإنسانى».. ضمن سلسلة الألف كتاب الثانى، وقد أصدر منه سبعة أجزاء حتى الآن، وسيوالى إصدار الأجزاء الأخرى.

أما كتابه هذا الذى بين أيدينا .. الذى اختار له اسم : «فاتنات وأفاعٍ» فهو فريد فى بابه، فكله عن نساء شهيرات لعبن أدواراً فى تاريخ بلادهن، بل فى تاريخ العالم كله، وجرت أقلام الأدباء والمؤرخين بسيرتهن فى مؤلفات كثيرة ، أولها فى أول التاريخ، وآخرها فى هذا الزمن الأخير.

لقد بحث الأستاذ الشنوانى بصبر جميل، وذكاء ودقة، عن هؤلاء النساء الشهيرات فى المراجع والمظَانّ التى تحتويها المكتبة الكبيرة التى يديرها، وجلس إلى كل سيدة منهن فى احتشام واحترام، ليعرف منها أسرار حياتها فى التاريخ، أو أسرار التاريخ فى حياتها.. ولم يترك واحدة منهن إلا بعد أن استصفى كل ما عندها من أسرار الحياة وأسرار التاريخ، وسجّل كل ما حصل عليه منهن، وأخرجه للناس فى مؤلفه هذا الحافل الذى يجمع بين العلم والقصة، ويأخذ من التاريخ، كما يأخذ من الخيال، جاداً ومسلياً فى وقت معاً.

وبدءاً من الملكة سميراميس التى عاشت قبل الميلاد فى أرض

العراق، وحكمت دولة مترامية الأطراف، وانتهاء بأوجينى زوجة الامبراطور نابليون الثالث، يبدأ هذا الكتاب الغزير المادة، وينتهى، عارضا على قارئه سلسلة من حاملات أزياء التاريخ الباهرة أمثال هيلين، فاتنة طروادة، وكليوباترا الملكة التى انتهت على يديها دولة البطالمة فى مصر قبل الميلاد، وشجرة الدر ، قاهرة الصليبيين، التى كانت أول وآخر امرأة توجت نفسها ملكة على مصر الإسلامية، ثم أسقطها الخليفة العباسى «المستعصم» لمجرد كونها امرأة.. ولكن هذه المرأة انتصرت فى معركتها ضد الملك لويس التاسع الصليبى، أما الخليفة المستعصم فإنه انهزم فى معركته ضد هولاكو التترى !.

وفى قائمة الشهيرات اللاتى احتواهن هذا الكتاب القيم، تجد أسماء كثيرة أخرى، مثل كاترين الأولى - الملكة الروسية - ومارى انطوانيت - الملكة الفرنسية - وكاترين الثانية قيصرة الروس الكبرى ، وليدى هاملتون ساحرة نلسون قائد الأسطول البريطانى الذى قهر بونابرت ، وجوزفين التى استولت على قلب بونابرت وشهدت صعوده وهبوطه ، وأسماء أخرى ، بين ملكات وفاتنات ومغامرات ، ولم ينس الأستاذ الشنوانى أن يجعل بينهن فنانة شهيرة من فنانات المسرح الفرنسى هى سارة برنار!.

وهؤلاء الشهيرات اللاتى احتواهن الكتاب - وعددهن ست

عشرة امرأة من قديم التاريخ ووسيطه وحديثه - هن المتربعات على صفحات هذا الكتاب، دون سواهن من الشهيرات اللاتى يعرفهن التاريخ قديما وحديثا، وإنما اختارهن الأستاذ الشنوانى لأنه وجد فيهن التاريخ ممثلا بأقوى لمحاته، وأضوأ توهجاته، وأقوى ضرباته وصيحاته !.

ففى حياتهن ملامح التاريخ كلها، بجمالها وقبحها، وبإنسانيتها ووحشيتها، وبأحلامها الجميلة، وفواجعها الرهيبة !.

لقد كانت كل منهن امرأة ذات جمال وقوة أسْرٍ وسحرٍ، وكانت كل منهن وراء رجل، أو رجال، وقد قيل : وراء كل عظيم امرأة، ولكن قائل هذه الكلمة لم يكن مؤرخا ، لأن التاريخ يضع الرجل وراء المرأة العظيمة أحيانا، كما يضع المرأة وراء الرجل العظيم أو الرجال العظماء، على اختلاف الأحوال.

وهذا ما يجعل صور هؤلاء النساء العظيمات باعثة على الخوف فيمن يطالعها، فيراهن أشبه بالأفاعى القاتلة ، ولعل ذلك ما دفع الأستاذ الشنوانى إلى تسمية كتابه : «فاتنات وأفاعٍ».. فقد طالع وجوههن الجميلة فى صفحات التاريخ فإذا هى فتنة الدنيا، ولكن تلك الوجوه الجميلة كانت تخفى سموم الأفاعى !.

هكذا راهن الأستاذ أحمد الشنوانى ، جمالا فتن الدنيا ، وسموما تركت آثارها القاتلة فى التاريخ كله !.

ومن هذه الرؤية التاريخية الأدبية الفنية ، جاء هذا الكتاب الذى يقدمه إليك – يا عزيزى القارئ – مؤلفه الكاتب المفضال .

وإنَّ لقاءً مع ست عشرة ملكة وامرأة من عظيمات التاريخ، لجدير بأن يحتفى به الكاتب والقارىء ، لا نسمع فيه من الصوت إلا الصدى، ولا نرى من قسمات الوجوه إلا الخيال !.

كمال النجمى

مقدمة

لقد تطورت مراحل التاريخ صعوداً وهبوطاً بمكانة المرأة وسيطرتها أو تبعيتها .. ولكنها لم تفقد أبداً إلهاماتها وتأثيرها على الرجل فى يوم من الأيام.

فالمرأة لا تعتز بشىء فى حياتها قدر ما تعتز بأنوثتها وما وهبها الله من جمال وجاذبية.. وتعتبرها أثمن كنوزها على الاطلاق. ولذلك نجد أن هذه الودائع الثمينة هى وسيلتها فى التأثير وجذب الانتباه.. بل وفى التفوق والسيطرة بلا حدود حسب الظروف والأهداف والغايات التى تنشدها فى حياتها .. وعلى قدر مواهبها فى الذكاء والدهاء لاستثمار هذه المقومات الانثوية.

وفاتنات الدنيا اللاتى سنعيش قصصهن فى هذا الكتاب.. لم يتوسلن فى حياتهن بفتنة الجمال وحدها .. بل بفتنة الذكاء وقوة الشخصية والعبقرية والدهاء والألمعية.. ولذلك سترى - عزيزى القارىء - من قصص هؤلاء الفاتنات من اشتهرت بالجمال الرائع الذى كانت له فتنته فى الممالك والشعوب، وفى السلم والحروب، كهيلين فاتنة طروادة التى قامت من أجلها أول حرب فى التاريخ

بين الشرق والغرب.. ومن سحرت بذكائها ودهائها وقوة شخصيتها قلوب القياصرة وعقول الأباطرة كالملكة كليوباترا.. ومن فتنت الأبطال وقادة الرجال وخاضت المعارك وبهرت الممالك كشجرة الدر.. ومن كان لسحرها الذاتى وشخصيتها الخلابة أثرهما فى انقياد الملوك وكبار الرجال لأهوائها وآرائها حتى أضاعت العرش والتاج كالامبراطورة أوجينى.. ومن كان لعبقرية جمالهن تأثيره العميق على الملوك والأمراء والقادة .. فكان التسليم بسلطان الجمال، مما أبرز سطوة الحب وشهوة الحكم عند هؤلاء الفاتنات .. كمدام بومبادور وليدى هاملتون على مسرح التاريخ.. ذلك لأن تأثيراتها قد تعدت حدود الذات والتجارب الخاصة وتطورت إلى أحداث تقفز فوق العواطف والعلاقات الثنائية، وصولا إلى مصائر الأمم والشعوب .. فقد تبدأ بقصة غرامية كآلاف القصص التى تحدث فى كل حين.. وتنتهى بملاحم وحروب وأهوال تغير وجه العالم والتاريخ ..!!

وقد اخترت لهذه القصص اسم «فاتنات وأفاعٍ» لأننى ضمنتها أقاصيص غرامية وسياسية واجتماعية وقعت حوادثها فى قصور الملوك والامراء، فى مختلف عصور التاريخ.

إن كل قصة من أقاصيص «فاتنات وأفاعٍ» قائمة على حقيقة تاريخية واقعة، ولكن استعنت بالخيال فى وضع التفاصيل بقدر ما يسمح لى الفن القصصى بذلك .

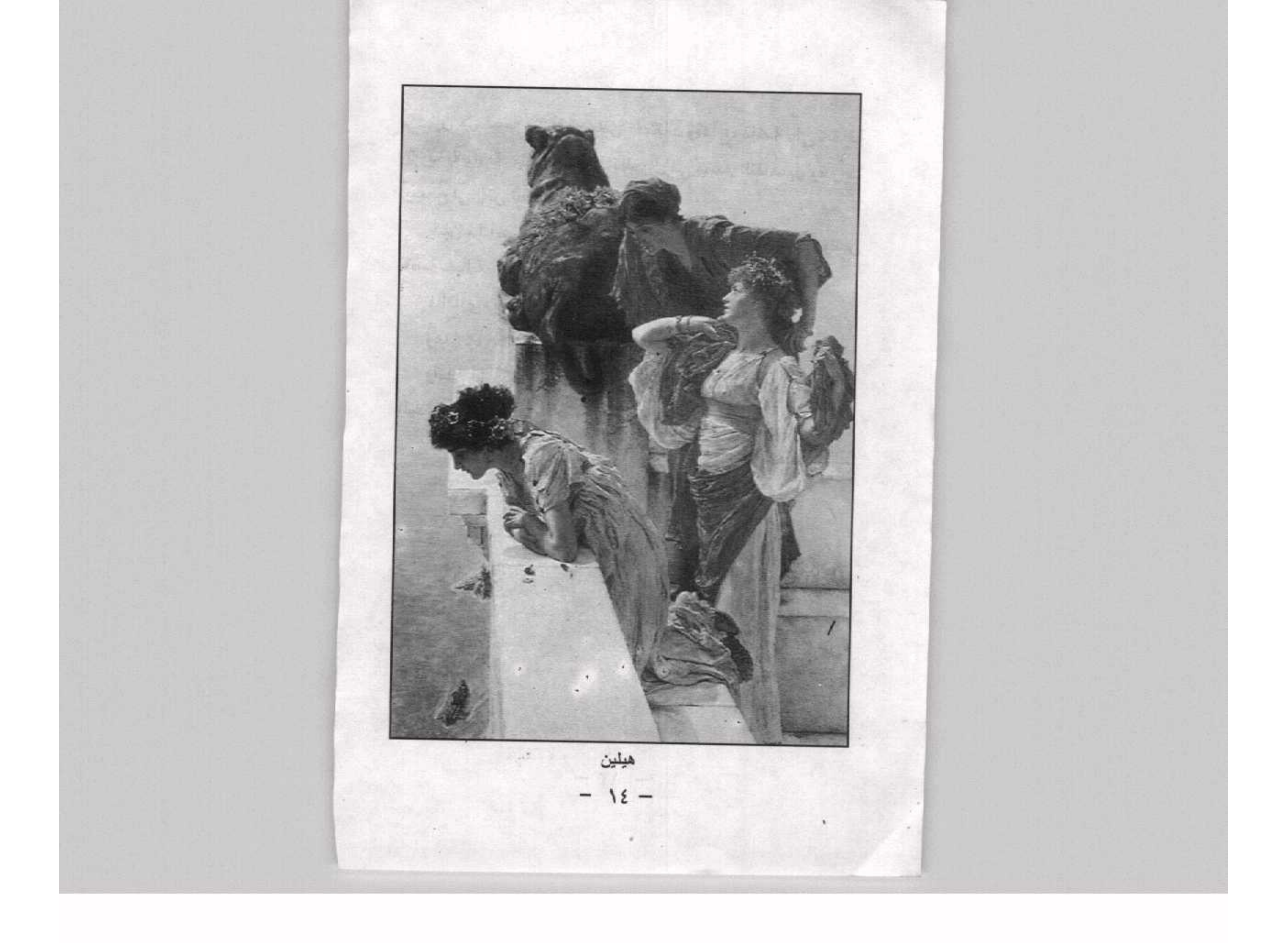
فإن ما أضعه بين يدى القارىء ليس بحثا تاريخيا، وليس قصة خيالية ، بل هو مزيج من الاثنين معا .

فالقارىء يجد فيه فائدة ، ويجد فيه تسلية.

وهذا جل ما أرجوه وأرغب فيه.

وأملى أن أكون قد وفقت فى خدمة التاريخ والأدب من هذا السبيل .

أحمد الشنوانى



هيلين

«هيلين»

فاتنة طروادة التى لاجلهـا قامت أول حرب بين الشرق والغرب !!

قصة هيلين أو إيلينا فاتنة طروادة .. أو حصار طروادة .. أو حصان طروادة .. أو حرب طروادة .. كلها أسماء لحدث واحد ، ولكنه حدث ملحمى مثير ، خلده «هوميروس» فى «الألياذة» فصار أنشودة شعر.. وأغنية حب ، وصرخة حرب .. وآهة غرام واشتياق .. ولمسة فنية ملهمة فى لوحات الفنانين العظام ! .

ولنبدأ قصة الحسناء الفاتنة التى اقتتل من أجلها الملوك .. واستعرت فى سبيلها الجيوش لمدة عشر سنوات كاملة !! .

★★★

منذ أكثر من ثلاثين قرنا من الزمان ، طلع على الدنيا من أرض يونان ، المثال الأعلى للجمال فى صورة إنسان ، وكان هذا الإنسان : هيلين.

إنها «هيلين» ابنة ملك أسبرطة «تينداريوس» من زوجته الحسناء ليدا . وكانت الصبية اليونانية من الجمال بحيث زعم اليونان فى خرافاتهم أن أمها حملت فيها من كبير آلهتهم «زوس»

نفسه، حين زارها فى شكل طائر رائع ، من جنس البجع الطويل العنق الأبيض الناصع.

ذاعت شهرة جمال هيلين فى أنحاء بلاد الأغريق، فلم يبق أمير من أمرائها إلا وتطلع إلى زواجها، فأخذوا يتوافدون على أبيها، وفيهم من غلب الأبطال ببراعته فى الحرب وشجاعته ، ومن فاق الأقران بقوة بأسه ووثاقة بنيته ، واشتهر بطائل غناه وثروته، ومن زانه رونق صباه ووسامته ، والكل تحدوهم فكرة واحدة ، وتستحوذ عليهم رغبة واحدة : الظفر بالملكة ذات الجمال النادر المثال . وكان الشيخ ملك أسبرطة يطاولهم ويماطلهم حتى أخذ يضيق صدرهم وينفد صبرهم يوما بعد يوم ، وسرى التذمر بينهم ، وظهر التململ منهم ، وأوشك أن يستبد بهم السخط وتنفجر مراجل غضبهم ! .

وقد تنبه «عوليس» ملك جزيرة أتاكا إلى خطر الموقف ، وكان أنفذ أمراء الاغريق فطنة ، وأبرعهم رأيا ، وأمكرهم تدبيرا ، فاشفق على الملك الشيخ ، فقصده وأسر إليه:

– يا عاهل أسبرطة العظيم ! ستحدث خطوب فى بلاطك الكريم ، إذا أنت لم تعجل بإعلان قرارك فى شأن زواج ابنتك هيلين . إن الخاطبين فى قلق يزداد يوما بعد يوم، وأنت أعرف بطباعهم من أن تتوقع صبرهم على هذا الحال.

– أنت على حق يا عوليس الحكيم ! ولكن ما الحيلة ؟ لو أنهم فى مثل حكمتك ورجاحة عقلك ، ما ترددت فى إعلان قرارى . ولكنى مشفق إن أنا أعلنت اختيار أحدهم زوجا لهيلين ، أن أثير عليه حسد الآخرين ، وينشب النزاع وتحل بنا كوارثه أجمعين. فهل ترى لى من ذلك مخرجا يا عوليس !؟ .

– من أجل هذا توخيت لقاءك . فإن عندى لك المخرج، وهو غاية فى البساطة واليسر.

– أحقا تقول ؟ هات إذن ، يا عوليس الحكيم ! وسأكون طوال العمر شاكرا معروفك ذاكرا لك حسن سعيك .

– يا ملك أسبرطة ! هذه نصيحتى إليك :

واقترب عوليس من الملك الشيخ، وهمس فى أذنه ما ارتآه من الرأى. وأخذت تنبسط من الشيخ المهموم غضون وجهه وتبرق أساريره . ولما انتهى عوليس من همسه حتى كان محيا الملك يطفح بشرا، وكاد على تمسكه ورغم شيخوخته يطير فرحا . واستأذن بعدها عوليس وانصرف ، والملك يردد : «شكرا يا صديقى، شكراً! أرى اليونانيين لم يكونوا مبالغين ، حين قالوا إنك خير الناصحين».

ودعا الملك رسله فأنفذهم إلى أمراء يونان يعلمونهم أن الملك قد اتخذ قراره فى شأن زواج ابنته هيلين، ويدعوهم إلى موعد الاجتماع فى قصره لإعلانهم بالقرار.

وفى الموعد المضروب ، اجتمع فى قاعة العرش فى القصر الملكى بأسبرطة طالبو الزواج من هيلين وهم خلق كثير، كلهم من بيت ملك كبير، وكانوا من عظم الرغبة وفرط اللهفة يتساءلون فيما بينهم إذا كان قد نما إلى بعضهم علم ما انتهى إليه قرار الملك تينداريوس . فلم يشف أحد غليلهم ، بيد أنه لم يطل انتظارهم ، إذ طلع عليهم الملك الشيخ ومعه ابنته هيلين، بيضاء هيفاء، شعرها الذهبى بلون الشمس، وعيناها النجلاوان لهما زرقة البحر، وقد أفرغ قوامها فى قالب من الجمال لا يضارعه بين نساء العالمين جمال. وقد استوى الشيخ على عرشه وهى إلى جانبه، ثم تكلم فحيا الامراء الوافدين أطيب تحية ورحب بهم ، ثم قال :

– سأختار اليوم من بينكم ، يا أمراء يونان ، زوج ابنتى . ولكنى أطالبكم قبلها أن تؤدوا اليمين بين يدى.

فتصايحوا :

– أية يمين يا ملك أسبرطة ؟ ومن منا تريده على أداء هذه اليمين ؟ .

– أريدها منكم أجمعين ، أريدكم على القسم بأغلظ الإيمان، إن لا يكون زواج هيلين مثارا بينكم للتحاسد والاضغان، وإن تؤدوا حق الزوج الذى سيختار منكم أيا كان ، وإن ترعوا حرمة هذا القران، وتدفعوا عنه كل عدوان.

ولما لم يكن من الأمراء واحد إلا وهو كبير الأمل فى أن يكون ذلك الزوج المحظوظ ، فقد هتفوا بصوت واحد: «فلنقسم!».

وهنا أمر الملك الشيخ ، فجيء بالحملان والجديان ، ثم قدمت أقداح النبيذ للأمراء الشبان، وعندما ارتفع صوت الملك وهو قائم يبتهل :

«نشهدك يارب الأرباب، وانت أيتها الآلهة المنتقمة من الحانثين نشهدكم أجمعين على هذا القسم العظيم» وتلا ملك أسبرطة القسم وردده الأمراء من بعده :

«نقسم بأغلظ الإيمان ، إن نؤيد حق الزوج الذى سيختار منا أيا كان . وان نرعى حرمة هذا القران. وندفع عنه كل عدوان».

وكان لأصواتهم – وهم يرددون القسم فى قاعة العرش – دوى عظيم رنان ، ترددت أصداؤه وتجاوبت بها الجدران .

وعلى أثر ذلك نحرت الأغنام ، وشرب الأمراء الشبان جرعة من أقداحهم ، ثم أهرقوا ما بقى على أرض المكان، وهم يرددون فى صوت واحد : «هكذا فليهدر دمه ، من حنث بقسمه».

وبعدها ، ساد السكون وثقلت وطأته على هذا الجمع من المحبين، وهم سكون، يتطلعون إلى الملك الشيخ، وقد تعلقت أبصارهم وقلوبهم بشفتيه وأخيرا قال :

– أيها الأمراء ! انكم جميعا من شرف القدر، وكرم العنصر،

وعلو الهمة والشجاعة، بحيث يشق عليّ المفاضلة بينكم، واختيار واحد منكم أكون به أعجب منى بغيره . فـأنا من أجل هذا ، أدع الخيار لك يا هيلين ! فاختارى زوجا من ترين ».

ولما أتم الملك تينداريوس مقاله ، رفعت «هيلين» الفاتنة هامتها الذهبية، وأجالت عينيها بزرقتها اللازوردية فى صفوف خطابها الأمراء ، وهم قائمون تجاهها ، يتابعون لحاظها كمن يتابع من الشمس المتنقلة شعاعها ، وكلهم ينتظر ما سوف تنفرج عنه شفاهها .

وبدت على هيلين الحيرة ، فأعادت الكرة، وردت الطرف ثانية وثالثة فى صفوف الأمراء، فكان فى ذلك التكرار زيادة من حيرتها فى الاختيار. وأخيرا وقفت بنظرها الحائر عند أحدهم ، والتفتت إلى أبيها تقول فى صوت خافت :

– اخترت الأمير منلاوس .

كانت هذه كلمة هيلين . وقد لبث الجميع من دهشة المفاجأة مبهوتين . وكان أشدهم مفاجأة وأعمقهم اندهاشا «منلاوس» نفسه. فهو لم يكن أبرز الحاضرين شخصية ، ولا أكثرهم ثراء، ولا أقواهم بأسا، ولا أجملهم رواء. وكان موقفه من هيلين كلما رآها ، أقرب إلى العابد منه إلى موقف الخاطب. ولكن هيلين قالت كلمتها، والمشيئة فى ذلك مشيئتها .

ولقد ظهرت بوادر الاستياء على الأمراء ، ولكنهم ذكروا اليمين التى أقسموها، واللعنة التى استنزلوها على الحانثين.

واحـتـفلت أسـبـرطة بزواج هيلين ، واقـيـمت الأعـراس بين الأناشيد والرقص وتحايا الأشعار وأكاليل الأزهار. فلما أن أصبح الصباح، أعلن الملك الشيخ إن نزوله عن العرش لصـهره بمثابة الهدية لعرسه !! .

ولم تمض سنوات حتى كان الشيخ قد مات ، تاركا على عرش أسبرطة صهره منلاوس، والملكة هيلين، وابنتهما الصغيرة هرميون والجميع فى وئام وسلام.

الحلم العجيب !!

كان فى تجاه اليونان، فى البلاد الواقعة شرقى بحر إيجه على الشاطىء الآسيوى ، مدينة عزيزة الجانب، شديدة المنعة، قوية غنية، هى طروادة . وكانت المدينة واقعة بين جبل «ايدا» الشامخ والبحر، قـائمـة على رأس ربوة تشـرف على الأودية الخـصـبـة الناضـرة عند سفحها ، وتتحكم كالسيدة الآمرة الناهية فيمن حولها.

وكان الجالس وقتئذ على عرش هذه المدينة المعظيمة «بريام» وهو فى قصره المرد الفخم سعيد باستقرار ملكه الضخم، فخور بأولاده الخمسين، وكان أشجعهم «هكتور» وأجملهم «باريس».

وفى ذات ليلة رأت الملكة «هيكوبا» فى منامها ، قبل ولادتها «باريس» حلما عجيبا : رأت نارا تندلع من بطنها ، ثم أخذت هذه النار تعظم ويمتد لهيبها إلى المدينة وتستشرى فيها حتى حرقت طروادة كلها، وهبت الملكة من نومها مذعورة . وقصت على الملك رؤياه. فلما أسفر الصبح ، دعا بالكهنة العرافين ، فتوافدوا واحدا بعد الآخر، وهم جميعا كهول قد شابت لحاهم الطوال وشعورهم المسترسلة، فلما احتشد جمعهم واكتمل حفلهم ، أدخلوا إلى قاعة العرش حيث كان الملك والملكة فى انتظارهم ، فسلموا بالتعظيم، ووقفوا فى انتظار الأمر ، مطأطئين رءوسهم ، ضاربين بالأذقان صدورهم . وأذن الملك لهم بالجلوس فى حضرته، وأبلغهم السبب الذى استقدمهم من أجله . ثم دعا الملكة أن تقص عليهم رؤياها.

وأصغى الكهنة إلى تفصيل الرؤيا فى صمت مطبق وسكون مطلق، فلما فرغت الملكة هيكوبا من روايتها ، قام أكبرهم سنا ، وقال بصوته الخافت وهو ينفض رأسه الأشيب أسفا : «رؤياك أيتها الملكة رؤيا محزنة، فالولد الذى سوف تلدين ، سيكون سببا فى حريق عظيم يدمر طروادة . ذلك مبلغ علمى». وقام على الأثر سائر الكهان فرددوا ما قاله كبيرهم ، وهم يهزون رءوسهم المبيضة أسفا . ثم أخذوا ينصرفون.

فلما صار الملك والملكة وحدهما وخلت قاعة العرش إلا منهما ، أجهشت الملكة بالبكاء ، وكان الملك حزينا مهموما، ولكنه أقبل عليها يحاول التسرية عنها ، فلما هدأ روعها قليلا ، سألته عما هو فاعل، فقال :

– نحن – بحمد الآلهة – غير محرومين من الولد ، وعندنا الكثير . فلا بأس ألا يكون لنا هذا الأخير، فليس من الصواب فى شيء أن نحرص عليه ، إذا كان حريق طروادة على يديه .

– وإذا كان الكهنة مخطئين ؟ ، وإذا كان الوجه فى تعبير الرؤيا غير ماذهبوا إليه ؟

– وإذا كان الكهنة لا يخطئون . وقد رأيت كيف هم على هذا التأويل مجمعون .. لا، لا، لا يمكن أن نحتفظ بالوليد، سيحمل عند مولده إلى الغابة البعيدة ويترك هناك. وبهذا نكون قد كفلنا الخلاص لمدينتنا.

– ولكن ماذا يكون أمر الطفل المطروح فى الغابة ؟ إنه هالك لا محالة ، ونكون نحن سبب هلاكه.

– إننى المسئول عن هذا البلد . والواجب يقضى علىّ أن أقدم بلدى على أولادى. إن فجيعتى فى ولدى واقعة علىّ وحدى، أما الوطن فالفجيعة فيه تشمل الأجداد والأبناء والأحفاد والأجيال المقبلة جميعا.

ولم تجد الملكة الحزينة المسكينة غير التسليم. ولما وضعت

ولدها لفتة فى قماش من الخز المطرز ، ودثرته بدثار من الصوف ذى الوبر، وأودعته سلة لطيفة كانت قد أوصت بصنعها ثم انحنت عليه وقبلته فى لهفة مرات ، ودفعته إلى الملك . وهرولت وقد تبادرت عبراتها وأغلقت عليها باب غرفتها ، تبكى وليدها وتفكر فى مصيره.

واحتمل الملك الأمير الصغير، وأرسل فى طلب راعٍ من رعاته الأمناء، وناوله الوليد قائلا :

– هذا الطفل يجب هلاكه، فاحمله إلى جبل ايدا، بعيدا عن المدينة ، وعن العمار ، واتركه وحده على القمة ولا تعد إليه. هذه مشيئتى ! .

وأنفذ الراعى مشيئة الملك، وعاد إلى كوخه فى سطح الجبل، ومنذ ذلك اليوم ، تكررت على نظر الراعى ظاهرة غريبة، فهو يرى من بعيد دبة من الدببة وهى ترقى الجبل فى صباح كل يوم وتهبط فى المساء. وقد بلغ من الراعى العجب أن دفعه الفضول ذات يوم إلى أن يرقى الجبل خلفها ويقفو أثرها، فإذا الدبة تبلغ القمة وتقترب من السلة المطروحة وتزحم عليها لترضع الطفل، ثم تعود أدراجها . وقد عجب الراعى مما رآه، وكان لا يكاد يصدق عينيه ، ولما عاد إلى كوخه قص على امرأته القصة . فقالت وهى لا تتمالك نفسها من العجب : «هذا من خوارق المعجزات، وهو دليل على أن الآلهة تريد خيرا بالأمير الصغير ، فينبغى أن لا ندعه يهلك ».

وصادف هذا الكلام هوى فى نفس الراعى ، فذهب تحت ستار الليل إلى قمة الجبل ، وحمل الطفل فى سلته إلى الكوخ، وقام هو وامرأته على العناية بأمره على أنه ولدهما، وقد أفعم بالسرور قلباهما أن يكون لهما ولد بهذا الحسن والرواء.

وشب الغلام على اعتقاد أنه ابن الراعى، وقد أطلق عليه اسم «باريس» وكان حين كبر يتولى عن أبيه رعى الغنم، كما كان يخرج أحيانا للصيد ويعود إلى الكوخ محملا بالصيد، وكان يزيد مع الأيام ريعانا وحسنا ويشتد عنفوانا وبأسا، وكان عليه من نبالة السمت ووجاهة الشارة ما ينم على الإمارة. وكانت تتعرض له الفتيات من بنات الرعاة وهو معرض عنهن ، ولم تقع فى نفسه إلا الصبية «اينون» ذات القلب الحنون التى كانت تسكن على جبل «ايدا» فلقيته فى صباح يوم رائق، رقيق الهواء شفاف النور ، وكانت مثل غصن الزنبق فى ثوبها الأبيض ، تقطف الزهر البرىء وتجعل منه كل زينتها ، فهو الطاقة فى يدها، والتاج لشعرها والحلية لمنطقتها. وكانت وسط هذا الزهر العميم ، تطفر وتغنى بصوتها الرخيم. وهكذا لقيها «باريس» أول ما لقيها، فاستمالته وتولع به قلبها.

فى وليمة الآلهة على جبل الأولمب

تروى الأساطير أن آلهتهم كانوا فى معظم ولائمهم يغفلون

دعوة آلهة الخلف والشقاق «ايريس» حتى لا يعكر وجودها صفو اجتماعهم ، وكانت «ايريس» تنكر ذلك منهم وتضغنه عليهم وتأخذها لهم حمية وحزازة. وقد بلغ إلى علمها قيام حفلة شائقة من أبهى حفلات الأعراس دعيت إليها الآلهة جميعا، ولم يستثن من الدعوة سواها . فانتهزت اجتماع الآلهة فى قاعة الاحتفال حول المائدة وألقت عليها تفاحة ذهبية منقوش عليها «إلى أجمل النساء». فكان طبيعيا أن تدعى الحق فيها جميع الحاضرات ، ثم انتهى الأمر بأن انحصرت المنافسة بين «أفروديت» و«هيرا» و«بالاس أتينا» ، وقد طلبن إلى كبير الآلهة «زوسر» أن يكون الحكم، ولكنه كان أحكم من أن يقضى بينهن ، لا سيما وفيهن «هيرا» زوجته، وأشار إليهن أن يذهبن إلى جبل «ايدا» بالقرب من طروادة فيحتكمن إلى ابن ملكها الأمير الشاب «باريس» الذى يرعى هناك الأغنام جاهلا شرف محتده.

وما كان أشد تعجب الفتى ودهشته حين مثلت أمامه وتجلت قيد عيانه هذه الصور الرائعة للربات الثلاث، وعندها أقبل عليه «هرمز» وكأنه يطير من خفة قدميه المجنحتين ، وقال له فى لطف وايناس كأنه يعرفه منذ سنين طوال :

– لا تعجب مما ترى يا «باريس» ! إن هؤلاء الربات الحسان إنما هبطن من سماء الأولمب ليحتكمن إلى البشر

ايهن أبرع حسـنا . وقد اختـارك كبير الآلهة «زوس» لتكون الحكم . فمن وقـع عليها اختيارك بعـد التأمل والرؤية ، فامنحها التفاحة الذهبية.

فجعل الفتى يتأمل الربات الحسان الثلاث وهو لا يفيق لنفسه حتى يستجمع حسه ويصدر حكمه، فتقدمت إحداهن نحوه، ولما صارت على خطوات منه ، اسرت إليه :

– تعـال ، يا ابن ملك طروادة ! فـأنا ربة المعـرفـة والحـرب، وسـيكون عليك أن تكافح عن بلادك وتدفع العـدو عن أسـوارها وتحمى ديارها. فإذا انت منحتنى التفاحة الذهبية جعلتك من أهل التدبير والمعرفة وكنت حامية بلادك ونصيرتك على سائر المحاربين الأبطال .

قـالت «بالاس أثينا» ذلك، ثم تراجـعت إلى مكانها . وتقـدمت «هيرا» حتى صارت فى محازاته وقالت :

– أنا زوجة «زوس» ابى الأرباب . وأنت أمير وابن ملك كبير ، وفى مستطاعى إذا أنت قضيت لى بالتفاحة أن أجعلك ملكا على آسـيا كلها وأضع فى يديك خزائنها وأجـعل كلمتك فـوق ملوك الأرض أجمعين .

وأخيرا أقبلت عليـه «أفروديت» واقتـربت منه حتى لاصـقتـه، وقالت فى دلال بصوتها الرخيم :

– انظر إلى «أفروديت» ربة الحب والمتعة . ماذا أنت واجد فى السيادة على الخلق أو احتوائك كنوز الأرض؟ انك أمير وابن ملك كبير، ولا ينقصك شىء من علو النسب وشرف المحتد. فإذا أنت جعلت من نصيبى التفاحة . جعلت من نصيبك هيلين أجمل نساء الدنيا، فعرفت طعم السعادة التى لا تعدلها سعادة.

وكان فى هذا العرض ما يغرى الفتى «باريس» الذى كان يقضى أيامه فى رعى الغنم ، ولياليه مع بنات الغاب مستسلما لحياة الدعة، بعيدا عن مطامع الملك ومنافسات أهله. وزاد إغرائه ما تشيعه أفروديت حولها من جو مشبع بالسحر والأشواق والنشوة الحسية والغرامية.

وهكذا لم يسع «باريس» إلا أن يلقى إليها بالتفاحة الذهبية !!

ومنذ ذلك الحين، تغير حال «باريس» مع فتياته ، ومنهن «اينون» التى كانت أحظاهن عنده، فكان مع بقاء اتصاله بهن قليل الاقبال عليهن ظاهر الفتور نحوهن. وصار يكثر من العزلة خاليا بنفسه يفكر فى السبيل إلى العودة إلى مكانه بين أهله.

واتفق أن اقيمت فى طروادة وقتئذ مباراة من تلك المباريات الرياضية التى جرت العادة بإقامتها فى كل عام، فاعتزم الفتى أن يشارك فيها، وودع الراعى وزوجته، وكان الوداع شديد الوقع عليهما، كأنما ألقى فى روعهما أن فى الأمر سراً وانهما هذه المرة

يضمانه للمرة الأخيرة إلى صدريهما . وكذلك كان وداعه للصبية «اينون» وداعاً أليما فاضت له دموع الفتاة مدراراً وتصعدت زفراتها نارا ، وقد وقر فى نفسها أنه فراق الأبد.

وكان قد أعلن فى أنحاء المملكة دعوة الشباب الطرواديين إلى المساهمة أجمعين فى المباريات، فجاءوا أفواجا دون تفرقة بين الأغنياء والفقراء ماداموا جميعا أصحاء البنية أقوياء. وكان فيهم من يعرفهم شهود المباريات لسابقة اشتراكهم أكثر من مرة، كما كان فيهم خلق كثير لا يعرفهم الجمهور، لدخولهم المباراة للمرة الأولى. ولما بدأت المباراة بسباق العدائين، كانت الناس تهلل لمن يعرفونهم كلما مروا بهم، هاتفين بأسمائهم، ولم يكن من هؤلاء «باريس» فلم يعره أحد التفاتا ، ولكنه لم يمض القليل حتى ظهر تفوقه على المتسابقين، فأخذ المتفرجون يسائلون بعضهم بعضا: من يكون ؟ فلما انعقد له النصر آخر الأمر، قاده الموكلون بالمباراة إلى المنصة الملكية، فأظهر له الملك رضاه وأثنى عليه، وهشت الملكة فى وجهه وبان سرورها به وانجذابها إليه. ثم سئل عن اسمه ، فقال فى غير تردد ولا افتعال:

– أنا الأمير «باريس» بن بريام ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها ! .

فلما بانت عليهما الدهشة ، أتاهما فى الحال بالسلة

والغطاء ذى الطراز وكان قد احتفظ بهما، فتلقى الملكان ابنهما الذى كان فى عداد الأموات فى أحضانهما ، وصاح المنادى على الملأ يعلن اسم الفائز : «باريس» ابن ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها.

وتناسى الوالدان قصة الحلم وتأويله حين أبصرا وليدهما، يرد إليهما فتى بلغ مبلغ الرجال، قوى الأسر وافى النشاط رائع الجمال، قد فاق على أقرانه وأترابه، وهو بعد فى ريعان الشباب.

وهكذا عاش «باريس» فى كنف والديه مع سائر اخوته وأخواته، وأخذ يتأدب عليهم ويتلقى عنهم حتى انسلخ عن عادات الرعاة والفقراء وصار مسلكه فى كل شىء سلوك الأمراء. وعندها فكر والده الملك أن يوفده فى بعض الأسفار ليفيد منها المعرفة والخبرة.

ولما كان الملك منذ مقتل أبيه على يد العملاق هرقل، وسبى اخته الصغيرة وارغامها على الزواج من ملك جزيرة سلاميس، غير مطمئن البال على حال اخته بعد أن تواترت الأخبار بما تلقاه على يد زوجها اليونانى من المهانة وسوء المعاملة، فقد فكر الملك أن يكون سفر ولده «باريس» لزيارة عمته من الناحية الأخرى من بحر إيجة. فلم يعتم الفتى أن أبحر على مركب كبير مجهزة ومعه من الهدايا والألطاف كل نفيس. وما برحت المركب تمخر به عباب

الأزرق اللجى حتى إذا بلغ مياه سلاميس، قصد من فوره إلى القصر الملكى حيث استقبله الملك على ما جرى به رسم استقبال الأمراء، ولكنه أحس بما وراء ذلك من الجفاء. وعلى الرغم من أنه لم يقض فى ضيافة عمته إلا يومين ، فقد لمس ما تلاقيه الملكة المسكينة من الفظاظة والضيم، فلم يطب له أن يطيل المقام عندها. ويضاف إلى ذلك أنه طوال رحلته فى البحر كان يسرح بخاطره مع الأمواج المتدافقة المضطردة إلى أرض هيلين فى جنوب الجزيرة اليونانية. فكيف يطيل مقامه فى سلاميس بعيدا عنها، وليس يفصله عنها إلا مسافة يوم أو بعض يوم.

غواية الفاتنة «هيلين» !!

رفعت المركب مراسيها من ميناء سلاميس، وانطلقت منشورة الشراع متجهة إلى أسبرطة، وكانت الريح مؤاتية ، ولكن «باريس» لم يكفه من المركب انتفاخ شراعها، بل أمر بالمجاديف ليزيد من سرعة اندفاعها، فما وافت الظهيرة حتى كانت رسله قد تقدمت على ظهور الخيل بالهدايا تستأذن له فى مقابلة ملك المدينة.

وبعد لحظة أقبلت عجلة يجرها جوادان من عتاق الخيل، وكانت جوانب العجلة موشاة بالذهب، ومن داخلها بطانة الديباج، ويستقلها فارس جميل الصورة فى حلة فاخرة وزينة باهرة، وكانت

نظرة واحدة إلى مظهره تدل على أنه أجنبى قادم من الشرق الغنى.

واستقبل الملك منلاوس فى مظهره المخشوشن البسيط ضيفه الملكى القادم من الشرق الغنى، وبعد أن بادله التحية، وسأله عن موطنه وعن البلاد الآسيوية، دعاه فى غير كلفة إلى مائدته. فقدمت الجوارى أقداح النبيذ والخبز الأبيض وقطع اللحم المشوى ونحو ذلك من المأكل البسيط. فما أن فرغا من الطعام ورفعت آنيته ، إذا بامرأة أشبه بحور الجنان تدخل وعليها مسحة من السأم الحزين، وتلقى إلى ملك أسبرطة قولا يبدو أنها كانت قد كررته عليه منذ هنيهة : «ألا تزال معتزما السفر؟ وهل لا تزال عند رأيك فى السفر وحدك؟».

وينظر منلاوس إلى زوجته منكرا دخولها مع وجود غريب فى حضرته. ولا يسعه إلا أن يبادر بتعريف الاثنين، ثم الاعتذار لها بأن الوحدة تثقل عليها، وهو مضطر للرحيل الليلة، فهى تحاول أن تثنيه عن السفر أو تقنعه بالذهاب معه. ولما كان كلاهما متعذرا، فهى عاتبة غاضبة تكاد من الغضب تنسى نفسها وتخرج عن طورها. وما كاد «باريس» يرفع نظره إليها حتى راعه جمالها واضطرم قلبه هياما بها. وما كان هذا الاضطراب ليخفى على هيلين، ولقد أعجبها ذلك وراقها، وأرضى كبرياءها الذى جرحه

الزوج برفضه اصطحابها وإظهاره الصبر على بعادها، وقد زاد من ارتياحها فى هذه اللحظة إلى ما أحدثه جمالها فى نفس الغريب من الروعة أنه كان أنضر من زوجها شبابا وأغض إهابا وأجمل طلعة وأفخر حلة وأبهى زينة.

ولما كان منلاوس على أهبة السفر بعد قليل ، فقد استجمع «باريس» بقية عزمه وتحامل على نفسه واستأذن فى الانصراف. وعلى الأثر خرج ملك أسبرطة فى زمرة من أتباعه بعد أن ودع زوجته وابنته، قاصدا إلى جزيرة كريت فى زيارة فى شأن من الشئون.

وبقيت هيلين فى الدار وحدها خالية بنفسها تفكر فى حالها مع زوجها وانصرافه إلى شواغله الكثيرة التى لا آخر لها، ثم تذكر موقفها الأخير منه ، وإلحاحها عليه فى السفر معه ، وتتخيل دخولها عليه وفى حضرته ذلك الغريب ، وعندها تتوقف بتفكيرها عند هذا الغريب، فيستحضره خيالها فى عنفوان شبابه وريعان حسنه وجماله وحفل زينته وهندامه. وهى لا تنى تصرف هذه الصورة عن مخيلتها، ولكن الصورة كانت لا تنى تعاودها وتتشبث بها.

وكان اليوم عيد «أفروديت» ، والناس يحتفلون به كافة ، وقد ازدحمت بهم الطرقات ، وطافت جموع الفتيان والفتيات ينشدون

ويرقصون وتتجه مواكبهم إلى معبد الربة ، وقد ازدان تمثالها بقلائد الجوهر وأسماط الدر وأكاليل الزهر.

ولم تلبث «هيلين» حين جن الليل أن أحست فى نفسها حاجة إلى التعبد للربة ، فذهبت ومعها بعض جواريها يحملن القرابين، فما كادت تضعها على المذبح، وتستغرق لحظة فى ابتهالها ، حتى كان إلى جانبها «باريس» يسأل الربة أن توفى له بوعدها.

وقامت «هيلين» فإذا بها و«باريس» وجها لوجه، وإذا هو يمسك بذراعها فلا ترده، وإذا هو يخرج بها من المعبد فتنقاد له، وإذا هما تنطلق العجلة بهما كالشهاب الهاوى إلى الميناء، وسرعان ما ينشر الشراع للهواء وتتحرك المجاديف فى الماء، فإذا السفينة الطروادية تغادر الأرض اليونانية حاملة معها آية الجمال، حتى إذا صارت السفينة فى عرض البحر، تراءى على ظهرها تحت القمر عاشقان متعانقان وكأنهما فى عناقهما الحار شعلة نار !! .

شعلة نار كان ذلك الحب. فهو الذى أضرم للمرة الأولى نار الحرب بين الشرق والغرب.

غضبت يونان كلها للمهانة التى لحقت بها، فحمل السلاح نحو المائة ألف يونانى ، بقيادة شقيق الزوج المغصوب «أجا ممنون» ملك أرجوس، ومشاركة غيره من ملوك المدن اليونانية، وقد أقلتهم ألف مركب مجهزة أبحرت بهم من ميناء «أوليس» عابرة بحر إيجة

إلى الساحل الآسيوى حيث تقوم على مقربة من مضيق الدردنيل «طروادة» العظيمة.

وهنا وقع الصـــدام الذى تغنى بأحـــداثه العظام أول الرواة المنشـدين «هومـيروس» وإليـه يرجع من شـاء من القـارئين . أمـا نحن، فـحسبنا أن نذكر هنا على سبيل الاختـصـار ، أن المدينة الحصينة امتنعت على جيوش اليونانيين ولم يسفر القتال المرير بينهم وبين الطرواديين عن انتـصار مبين لأحد الفريقين فـاعتـمد اليـونان على الحـصـار آخـر الأمـر ، وأقـامـوا على ذلك سنوات عشرا!. ولولا ركونهم إلى الخيانة والحيلة، لما كان لهم إلى طروادة من وسيلة، وهؤلاء قد دخلوها خلسة ، وأخـذوا أهلها على غرة ، فنهبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأمـعنوا فى رجـالهم وأطفـالهم تقتيلا ، ثم أضـرموا النار أخيرا فى المدينة، فلم تزل نار الحريق ترعى فى نواحيها، وتأتى على أسوارها ودورها ومغانيها، حتى صارت أثرا بعد عين.

ولقـد فـقـد اليـونانيـون فى هذه الحرب الكثيـر من رجـالهم، وفـجـعـوا فى مـعظم أبطالهم، ولكنهم عـادوا ومـعـهم «هيلين» آية الجمال القديمة المثال، لتشرق من جديد على أسبرطة، وعلى يونان كلها فى ذلك الحين، ثم من بعده حتى اليوم وإلى أبد الأبدين ، فى مخيلة العالمين جيلا بعد جيل !! .



كليوباترا

«كليو باترا»
فاتنة الدنيا وحسناء الزمان
التى غيرت وجه التاريخ !!

كليوباترا اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الأساطير من ألوان الفتنة بهاء باهرا تضاءلت الى جانبه أسماء الزهرة وافروديت وسائر آلهة الجمال ، وهاتاسو ونيفرت وسائر الملكات ، بل تضاءلت الى جانبه أسماء الملوك ، والشعراء ، والكتاب ، فهى ليست جميلة وكفى ، وليست مليكة وكفى ، وليست ساحرة الحديث وكفى ، وليست ذكية وكفى ، وليست أديبة وكفى ، بل هى ذلك كله وهى أكثر من ذلك كله ، هى الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الإرادة فى أسمى ماتصوره معانى هذه العبارات ، وهى مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصورا طويلة كانت مصر فيها مهبط وحى الحكمة والشعر والجمال . لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباترا وأن يتغنى بحياتها وأن يصور هذه الحياة على النحو الذى يجب أن تكون . ولذلك كان ما أريق من مداد

وما سود من صحف في الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية إلهة أو ملكة أخرى أن تفخر به ! .

فتعال معى نقرأ فيما يلى قصة امرأة من أشهر شهيرات النساء فى جميع العصور ، قصة «كليوباترا» الخالدة: كليوباترا الملكة .. وكليوباترا العاشقة ! بل كليوباترا المرأة التى ابتدعت من الأساليب الجريئة .. فى السياسة ، وفى الحب ! ما غير وجه التاريخ .. وخلد اسمها على مر الزمان .. وأوحى الى المؤرخين وأهل الفن بآلاف الكتب والقصائد .. واللوحات والألحان .

★★★

وقصة كليوباترا تبدأ عندما مات أبوها الذى كان قد أوصى بأن يكون الرومان أولياء على ابنته كليوباترا البالغة من العمر سبعة عشر عاما وأخيها بطليموس البالغ من العمر عشر سنوات وأن يتزوجا الاثنين ويعتليا العرش معا ، وقد كان فى هذا الوقت يحل للأخ أن يتزوج من أخته .. وتم الزواج كما أوصى الأب ولكنه كان زواجا اسميا فقط ، فقد كان هناك صراع خفى يدور فى نفس كل منهما من أجل العرش ، فكلاهما يريد أن يستأثر بالحكم بمفرده ، كما كان لكل منهما جيشه المستقل فكان طبيعيا أن ينقلب الأخوان أو الزوجان على بعضهما حتى كادت أن تنشب المعارك بين جيشاهما ليظفر أحدهما بالعرش . فقد رابضت

كليوباترا بجيشها فى الصحراء تتربص لجيوش أخيها كما أعد هو الآخر عدته ليقضى عليها .

وفى هذا الوقت فى روما كان يدور أيضا صراع آخر بين القائدين «يوليوس قيصر» و«بومبى» من أجل زعامة روما وكانت المعارك ضارية .. بينهما حتى انتصر أخيرا يوليوس قيصر وتوجه بقواته ظافرا الى الاسكندرية ، وعندما وصلت الأنباء الى كليوباترا التى ترابض فى الصحراء بانتصار يوليوس قيصر على بومبى ودخوله الاسكندرية بدأت تفكر على الفور بعقل المرأة فقد خطر لها أن تكسب يوليوس قيصر الى جانبها ليؤازرها ويعاونها فى الاطاحة بأخيها والانفراد بالعرش . ففكرت فى العودة الى الاسكندرية لمقابلته ولكن كيف تفعل ذلك وجنود أخيها منتشرون فى كل مكان وكيف تصل الى داخل القصر الذى يقوم فيه قيصر فى الاسكندرية وكيف تهرب من الجنود المنتشرين حول القصر .

فكرت فى كل ذلك وأصرت أن تقابله بأى طريقة أو وسيلة .

وفى مساء أحد الأيام دخل عبد الى يوليوس قيصر وأخبره أن الملك الصغير «يقصد بطليموس شقيق كليوباترا» قد أرسل له سجادة ثمينة لفرشها فى غرفته فاذن له يوليوس قيصر بأن يأتى بالسجادة وعندئذ دخل العبد وهو يحمل سجادة فاخرة ملفوفة

حول بعضها ، ثم وقف أمام يوليوس قيصر ووضعها على الأرض وأخذ فى فتح السجادة ليفرشها بالأرض وعندئذ خرجت كليوباترا من بين طيات السجادة التى كانت تختبىء بداخلها، خرجت فى رونق وبهاء يأخذ بالألباب وكانت حيلتها رائعة وخبيثة فحين رآها قيصر وهى تخرج له من بين طيات البساط أعجب بها أشد الاعجاب وافتتن بها وبادلته كليوباترا الاعجاب نفسه ، وكانت النتيجة أن قضت هذه الليلة فى مخدعه !! .

امرأة ذات فتنة .. ودهاء !

كانت كليوباترا تملك موهبة حسن اختيار الوقت المناسب لتنفيذ خططها «شبه المسرحية» فظلت طيلة حياتها تلعب دورها بحنكة الممثلة المحترفة ! على أن تلك لم تكن موهبتها الوحيدة ، فقد كانت متعددة المواهب - على صورة تثير الدهشة - تناقش أعلم علماء عصرها فى الفلسفة .. والدين ، والسياسة، كما تناقشهم فى الرسم ، والنحت ، والشعر ! كانت شخصيتها الجبارة نسيجا من خيوط ذات عدة ألوان : كانت ذكية، جذابة ، ماكرة، قاسية، حنون ، طائشة ، لبقة ، كريمة .. وفقا للمناسبات ! لكنها فى كل حين - والى غير حد - كانت ظمأى الى المجد ، مثل ظمئها الى الرجال ! . حاربت الاقدار بغير سلاح سوى سلاح جمالها ودعابتها ، فكادت تنجح - كما سنرى - فى جعل روما العظيمة

مقاطعة من مصر ! ولئن انتهت حياتها بمأساة ، فما كان يمكن لامرأة مغامرة مثلها أن تتخير لها الأقدار نهاية مغايرة .

لقد اطلق على كليوباترا أنها ملهمة كل شعراء العالم ، «خليلة» الماجنين منهم جميعا !! والواقع أن عصر كليوباترا ، يقوم من تاريخ العالم مقام ليلة الكرنفال من ليالى العام الطوال .

وقد انحدرت كليوباترا من سلالة «البطالسة» وهم من أغريق مقدونيا ، فهى ليست مصرية لحما ودما وإنما تنتسب الى قائد مقدونى جاء الى مصر مع جيش الاسكندر .. وقد اشتهر البطالسة على وجه العموم بأنهم قساة لا يعرفون الشفقة : فأولهم «بطليموس الأول» يسجل عنه التاريخ أنه «قطع عددا هائلا من الروس ، وأراق فيضا غزيرا من الدماء» ، وثانيهم «بطليموس الثاني» قتل اثنين من اخوته ، وعرف بشغفه بالنبيذ الجيد والنساء ذوات السيرة السيئة ! وبطليموس الرابع قتل أمه وعمه ! وبطليموس السابع قتل أفرادا من شعبه «بالجملة» كى يعلمهم كيف يحترمون ملكهم ! وبطليموس الثالث عشر والد كليوباترا «وقد عرف بلقب عازف الناى ـ قتل ابنته الثانية «بيرينيس» ثم ألف لحنا حزينا كى يعزفه فى جنازتها ! .

وبقدر تعطشهم للدمار كان البطالسة ذوى ذكاء لماح ، ففى

مـدة حكمهم صارت الاسكندرية مركز الفنون والعلوم فى العالم القديم . وازدهرت فيها الهندسة والرياضة والفلك والفلسفة والأدب والموسيقى والنحت والرسم ، وغيرها من الفنون الجميلة ، جنبا الى جنب مع الفنون «غير الجميلة مثل فن التسميم وعلم القتل والغدر والاغتيال» . وخلال سيطرة القوم على أكبر مدينة أثرية فى ذلك العصر - كما اطلق على الاسكندرية - اكتسبوا اتقانا هائلا لمختلف اللغات وسهولة فى التكلم بها ، فاستطاعوا التعبير عن أفكارهم الشريرة بكل لسان ! .

تلك كانت السلالة نصف المتمدينة ، نصف المتوحشة التى انحدرت منها الأميرة التى مرقت من قلب السجادة المطوية كى تلتمس من قيصر أن يعينها على استرداد عرشها المسلوب ! وسحرت الماكرة بحركاتها ولفتاتها . وشعرها الأحمر المجعد ، وابتسامتها المغرية وحركتها المرنة التى لا تهدأ ، وحديثها الشائق بلغة لاتينية سليمة ولهجة اغريقية جذابة .. فلم يكن فى استطاعته أن يقاوم سحر مغناطيس هذه الحسناء المصرية ابنة العشرين ، سيما وهو الرجل الذى عرف فى شبابه بانه «زوج كل امرأة» وبأنه قد أفرط فى الانقياد لشهواته الى أقصى حد .

وهكذا وجد الكهل نفسه ينسى أنه فى الثانية والخمسين ،

ويعود شابا عاشقا فى عنفوان عاطفته وحرارته ، يعيد كليوباترا ، الى عرشها ويصبح ـ هو الذى غزا العالم بأسره ـ عبدا لأتفه نزواتها ! .

وهكذا نجحت خطة كليوباترا التى استغلت فيها أنوثتها وجسدها فكسبت الى جانبها يوليوس قيصر الذى استدعى على الفور فى الصباح أخيها الملك الذى جاء غاضبا لأنه يعلم تماما ما حدث فى هذه الليلة فاحتدم بينهما الحديث وسرعان ما قامت المعارك بين جيوش يوليوس قيصر وجيوش أخيها بطليموس ، ومن الشيء الغريب أن كليوباترا كانت طوال هذه المعارك تلازم قيصر فى خيمته ولم تفارقه لحظة واحدة حتى انتصر قيصر على أخيها الذى مات غرقا أثناء القتال . وعلى الفور وأثر ذلك تم تنصيب كليوباترا ملكة على مصر بمفردها .

وهكذا باعت كليوباترا نفسها من أجل السلطة والجاه ، باعت جسدها منذ الوهلة الأولى لقيصر فأصبحت عشيقة له حتى أثمرت هذه العلاقة بينهما عن ابن غير شرعى هو «قيصرون» وحين استتبت الأمور لقيصر وكليوباترا بالاسكندرية . فكر قيصر في الذهاب الى روما ليرعى شئونه هناك رغم أنه كان قد ترك «انطونيو» يرعى مصالح الدولة فى غيابه . ولكن كليوباترا سرعان ما رحلت فى أثره الى روما ومعها ابنها غير الشرعى ثمرة العلاقة

المشينة بينهما ، وهناك أقام يوليوس قيصر المهرجانات والاحتفالات بمناسبة انتصاره فى الاسكندرية على بطليموس شقيق كليوباترا ، وكانت كليوباترا نفسها تحضر هذه الاحتفالات وتجلس فى المنصة الرئيسية وترى اختها الصغرى «ارسنيوى» التى وقعت أسيرة أثناء القتال وهى تجر السلاسل أمام العربة التى يقودها قيصر وكانت تلك هى العادة فى احتفالات النصر أن يقوم القائد المهزوم بجر السلاسل أمام القائد المنتصر ... وقد كان شقيق كليوباترا المهزوم قد غرق أثناء القتال ، كما اسلفنا ـ فلم تبق سوى اخته «أرسنيوى» التى جعلوها تقوم بجر السلاسل، كل هذا على مرأى ومشهد من كليوباترا التى كانت تجلس فى المنصة الرئيسية وكلها كبرياء وعظمة وهى تشهد اختها الصغرى وتنظر إليها من أعلى وتتشفى فيها وفى أخيها الذى مات غرقا .. فقد كانت كليوباترا تأمل فى التخلص من كل أشقائها حتى تنفرد هى بالسلطة والجاه فقد أمرت كليوباترا بعد ذلك بقتل شقيقتها «أرسنيوى» لأنها كانت تخشى منها على العرش ، وقد كانت هذه الفعلة أحد الأسباب التي سودت صفحات كليوباترا ودنست سيرتها. وقد استند المؤرخون الى هذا الحدث للدلالة على قسوة كليوباترا وعشقها وحبها للسلطة .

أحلام عريضة !

ثم بدأ يوليوس قيصر يدبر الخطة لقلب نظام الجمهورية الرومانية وتتويج نفسه ملكا على المملكة الجديدة ، ثم الزواج من كليوباترا زواجا شرعيا وتتويجها ملكة الى يمينه .. وعندئذ يتسنى لهما نقل عاصمة الامبراطورية من روما الى الاسكندرية . ومن ذلك المركز الأوسط للبحر المتوسط الأبيض يستطيعان أن يحكما العالم!! .

ذلك كان حلم يوليوس قيصر ـ أو بالأحرى حلم كليوباترا منعكسا فى تصرفات قيصر ! فان داهية روما الخطير قد صار مجرد «أداة» فى يد أذكى إمرأة فى العالم ، كان أشبه برجل منوم يسير ، ويتحرك ، ويتصرف بتأثير قوة مغناطيسية خارقة ! وبفعل الحث المتواصل العنيف من جانب كليوباترا التى استخدمت شبابها وشهوته هو سلاحا تبلغ أهدافها المنشودة ، أخذ قيصر يسعى سعيه الحثيث ويدنو رويدا رويدا من عرش روما !! فقد بدأ بتنصيب نفسه قنصلا لمدة عشر سنوات .. ثم دكتاتورا مدى الحياة .. وأخيرا أعلن نفسه ابنا للآله «جوبيتر» مدى الدهر ! وأمر بأن يبنى هيكل له ولكليوباترا .. ووضع صورته وصورتها فى صدر المذبح كى تعبدهما الجماهير ! .

ولقد نظر أصدقاؤه وأعوانه المخلصون بارتياع الى انحلال

شخصية هذا الرجل العظيم وانهيارها بين ذراعى امرأة «لا خلق لها» ـ كما وصفوا كليوباترا فكتب الخطيب الأكبر «شيشرون» يقول فى هذا الصدد : «إنى أمقت هذه المرأة .. ولدى أسباب قوية تبرر هذا المقت ، بل لست أستطيع أن أذكر وقاحتها بغير أن تنتابنى قشعريرة وحشرجة !» .

ولقد غدت هذه «الوقاحة» تهدد بقلب نظام الجمهورية الرومانية ، فاجتمع شيشرون وسواه من الزعماء وحذروا قيصر من مؤامرة كليوباترا ، ومن أطماعه هو أيضا ! لكنه لم ينتصح بتحذيرهم بل مضى قدما فى طريق تحقيق الخطة المشتركة التى رسمها مع كليوباترا ، والتى تهدف الى استئثاره بالسلطان المطلق ، فأمر بوضع «فراش مقدس» له فى الهيكل ، وعرش ذهبى له فى مجلس الشيوخ ، ولم تبق إلا خطوة واحدة وتتم خطة كليوباترا المرسومة وتتحقق اطماعها أن يتوج قيصر رسميا ! .

وجاء شهر مارس عام ٤٤ قبل الميلاد .. وحل اليوم الموعود الذى حدد لتتويج قيصر ، وصيرورة كليوباترا سيدة العالم بأسره ! وبلغ انفعال المرأة المحظوظة أقصاه ، فى انتظار اعلان النبأ السعيد .. ولكى تخفف كليوباترا من حدة هذا الانفعال أمرت بتعليق أحد العبيد من رأسه فى سقف المكان حتى يموت شنقا ـ

فقد كان ذلك هو العلاج المفضل المألوف لأعصابها حين تتوتر ! ثم جلست تنتظر النبأ الخطير من مجلس الشيوخ .

وفى المساء تلقت النبأ الخطير ، الأخطر مما كانت تتوقع : لقد أثر شيوخ روما قيصر لا بتاج الامبراطورية بل بثلاث وعشرين طعنة خنجر ، خلفته جثة هامدة ! .

وعادت كليوباترا الى مصر بقلب يعانى فراغا مروعا ..

مارك انطونى .. بعد قيصر

لقد راهنت كليوباترا على الجواد الأول .. وخسرت .. لكنها قبل مرور زمن طويل عادت تقامر بمصيرها من جديد على جواد ثان!. وكان البطل فى هذه المرة قائدا رومانيا آخر يدعى «مارك انطونى» يفوق قيصر شبابا ، وقوة ، ووسامة وحرارة ، لكنه مثله عبد مستهتر لذلك الاله المتقلب : الطموح ! .

كان انطونى محاربا عملاقا له عقل طفل وشهية آلة .. رجلا خلق كى يبهر الانظار برهة ، ثم يقتله افراطه فى حماسته وكان وفاضه عامرا على الدوام بوسائل تسلية الناس ، وخطط استعبادهم ! لكنه كان محروما من الاتزان والتقدير الصائب للأمور متهورا فى كرمه وفى قسوته على السواء ، رأى فيه جنوده شخصا مثلهم ، يرمز للمغالاة الخارقة فى إبراز فضائلهم ، ونقائصهم البشرية ، فعبدوه وألهوه .. وقد حدث مرة ـ كما يروى

المؤرخ بلوتارك - أنه طرد مع فرقته الى خارج روما ، فكان قدوة هائلة تحتذى من جنوده ، فلقد نسى الترف الذى كان يتمرغ فيه ولم يجد غضاضة فى شرب الماء العكر الملوث وأكل الفاكهة والنباتات فى الأحراش ! .

وكانت الحياة عن انطونى مرحة لاذعة مشبعة بالتوابل ، ينظر إليها ضاحكا ساخرا .. ولم يكن يعبأ بالرأى العام ، بل كان لا يفتأ يقول : «إن فلاسفتكم يشرحون لكم كيف ينبغى للرجل أن يعيش لكننى أريكم كيف ينبغى للرجل أن لا يعيش» .

وطيلة حياته كان مثالا للرجل الذى يتصرف بوحى اللحظة أكثر مما يفعل بوحى التفكير والتدبير .. كان يهدى طاهيه ضيعة شاشعة - يكون قد اغتصبها من صاحبها بقوة السلاح - مكافأة له على وجبة طعام شهية ! بنفس الاندفاع والتهور اللذين يأمر تحت تأثيرهما بذبح ألفى رومانى - بينهم الخطيب العظيم شيشرون لأنهم خالفوا آراءه السياسية ! .

اللقاء الأول بانطوني .. لؤلؤة وكأس

وكان انطونى حين أقدم على تلك المذبحة - عام ٤٣ ق.م. يؤلف بالاشتراك مع أوكتافيوس ولبيداس حكومة طغيان مطلقة ، وكان هؤلاء الثلاثة الأمجاد قد عقدوا فيما بينهم ميثاق صداقة دائمة ، ورغم ذلك فقد كان كل منهم ينزع الى طعن شريكيه فى

ظهريهما عند أول فرصة ! . وبمقتضى هذا الميثاق قسموا العالم فيما بينهم كما تقسم البطيخة الناضجة .. ولكى ينفذوا جريمتهم التي اطلقوا عليها «توطيد دعائم سلم رومانى» انتدب انطونى للسفر الى بلاد الشرق .. وخلال تلك الرحلة كان لقاؤه بكليوباترا وصيروته عبدها الخاضع .. كما خضع لها قيصر قبله ! . ذلك أنه لم يكد يهبط مدينة طرسوس حتى أرسل يرجو من كليوباترا الحضور الى تلك المدينة كى يتحدثا سويا فى «أمور سياسية ومالية تهم الطرفين» فأبحرت كليوباترا من الاسكندرية الى حيث أرست اسطولها عند فم نهر «سيدنس» ، واتخذ انطونى مقعده فوق منصة القضاء القائمة فى ميدان السوق فى انتظار وصول كليوباترا الجميلة .. ولكن هذه أرسلت اليه مع رسول رسالة تقول فيها : «اذا أردت أن ترانى فينبغى أن تحضر الى سفينتى باعتبارك ضيفى» ! .

فتقبل انطونى الدعوة .. وسرعان ما وجد نفسه فى حديقة غناء عائمة فوق سطح الماء ، ترقص فوق ظهرها الحوريات ، وتعزف جوقة من عازفات الناى ألحانا ناعمة ، بينما تطوف فوق الرءوس سحابة من البخور المعطر تخدر الحواس وتشيع فيها نوعا من النسيان العذب ! .

وقد نسى انطونى فعلا كل شئ حين رأى كليوباترا فى هذا

الاطار السحرى ، فى ثوب شبه شفاف يمثل فينوس ربة الجمال ، وقد جلست تحت مظلة مزركشة بالذهب .. واستقبلت انطونى بابتسامة تواضع ماكرة ، وبعد تبادل الرسميات المألوفة قادته الى صالون السفينة فى الطابق الأسفل ، حيث كانت قد أعدت له وليمة مصرية فاخرة .. وأذهل الضيف أن يرى الاسراف البادى فى صحاف الطعام الذهبية والفضية ، والكئوس والاقداح المرصعة بالأحجار الكريمة ، والمفارش المصنوعة من القطيفة المطرزة ، وحين أبدى عجبه وأعجابه بفخامة الوليمة أجابت كليوباترا قائلة إن كل ما رآه ليعدو أتفه ما عندها .. ثم .. كأنما بتأثير نزوة مفاجئة ـ أهدته كل تلك الأوانى الذهبية التى أعجبته ! .

وردا لجميلها .. أهداها انطونى قلبه وآماله وحياته .. لكنه فعل ذلك باستهتاره المعهود ، فان الجندى الخشن كان عاشقا خشنا أيضا ، لا عهد له بنعومة ولباقة تقاليد البلاد الملكية .. وقد دهشت كليوباترا فى البداية لمسلكه الأخرق ، ثم ما لبث أن كيفت مسلكها وفقا لطبيعته بفضل براعتها التمثيلية ! .

وتلا ذلك سيل من الولائم الملكية ، فاقت كل وليمة منها سابقتها فى الرواء والكرم ، وقد حاول انطونى أن يجارى فاتنته في مآدبها ، لكن مآدبه جاءت ضئيلة الرواء معدومة الذوق بالقياس الى مآدبها هى ! وذات ليلة قال لها على سبيل الاعتذار أن مأدبته

الأخيرة كلفته ما يوازى بالعملة الحالية خمسة وعشرين ألف جنيه ثم أضاف :

«ولاشك أن انسانا لا يستطيع أن ينفق على مأدبة واحدة أكثر من هذا المبلغ!» فضحكت كليوباترا وقالت : «أنا أستطيع وسترى أن وليمتى القادمة سوف تكلفنى ربع مليون جنيه» ، وحين أظهر انطونى شكه فى قدرتها على ذلك راهنته على الأمر ، وحددت للوليمة اليوم التالى مباشرة ! .

وفى الساعة المعينة وصل انطونى الى يخت الملكة ، فسره أن وجد معدات الوليمة الظاهرة دون ما ألف فى الولائم السابقة ، ومن ثم هنأ نفسه مقدما : «أعتقد أننى كسبت الرهان» ثم قال لمضيفته شامتا : «أرى أن وليمتك بصحانها وطعامها وحواشيها لن تكلف عشر المبلغ الذى تراهنا عليه» .

فأجابت كليوباترا مبتسمة «انتظر ليست هذه سوى البداية فقط» ثم صفقت بيديها آمرة عبيدها أن يحضروا لها مائدة عليها كأس صغيرة من الخل ! فلبث انطونى ينتظر ، ماسوف تفعل ، نافد الصبر ، مدهوشا ، لكن دهشته تضاعفت حين جيىء للملكة بالمائدة والكأس ، فما كان منها إلا أن نزعت فى هدوء من القرط الذى تضعه فى أذنها حبة لؤلؤ وضعتها فى الخل وهى تقول فى غير مبالاة .. هذه اللؤلوة وحدها تساوى نصف المبلغ الذى

تراهنا عليه !! وحين ذابت اللؤلؤة فى السائل جرعته الملكة على مهل .. ثم قالت وهى تتأهب لاعادة الكرة «والآن يجىء دور اللؤلؤة الثانية» .

فأمسك انطونى يدها صائحا : «كفى .. لقد كسبت الرهان» .

وما كانت كليوباترا بالحمقاء الطائشة .. وإنما كانت ترمى الى هدف من وراء بذخها وإسرافها الجنونى .. أرادت أن تلقى فى روع انطونى أن ثروتها الضخمة هى خير عون له فى كفاحه من أجل السيطرة على الحكم فى روما !! فلئن كان قيصر قد مات ، ففى وسعها اثارة النزاع بين انطونى وأوكتافيوس - أما «لبيراس» ثالثهم فلم يكن بذى خطر - وعندئذ تستطيع بفضل موهبة انطونى العسكرية وثروتها هى أن تتخلص من أوكتافيوس وتتولى وحبيبها العرش الرومانى ، فتصبح سيدة الدنيا كما حلمت منذ بعيد ! .

واذا انتعشت أحلامها على هذا النحو أقلعت بيختها عائدة الى الاسكندرية بعد أن حصلت على وعد من انطونى بأن يزورها فى وطنها .. وكان انطونى مشوقا الى أن يرى بعينيه ثروة مصر الخيالية التى يتحدثون عنها ، وأن يتذوق من جديد قبلات الساحرة الصغيرة النابتة على ضفاف النيل .. وهكذا لم يضيع وقتا فى الانتظار بل لحق بها فورا فى الاسكندرية حيث استقبل استقبال

الملوك الفاتحين ، وانغمس فى سلسلة متصلة الحلقات من الملذات والمباهج والمهرجانات ، أوعلى حد تعبير المؤرخ بلوتارك : «أنها تكون محاولة عقيمة أن يحاول أحد وصف وتعداد حماقات انطونى وكليوباترا فى الاسكندرية» .

ونسى انطونى بلاده ومنصبه ، وعاش يقتات زهرة الحب ، ويبدد أطماعه وقواه ، بل يبدد ما هو أثمن منهما وأغلى : الوقت !. فبينما هو يتمرغ فى مخدع كليوباترا كان أوكتافيوس يوطد مركزه الخاص فى روما .. ولم يكن أوكتافيوس بالخصم السياسى الذى يستهان به ، فبقدر ضعف جسمه ، كان عقله قويا صلبا كالفولاذ - حتى لقد عرف بلقب «الجلاد» من كثرة الضحايا الذين حكم عليهم بالعذاب والصلب ! - فقد كان قاسيا شاذا ، يكره ضوء الشمس ولايستحم الا نادرا ! بالاختصار فانه كان أشبه بمخلوق نحيل يعيش فى حمأة من القذارة الجسمية والعقلية .

ذلك كان الخصم الذى هب لمناهضة انطونى فى كفاحه من أجل العرش الرومانى .. وشيئا فشيئا أخذ أوكتافيوس يتلمس طريقه الى القمة ، ويتلمس سببا لمبادأة انطونى بالعدوان ! وقد يسرت له المصادفة سبيل هذا العدوان ، فان زوجة انطونى «أوكتافيا» كانت شقيقته هو .. ومن ثم سهل عليه أن يتهم غريمه

باهمال أمر زوجته وخيانتها مع امرأة أجنبية - ولم يكن متجنيا فى هذا الاتهام كما رأينا ! ثم لم يكتف بذلك بل حرض أخته على السفر الى مصر لمحاولة اقناع زوجها بالعودة الى وطنه وبيته، رغم علمه بعقم هذه المحاولة .

وحين عادت أوكتافيا الى روما بخفى حنين ، اندفع أوكتافيوس الى مجلس الشيوخ يهاجم من فوق منصته علانية ذلك «الخائن المنحل الخلق ، الوحش المخمور الذى وعد العاهرة الأجنبية بأن يهبها الامبراطورية الرومانية ثمنا لحبها» .

ووافقه الشيوخ الرومان على أن ذلك أمر لم يعد يحتمل .. وهكذا أعد على الفور أسطولا خاصا كى يبحر لمحاربة انطونى ! وحين بلغ النبأ مسامع انطونى ، أعد بدوره اسطولا لمحاربة خصمه .. وأردف ذلك بتطليق زوجته أوكتافيا وتزوج من كليوباترا! ثم نصب نفسه محررا لروما ! .

وبلغ من ثقة انطونى بانتصاره أنه احتفل بهذا الانتصار قبل أن يبدأ القتال .. فكان إبحار اسطوله أشبه باستعراض فى مهرجان أكثر من كونه يسير الى معركة ! وبنفس هذه الروح صحبت كليوباترا زوجها الى القتال ، ترافقها فرقة من جيشها الخاص .. وكانت آمال الاثنين فى النصر تكاد تبلغ عنان السماء .. إن الأمر لن يحوجهما الى أكثر من مناورة قصيرة مثيرة ظافرة

لاسيما وأن اسطولهما أكبر وأقوى وأصلح عتادة وعدة من اسطول خصمهما ! ثم يخرجان من المعركة سادة للعالم ! .

وتأهب انطونى للقتال بالانغماس فى الشراب ، ففى صبيحة يوم المعركة كان ثملا من الخمر .. وفى أمسية اليوم نفسه كان ثملا من اليأس .. فان أبعد الأمور احتمالا قد وقع : هزمت سفن انطونى الكبرى واحدة بعد واحدة أمام سفن خصمه الصغيرة ! وفى وسط المعركة وجدت كليوباترا الجو «حارا» لا يلائم راحتها فهجرت انطونى مع فرقتها الكاملة ، تاركة إياه يخوض المعركة بمفرده ! وفى تلك اللحظة فقط زايلت انطونى شجاعته وانهارت معنوياته . استسلم الجندى فيه للعاشق استسلاما تاما ، فلم يكد يرى كليوباترا تبحر عائدة الى مصر حتى هجر بدوره كل جنوده المحاربين الذين يعرضون حياتهم للخطر من أجله وتبعها الى الاسكندرية ! .

وكانت تلك نهايته السياسية والحربية .. فقد نظر الجميع باحتقار الى البطل المهزوم الذى تبع راية «قميص امرأة» بل أن كليوباترا نفسها احتقرته .. فقد كانت تعرف كيف تهلل للمنتصر ، لكنها كانت تجهل كيف تواسى المهزوم ! وقد أفل نجم انطونى كما أفل نجم قيصر من قبل ، فلم تعد بها حاجة إليه ! .

لكنها قد تكون بحاجة الى غيره ، فإن أحلامها بالجلوس على

عرش روما لم تتبدد بعد .. ولئن تعذر عليها أن تحققها كزوجة لقيصر أو انطونى . ففى وسعها أن تحققها بصفتها زوجة «أوكتافيوس»! .

ولم لا ؟ .. أغلب الظن أن أنطونى سوف يقتل نفسه همًا وكمدا بعد الهزيمة وبذا تتخلص منه ومن التزامات الاخلاص له ، وعندئذ يراها أوكتافيوس ، فيروق حسنها وشبابها فى عينيه ، ويدرك بذكائه أنها على استعداد لتعويضه عما سلف ! وماذا يهمها من شخصية الجالس بجوارها ، مادامت تستطيع أن تجلس على عرش روما .. عرش الدنيا بأسرها ؟ . ،

لكن هناك ثغرتين فى حسبانها قد تعترضان تحقيق أطماعها : ذبول جمالها ، وعصيان قلب أوكتافيوس .. فهل ترى يصدق ما فى الحسبان ؟ أم تقهر هى ذلك العصيان ؟ .

وانتحر انطونى ، كما توقعت ، وجاء أوكتافيوس ، ليراها ، لكنه جاء ، ورأى ، ولم يقهر ! .

وإن كان قد عرض عليها فعلا أن يأخذها معه الى روما ، ولكن لا كزوجة .. بل كواحدة من عبيده ! إنها بالنسبة إليه لم تكن أكثر من أسيرة حرب ، لا أميرة تصلح للجلوس إلى جانبه على العرش ! .

وهاهى ذى كليوباترا فى قصرها تفكر وترسم ، وتراجع

وسائلهَا ، ولعلها أخذت تدبر أمر «اخراج» مشهد مروع جديد .

أيا كان التدبير الذى أخذت به ، فان أوكتافيوس لم يترك لها طويلا – ملكة مصر ، سليلة الفراعنة ، زوجة يوليوس قيصر وأم ولده ثم زوجة انطونى – كبرياءها كبرياء الأنثى التي عرفت السيطرة على أبطال الرجال ، شعورها بانطفاء الفتنة فيها - وياله من لاعج مرير - والى جانب هذا ، وهو الأهم يقينها بأنه لم تعد هناك وسيلة تحفظ عليها تاجها ، وتصون وطنها .

كل هذه العوامل مجتمعة ، أنهت عزمها على شىء .

فوق سرير من ذهب يحوطه جلال الملك وترف الفراعنة ، بين أنين الناى وتعانق الدخان الصاعد من المباخر ، أسلمت كليوباترا جيدها الى أفعى سامة ، اختارتها من بين أفاعٍ ، يكون الموت من نابها وكأنه نعاس رقيق يزيد من رواء الحسن وتوهج الفتنة !.

كان الرومان ، أعداؤها يؤمنون بأن فى الانتحار بطولة دونها بطولة ، اذا جاء مخلصا من ذل وهوان! .

انتحرت كليوباترا إعلاء لعرش مصر ، وبذلت فى سبيله عرش جمالها وفتنتها ، وبانتحارها غيرت وجه التاريخ فيما قدره لها أعداؤها ، فلم تدخل روما فى ركاب الأسر والذل ، وبقيت بحياتها، ثم بجمالها ، اسطورة ينشدها التاريخ ، عنوانها الفاتنة التى غيرت وجه التاريخ .

«تيودورا»
الممثلة المتوّجة التى حكمت أعظم امبراطورية عرفها العالم فى عصرها !!

«تيودورا» شخصية من أعجب شخصيات التاريخ .. ممثلة خرجت من بيئة وضيعة ، ثم ارتفعت الى أوج المجد ، وتربعت على عرش أعظم دولة فى عصرها ، فهى جديرة إذن بأن يتناولها محبو الاطلاع بالدرس والتمحيص .

كانت لهذه المرأة العجيبة «تيودورا» قدرات ومواهب فذة أو قل غريبة جدا ، فهذه المواهب جعلتها ترتقى من مجرد خادمة فى سيرك الى راقصة فى نفس السيرك ثم جعلتها فجأة ترتقى الى امبراطورة قوية تجلس على عرش القسطنطينية ! فكان لها من النفوذ والجبروت ما جعلها قادرة على فعل ماتشاء فى أى وقت وعلى أن تأمر فتطاع مهما كان الأمر ، كما جعلها هذا الجبروت تقوم بقتل ثلاثين ألف رجل من أفراد الشعب بعد أن دبرت لهم مؤامرة حقيرة وخدعة دنيئة حتى أن هذا العمل يعد من أسوأ أعمالها كما يعد من أبشع الجرائم وأفظعها فى تاريخ البشرية .

نشأت هذا المرأة «الرهيبة» نشأة حقيرة فقد كانت مجرد خادمة فى سيرك تقوم بأعمال النظافة وظلت هكذا حتى بلغت العاشرة من عمرها فكانت ترافق شقيقتها الكبرى الى بيوت الدعارة ثم تنتظرها بالخارج دون أن تشاركها الممارسة فأعوامها القليلة كانت لا تسمح لها بذلك كما أن جسدها الصغير الذى لم ينضج بعد لن يروى ظمأ الرجال .. ولكن تيودورا حين بلغت الثانية عشرة اعتبرت نفسها مؤهلة لأداء هذا الدور فلم تتردد فى مشاركة اختها المهنة بل أنها اقبلت إقبالا نهما علي الرجال ومواخير الدعارة ، وكان شغلها الشاغل فى ذلك هو جمع المال فاستغلت أنوثتها المبكرة وفتنتها فى الايقاع بكل من يصادفها من الرجال، وقد اشتد حبها للمال لدرجة أنها كانت تبيع جسدها لكل من يدفع الثمن سواء كان من النبلاء أو عامة الشعب بعد أن كانت تقتصر على النبلاء فقط ، لأنه أصبح لا يعنيها فى شىء مظهر الرجل أو شكله بقدر ما يعنيها شكل العملة التي سيدفعها .

ولو اعتبرنا الدعارة مهنة كأى مهنة أخرى كما كان ساريا فى الأجيال السابقة والازمان القديمة حيث كانت لهؤلاء الفتيات رخصة يمارسن بمقتضاها مهنتهن ويخضعن للكشف الطبى الدورى عليهن ، وكانت لهن بيوت خاصة يعملن من خلالها فلو اعتبرنا هذا فإنه لابد وأن يكون لهذه المهنة أصول وتقاليد توضع

فى الاعتبار الا أن تيودورا لم تراع أى أصول للمهنة أو تقاليد حيث اتبعت اسلوبا حقيرا ومقززا قد تشمئز منه بعض الساقطات من زميلاتها ولا يقدمن عليه ! فالمرأة مهما بلغت من الترخص والفجور فلابد وأن تحتفظ لنفسها بشيء من الحياء ..أما تيودورا فكانت تقوم ببيع جسدها لمن يدفع أكثر وكأنها تعرض سلعة فى مزاد فإذا كان لديها عميل ، وجاءها آخر يستطيع أن يدفع أكثر قامت على الفور بطرد العميل الأول فى وقاحة وفجور ثم رحبت بالثانى وهى تتلوى له أيضا فى وقاحة وفجور .

وعن طريق تجوالها هذا بين الرجال تعرفت على بعض المسئولين عن مسارح المدينة فاستطاعت عن طريقهم الصعود الى خشبة المسرح فنجحت نجاحا كبيرا بفضل قدرتها الكبيرة على إضحاك الرواد ، فهى تعبث بملامح وجهها بشكل عجيب وترقص وتتلوى بمهارة فائقة فتجعل الجميع يضحون بالضحك ، وقد وجد فيها شباب الطبقة الارستقراطية لونا جميلا شهيا للتفريج عن أنفسهم فكانت لا تخلو حفلة أو مأدبة لهم من تيودورا . ويذكر المؤرخ : «بروكوبياس» أنها فى إحدى هذه المآدب سامرت على انفراد عشرة ضيوف وثلاثين عبدا وحين أوشك الفجر على الشروق كان الجميع مرهقين ومنهكى القوى عدا تيودورا التى كانت بكامل حيويتها ونشاطها .. وقد كان للحظ معها دور كبير

فقد لعب معها لعبته الأولى حين تعرفت على أحد النبلاء يدعى «هيكيبولس» ، وكان قد عين حاكما لاقليم بنى غازى فأقام حفلا كبيرا ابتهاجا بمنصبه الجديد فاستدعى تيودورا كى تكون نجمة هذا الحفل فرقصت تيودورا وأبدعت حتى الصباح وقصدت أن تلفت نظر الحاكم اليها حتى أنه كان فى شدة الغبطة والسرور الى الحد الذى جعله يطلب منها مصاحبته الى قصره .. فما كان من تيودورا الا أن سألته بخبث «بصفة زوجة لك» ؟ .

فأجابها الحاكم قائلا :

ـ أن القانون يمنع زواج النبيل من راقصة كما تعلمين .

فأجابته العاهرة بابتسامة ماكرة وبلهجة استفهامية خبيثة «إذن سأكون خليلة ملك» ثم قالت وهى تبتسم وتتلوى «حسنا» .

وكانت تلك خطوة عظيمة بالنسبة لراقصة فقد انتقلت رأسا الى قصر أحد الحكام .. الا أن الأمر لم يدم طويلا فقد كانت افريقيا فى هذا العصر قارة مقفرة موحشة فلم تطب لتيودورا فأحست بالملل واشتاقت الى القسطنطينية حيث حياة الليل والسهر حتى الصباح وزاد من شعورها هذا أن الحاكم وضعها فى جناح الحريم بالقصر فلم يكن لها من أنيس سوى الجارية التى تعمل على خدمتها فقد كان «هيكيبولس» فى معظم الأيام مشغولا بتصريف أمور الولاية فلم يكن يتصل بها كثيرا ، ويبدو

أن مثل هذه المرأة قد تعودت على عدم حرمانها من الرجال أو عدم قناعتها برجل واحد فدفعها ذلك الى رشوة جاريتها كى تساعدها على إدخال أحد الشبان الى مخدعها حين يكون الحاكم متغيبا عنها ، وحدث ذات ليلة أن توجه «هيكيبولس» فجأة الى مخدعها على غير انتظار ففوجىء بخيانتها له فطردها علي الفور شر طردة الى الصحراء ، فهامت على وجهها وعانت فى هذه الصحراء القاحلة حتي وصلت بعد طول مسير الى أبواب مدينة الاسكندرية وهناك لم يسمح لها الحارس بالدخول فكان ولابد أن تلقى عليه بابتسامة خبيثة داعرة ، ودخلت تيودورا الاسكندرية أو باريس العالم القديم فتسكعت فى الطرقات كبائعة هوى حقيرة ، حتى قبض عليها ذات يوم فى مشاجرة بالطريق العام فكان عقابها أن وصم ظهرها بقضيب من الحديد الساخن ظل أثره منقوشا على جسدها حتى ماتت .

النبوءة الصادقة

وظلت تيودورا تنتقل فى بلدان الشرق مدة من الزمن ، وهى فى حالة مزرية ، وقد رئيت فى الاسكندرية وانطاكية وبيروت وحمص وغيرها من المدن المصرية والفينيقية والسورية تمارس مهنتها وتحترف الرّذيلة لتضمن رزقها . ويقول المؤرخ بروكوبياس الذى كتب تاريخ تيودورا : «إن الشيطان أراد ألا

يجهل بلد واحد في العالم من هي تيودورا الفاسقة» وكان ذلك في سنة ٥٢١ .

ويبدو أن إقامة تيودورا مدة طويلة في مصر وسوريا وفينيقيا كان لها أثر بعيد في تكييف حياتها وتوجيهها في المستقبل ، ففي ذلك العهد كانت الاسكندرية مدينة كبيرة ذات تجارة واسعة ، يرحل تجارها الى الصين و الهند وسيلان لجلب الحرير والتوابل والأحجار الكريمة وغيرها ، كما كانت مستودعا تصدر منه الى موانيء البحر المتوسط حنطة وادي النيل ومنتجات الشرق الأدنى وعلاوة على ما عرفت به في ذلك العهد من أنها مركز من أهم مراكز التجارة في العالم ، ومدينة اللهو والبذخ والترف والأناقة ، بفضل ما فيها من الثروات الضخمة ، والغانيات الجميلات اللواتي حفظ التاريخ اسماءهن مثل تاييس ، وكريزيس وغيرهما ، كانت الى جانب كله قد اشتهرت منذ الرابع للميلاد بأنها إحدى عواصم المسيحية ، ومعاقلها الكبرى بجانب كونها عاصمة مصر .

ولم تبلغ المشاحنات المذهبية والخلافات الدينية والمجادلات القائمة علي التعصب حينا وعلى التراضي حينا آخر ، ما بلغته الاسكندرية من شدة وعنف ومبالغة .

على أن سكان الاسكندرية كانوا يمجدون ذكرى الابرار الذين

أنشأوا الأديرة فى صحارى مصر ، وأشاعوا فيها حياة الرهبنة ، أحاطت الأديرة وأماكن العبادة مدينة الاسكندرية وملأت ضواحيها ، وكان عدد الرهبان والمتعبدين والزهاد الذين هجروا العالم ليعيشوا فى الصحراء الغربية ، حيث الأديرة وصوامع العبادة التى لا حصر لها ، كبيرا الى حد جعل العالم المسيحى يطلق على تلك الصحراء اسم «صحراء القديسين» .

ولما نزلت تيودورا فى مصر ، للبقاء فيها مدة من الزمن ، كانت البلاد فى حالة قلق واضطراب ، من جراء ذلك العراك الدينى الذى أشرنا اليه والذى لم تخفف من غلوائه جهود المتعبدين والنساك الداعين الى السلام والوئام .. بل إن ذلك العراك ما لبث أن أمتد الى الأديرة وأماكن العبادة نفسها .

وذلك لأن الامبراطور «أوجستين» الذى كان فى ذلك الوقت جالسا على عرش بيزنطة - ومصر ولاية بيزنطية - كان شديد الرغبة فى إزالة الخلاف الذى أدى إلى انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية أو بعبارة أخرى عن سلطة البابا فى روما . وقد بذل اوجستين جهده فى هذا السبيل وراح يضغط على رؤساء الكنيسة التابعين له فى أنحاء امبراطوريته الشاسعة لحملهم على مجاراته فى التساهل مع روما والانقياد الي توجيهها ولكن رؤساء الكنيسة الشرقية عارضوه وقاوموه ، ورفضوا الاذعان لأوامره ،

فجعل يضطهدهم ويشردهم ويسجن بعضهم ، واضطر كثيرون منهم إزاء ذلك الى الهرب والالتجاء الى مصر حيث حماهم بطريرك الاسكندرية «تيموثاوس» وانزلهم بالأديرة المصرية حول الاسكندرية أو فى الصحراء الغربية ! .

ولم تتناول الاضطهادات رجال الدين وحدهم ، بل تعدتهم الى العلماء والأثرياء ورؤساء العائلات النبيلة ، و سيداتها ، فكل من عارض الامبراطور أو تمرد على إرادته ، كان يناله شىء من نقمته، وهكذا فر أيضا من سوريا الى مصر عدد كبير من علية القوم ، ولجأ هؤلاء جميعا الى الأديرة حيث ظلوا محتفظين بعقيدتهم رافضين الانقياد لرغبات الامبراطور .

فى ذلك الجو المضطرب وتلك الظروف الحرجة ، هبطت تيودورا أرض مصر شريدة طريدة ، فلم يكن عجيبا أن تدفعها طبيعتها الجامحة الى أخذ نصيبها من الجدل الذى شغل الناس - كبيرهم وصغيرهم - فى مدينة الاسكندرية عاصمة البلاد ! .

وقد اتصلت تيودورا بالبطريرك تيموثاوس ، فرحب بها ولاشك فى أنه حاول التأثير فى نفسها ليحملها على العدول عن سيرتها واصلاح سلوكها ولاشك أيضا فى أن تيودورا قد تأثرت بوعظ ذلك الشيخ الجليل التقى الورع ، وأنها حاولت اصلاح ما فى نفسها

من مفاسد . وقد ظلت طول حياتها تقدس اسم ذلك الشيخ الذى كانت تتحدث عنه باجلال وتقول «أنه صاحب فضل علىّ لن أنساه» وكانت تلقبه كلما ذكرت اسمه بلقب «أبى الروحى» .

ولما شاءت الاقدار فيما بعد أن تتولى تيودورا شئون الدولة الرومية وتدبر أمورها وتنظم كنيستها أظهرت فى ذلك براعة ومهارة ، ومعرفة تدل على أن الدروس التى تلقنتها عن البطريرك الاسكندرى لم تذهب سدى ! .

وقد اشترك فى إرشادها ، مع البطريرك تيموثاوس ، عالم آخر من علماء الكنيسة الشرقية هو «سفيروس» وقد اعترفت فيما بعد بأن هذا الرجل الصالح قد هذب نفسها وأبعدها عن الهاوية وعلمها الكثير مما كانت تجهله ولما أصبحت فى بيزنطة صاحبة قوة واقتدار ، دعت سفيروس وأصحابه الى الإقامة بالقسطنطينية وفتحت لهم أبواب قصرها وحملت زوجها الامبراطور على تأييدهم وحمايتهم ومساعدتهم بما له من نفوذ وسلطان ، وظلت من ناحية أخرى تعطف على الاسكندرية عطفا خاصا وتقول عنها «أنها أحب المدن الى قلبى» .

ولكن تيودورا لم تذهب الى مصر للإقامة بها ، ولذلك سرعان ما قررت مغادرتها لتستأنف رحلتها الى حيث تجد الاستقرار الذى تنشده لنفسها .

رحلت الى سوريا حيث نزلت بمدينة انطاكية ، أكبر المدن السورية فى ذلك العهد ، وكانت انطاكية ، مثل الاسكندرية مسرحا لمشاحنات دينية معقدة ، ولكنها أقل عنفا من مشاحنات العاصمة المصرية . كما أنها كانت أقرب الى بيزنطة منها الى الاسكندرية ، من حيث الحياة الاجتماعية وميول الشعب وأنواع لهوه وتسليته . ففى انطاكية كان هناك ملعب مثل ملعب القسطنطينية ، وكانت هناك دور للتمثيل والتهريج ومواخير للفسق والفجور بجانب أماكن العبادة ، كما كان فيها ممثلات وراقصات ، ومنجمون ودجالون .

وفى انطاكية عادت تيودورا شيئا فشيئا الى سيرتها الأولى ، وجعلت تتردد على قارئات الكف وضاربات الرمل ، وابتعدت عن الرهبان والوعاظ والمبشرين ! .

وهناك توثقت عرى الصداقة بينها وبين «ماسيدونيا» الغانية التى اشتهرت بأنها تجيد استطلاع الغيب بقدر ما تجيد الرقص والغناء ! . وقد تنبأت ماسيدونيا لصديقتها الجديدة بأن مستقبلا باهرا ينتظرها وبأنها سترتقى مدارج المجد والشهرة ، وترتفع الى أعلى مايمكن أن ترتفع إليه إمرأة ! .

وصدقت تيودورا صديقتها الجديدة وصارت تأوى كل ليلة الى فراشها وتغمض أجفانها وهى تتخيل نفسها زوجة لسيد الأبالسة

الحائز على كنوز الأرض .. الكنوز التى سوف تصبح لها دون سواها من الناس ! .

كانت الأحلام الحلوة تداعبها فى منامها فتصحو قبل الفجر وتصلى .. ثم تطلب من الله أن يحقق آمالها واعدة بأن تعدل عن حياة اللهو التى تحياها ، وتصبح امرأة تقية صالحة ! .

وكانت ماسيدونيا تعرف الأمير جستنيان ابن الامبراطور أوجستين وولى عهده وقد خدمته من قبل فى القسطنطينية فى ظروف عصيبة ، فحفظ لها الأمير الشاب جميل صنعها ، وأغلب الظن أن ماسيدونيا هى التى مهدت لصديقتها تيودورا سبيل الاتصال بولى العهد ، ودخول القصر ، وأنها استعانت لذلك ببعض أصدقائها فى حاشية الامبراطور وابن أخيه .

السعادة الكاملة مجسمة في تيودورا !!

حينما التقى جستنيان وتيودورا نحو سنة ٥٢٢ م ، وهو مازال وليا العهد كانت سنه تتراوح بين الثامنة والثلاثين والأربعين ، وكان جميلا جذابا ، ذا بشرة زاهية ، وشعر مجعد ، ووجه صبوح، وقامة معتدلة ، تضمها ثياب فاخرة ، تسبغ عليها أناقة تسترعى الأنظار.

وكان جستنيان خفيف الروح حلو الحديث ، لطيفا مع الناس

على جانب عظيم من الثقافة فضلا عن الثروة الضخمة التى يملكها ، ومنصب الامبراطور الذى ينتظره .

ولما نجحت المؤامرة التي دبرها رجال القصر على الامبراطور انستاسيوس ، وجلس عمه أوجستين على العرش ، بقى هو وليا للعهد مقدما على جميع رجال الدولة . فقد اغدق عليه عمه الالقاب والنعم وجعله قائداً لحامية العاصمة ، وأخذ يعده ليكون خليفته على العرش ولم يكن بالعجيب إذن أن تتطلع اليه أنظار تيودورا الحسناء ، وأن تعمل جاهدة لاكتساب قلبه ! .

وكان جستنيان بعيد المطامع وبعيد الاهداف واسع الحيلة حريصا على أن يسير كل يوم خطوة الى الأمام فى سبيل غرضه الأسمى وهو الجلوس على العرش .. وقد حصر جهده منذ اللحظة الأولى فى إبعاد منافسيه من طريقه ، والتخلص شيئا فشيئا من جميع الاشخاص الذين قد يعترضون ارتقاءه العرش أو يقيمون فى سبيله العراقيل .. وقد نجح فى هذا نجاحا عظيما بفضل استمالته جميع الأوساط والبيئات فى المجتمع البيزنطى الى أبعد حد ، ولأن حبه للناس جعلهم بدورهم يحبونه بصدق واخلاص .

وكان طبيعيا أن يعطف رجال الدين فى العاصمة على جستنيان وأن يحرصوا على تأييده فى جميع خطواته، ذلك لأنه كان متدينا عن إيمان وعقيدة ، متمسكا بمبادىء الكنيسة الشرقية

برغم المساعى التى بذلها عمه الامبراطور للتقرب من روما والكنيسة الغربية .

وعشقته الجماهير لأنه كان كثير التجوال فى المدينة ، يختلط بالناس ويغدق عليهم العطايا .

وهكذا كان كل شيء يدل على أن جستنيان جدير بثقة الامبراطور وبمحبة الشعب على السواء، كما كان كل شيء يدل على أن هذا الأمير الناضج القوى المحبوب، قد أحب من كل قلبه تيودورا الحسناء، وبات لا يعادل حبها عنده أى شيء فى الوجود!.

وقد حار الناس فى تعليل تلك العلاقة الغرامية التى توطدت بين ولى العهد الراجح العقل ، ذى الاهداف السامية ، وبين تلك الممثلة ولم يستطع كثيرون منهم أن يكتموا دهشتهم من قيام تلك العلاقة الغريبة ، وجعلوا يبحثون عن الاسباب والعوامل التى حملت جستنيان على الارتباط بتيودورا برابطة الحب ، فلم يعثروا على ما يشفى غليلهم ، ولهذا راحوا يقولون « إن الغانية الماكرة عمدت الى السحر والشعوذة للتسلط على قلب عشيقها » .

ولم يكن هناك مايدعو الى ذلك ، فان الأمير الشاب كان يحمل بين ضلوعه قلبا سريع التأثر ، يلتهب من الشرارة الأولى ، وكان يميل الى مغازلة النساء ، ويصغى باهتمام الى مايروى حوله من مغامرات غرامية ، وكان فضلا عن ذلك كله ، ضعيف الارادة أمام

المرأة ، بل أمام كل شخصية قوية برغم مظاهر الشدة والعناد التى كانت تبدو عليه .

وفى الوقت نفسه كانت تيودورا بارعة الجمال ، حادة الذكاء ، لطيفة المعشر ، عذبة الصوت والحديث ، تعرف كيف تأسر قلوب الرجال الذين يتقربون اليها وكيف تبقيهم فى أسر جمالها وظرفها، كما أنها تعودت أن تدرس اهدافها بدقة ، وترسم الخطة المثلى لبلوغها ، ثم تمضى مى سبيل ذلك فى صبر ومثابرة ، لا يثنيها عن عزمها أى شيء ، وهكذا ما كادت ترى جستنيان للمرأة الأولى ، وكانت قد علمت عنه كل الصفات التى يتصف بها ، حتى قررت اقتناصه ورسمت لذلك خطة نفذتها بحذافيرها كللت بالنجاح !.

أما هو فقد وقع فى حبائلها منذ اللقاء الأول ، فانقض عليه الحب انقضاض الصاعقة وشعر بأن هناك قوة خفية تدفعه الي أحضان تلك المرأة التي قال عنها فيما بعد «أن جميع الصفات التى كنت أرغب فى أن أجدها عند المرأة وجدتها فى تيودورا» .

وظل جستنيان وفيا لتيودورا طول حياتها ، وبقى حبه لها قويا عنيفا حتى موتها ، كما كان منذ اليوم الأول الذى لقيها فيه ! .

وقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين لهما بأن جستنيان كان يعد تيودورا ألزم له من الهواء ، وقال آخر أنها كانت السعادة الكاملة

المجسمة فى امرأة كاملة وكثيرا ما وصفها جستنيان نفسه بأنها اسم على مسمى ، وكلمة «تيودورا» معناها : «هدية الله» أو «هبة الله» وطبيعى أنه وقد أحبها كل ذلك الحب العنيف لم يكن يرفض لها طلبا أو يبخل عليها بأى شيء تطلبه منه .

كانت تحب المال فأغدق عليها بلا حساب ! .

وكانت تهوى المظاهر والألقاب فأقنع عمه الامبراطور بأن يمنحها لقب نبيلة فارتفعت الى أعلى درجات المجتمع البيزنطى !.

وكانت عنيدة فى آرائها متشبثة بها ، فعمل جستنيان بجميع تلك الآراء بعد أن وافق عليها ، وأصبح منفذا لارادتها مؤيدا لاهوائها صديقا لاصدقائها خصما لخصومها ! .

وحدث فيما بعد ما هو أعجب من ذلك وأبعد فقد تمكن الحب من قلب جستنيان الى حد أنه أعلن ذات يوم أنه راغب فى اتخاذ عشيقته زوجة حليلة ، ويظهر أن الامبراطور أوجستنيان الطيب القلب لم يمانع كثيرا فى إقدام ابن أخيه وولى عهده على ذلك الزواج المخالف للعرف والتقاليد والكرامة ، كان هذا هو المنتظر لأن الامبراطور نفسه نشأ جنديا ولم يكن ينحدر من سلالة ملوك أو أمراء أو نبلاء ، ولذلك لم يَرَ ضرا فى أن يتزوج ابن أخيه راقصة الملعب التى اتخذها خليلة له ، ومما يذكرأن الامبراطور العظيم كان هو أيضا قد تزوج جارية مجهولة الأصل ، بعد أن

اتخذها عشيقة له فى خلال توليه قيادة الجيش الرومانى ، وقد رافقته فى غزواته وحروبه ، ثم تزوجها وأجلسها على العرش يوم بايعه الروم بالملك على أثر انتصاراته الباهرة ! .

فلماذا إذن يمانع الامبراطور أوجستين زواج جستنيان وتيودورا ، على أن العراقيل جاءت من حيث لم يكن أحد ينتظر فكانت المعارضة فى الزواج لا من الامبراطور ولا من أحد رجال الحكومة أو الجيش أو رجال الدين بل جاءت هذه المعارضة من جانب الامبراطورة «أوفاميا» زوجة الامبراطور الشيخ وعشيقته السابقة المجهولة الأصل !! .

غير أن الاقدار حلت المشكلة .. فقد ماتت أوفاميا فى سنة ٥٢٣م ، وجاء موتها فى الوقت المناسب ، وهدأت ثورة جستنيان وعشيقته ولم يبق عليهما الا التمهيد القانونى للزواج المنشود .

وقبل أن يتزوج جستنيان عشيقته تيودورا نفحها هدية باهظة جعلتها فى مصاف الاغنياء لتيودورا ، ولم يقابل البيزنطيون هذا الزواج بشىء من الامتعاض ، ولم يتأفف منه غير بعض المحافظين المتمسكين بالتقاليد ممن رأوا فى هذا الحادث دليلا على أن جستنيان قليل الاهتمام بمكارم الأخلاق ، فى حين كان بوسعه أن يختار زوجته من بنات الأسر النبيلة الغنية أو من بنات الملوك فى الشرق أو الغرب !! .

ولم تصدر كلمة اعتراض واحدة عن مجلس الشيوخ أو الجيش أو رجال الكنيسة ، أما الشعب فقد تذكر أنه طالما صفق لتيودورا الممثلة فى ملعب العاصمة ، فراح من جديد يصفق لها وهى على مدارج العرش ! .

وما كادت تعقد زواجها حتى بدأت تتدخل فى شئون الدولة ، بوصفها شريكة ولى العهد فى نشاطه ومسئولياته ، وقد رضى هو بذلك كما رضى به الامبراطور الشيخ أوجستين الذى غمرها بعطفه وحنانه ، منذ عرفها ووافق على زواجها .

إن تيودورا كانت تتمتع بسلطة لم تكن هى نفسها قد أدركت بعد مداها ، وبنفوذ لم تكن بعد قد لمست قوته ، فزواجها من جستنيان الأمير المحبوب ، ضاعف حب الناس لها ، لأنها من بنات الشعب ، فصعد نجمها جنبا الى جنب مع نجم الزوج الذى اختارها شريكة لحياته ، وبعد أن كان الامبراطور قد منحها لقبا نبيلا قبل الزواج ، عاد فمنحها لقبا أرفع منه بعده ، ففى ابريل سنة ٥٢٧ أصدر أوجستين مرسوما امبراطوريا يقضى بأن تكون تيودورا مثل جستنيان شريكته فى العرش .. وبعد أيام من ذلك الاعلان الرسمى الصريح ، عقد اعضاء مجلس الشيوخ جلسة فى بهو القصر الامبراطورى حضرها مندوبون عن الجيش والحرس ، وصعد الامبراطور أوجستين الى منصة العرش . وأعلن مرة

أخرى أن ابن أخيه جستنيان أصبح امبراطورا ، وأن زوجته تيودورا أصبحت امبراطورة تشاركه السلطة والحقوق والواجبات!! .

حينما تحكم المرأة

فى بادىء الأمر عرفت تيودورا بعد الزواج من جستنيان باسم «زوجة الامبراطور» الا أنه لم يمر وقت طويل حتى عرف هو باسم «زوج الامبراطورة فقد طغت شخصية تيودورا القوية الخبيثة على شخصية جستنيان فكانت وكأنها تجلس على العرش بمفردها ! فقد أرادت أن تنسى أيام هوانها واسترخاصها وأن ترضى شيئا مافى نفسها فاطلقت لغريزة الشر العنان فلم يشهد تاريخ الامبراطورية البيزنطية امرأة ، ولو حتى من سلالة الملوك أشد غطرسة وكبرياء من تيودورا خادمة السيرك ! .

فقد أجمع معاصرو تيودورا على القول بأنها مارست السلطة التى استمدتها من زوجها الامبراطور ، بلا قيد ولا شرط ، بل إن سلطتها احيانا كانت تعلو علي سلطة جستنيان نفسه، وقد اعترف هو بذلك فى وثيقة رسمية حين أصدر المرسوم التاريخى الذى أعاد بمقتضاه تنظيم الادارة فى أنحاء المملكة ، وعده المؤرخون أهم الأعمال التى قام بها ، ففى مقدمة ذلك المرسوم صرح الامبراطور بأنه لم يصدره الا بعد أن استشار الامبراطورة

المبجلة والزوجة الوفية التى مَنَّ بها الله عليه ، فى كل ما تضمنه المرسوم من قرارات .

كان جستنيان يحب زوجته حبا لا حد له ، وظل هذا الحب يضطرم فى قلبه حتى بعد موتها ، وحتى ساعته الأخيرة ، فانه لم ينس أبداً تلك الحسناء الساحرة التى عشقها وهى فى أوج جمالها وروعتها وطغت عليه بذكائها الخارق وفطنتها وبعد نظرها، وإرادتها النافذة ، لذلك لم يرفض لها طوال حياتها أى طلب ، ولم يحدث فى مرة واحدة أن علت كلمته على كلمتها ، أو نفذ رأيا لم يكن متفقا مع رأيها ، وقد أغدق عليها جميع أنواع المجد والثروة والجاه وشاطرها عرشه وسلطانه فجعلها تحكم معه ، بل جعلها تحكم وحدها فى كثير من الأحيان .

وقد ظلت تيودورا علي العرش إحدى وعشرين سنة ، وضعت يدها خلالها علي كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة وفرضت كلمتها فكانت تفعل ماتريد ، بصرف النظر عما يريده الامبراطور أو أعوان الامبراطور .

نظمت شئون الادارة كما تريد ، ووضعت أعوانها ومحاسبيها وصنائعها فى الوظائف التى اختارتهم لها ، واختارتها لهم ، وتدخلت فى شئون السياسة فنظمت العلاقات بين بيزنطة والدول الأخرى كما أرادت ، وفرضت على مندوبى الدول مارسمته بنفسها

من خطط وتدابير ، كما تدخلت فى شئون الكنيسة ، فكانت وراء كل عمل أقدم عليه الرؤساء الروحيون ، وكل قرار أصدرته المجامع الكهنوتية ! .

ولابد من الاعتراف أيضا بأنها عرفت فى أكثر الظروف والاحوال كيف توجه سياسة الدولة طبقا لمقتضيات الصالح العام ولو أنها عاشت وظلت تمارس السلطة مع زوجها حتى وفاته ، لاستطاعت أن تنفذ المشروعات الرائعة التى كانت تفكر فيها ولأصبحت الدولة البيزنطية أقوى وأصلح مما كانت ، ولتغير وجه التاريخ ومجراه ! .

ولكن تيودورا ماتت قبل الأوان ! .

ولاتزال آثار تيودورا باقية حتى الآن فهناك على جدران الكنائس التي بناها جستنيان وفوق أبواب المعاقل والحصون والقلاع التى شيدها فى أنحاء المملكة ، حفر اسم تيودورا بجانب اسمه !

وفى أماكن كثيرة يرجع عهدها الى عهد تيودورا حفرت أيات الشكر والثناء والتقدير ، موجهة كلها إلى الامبراطورة التى اشتهرت بتقواها وورعها بعد أن اشتهرت بفسقها وفجورها !! .

ومما لم يحدث مثله أيضا لغير تيودورا ، أن موظفى الدولة

كانوا يقسمون يمين الولاء لها كما يقسمونه لزوجها الامبراطور فكانوا يقولون : نقسم بأن نكون أوفياء صادقين فى خدمة المليكين جستنيان وتيودورا ! .

مؤامرات حقيرة ومذابح رهيبة !

وذات يوم علمت تيودورا أن حاكم إحدى البلاد المجاورة للامبراطورية ويدعى فينااليان يدبر للاعتداء على امبراطوريتها فأوغرت الى جستنيان أن يوجه له الدعوة لزيارته مع حاشيته فى القسطنطينية بحجة التفاوض بشأن معاهدة تصالح بينهما ، فأرسل جستنيان الدعوة ولم يرتاب الحاكم فى الأمر فقبلها ووصل على رأس حاشيته الي القسطنطينية فاستقبلهم تيودورا وجستنيان بأشد ترحاب وبالغا فى اكرام الحاكم وحاشيته فأقاما لهم حفلات الرقص الشرقى وحفلات السباق ومصارعة الوحوش ثم احتفلا تكريما لهم بالقاء مائة سجين حى فى ساحة الملعب الكبير كطعام لخمسين أسدا جائعا ! .

وفى الليلة الأخيرة للزيارة أقاما لهم حفلة وداع ساهرة لم تشهد الامبراطورية مثيلا لها من قبل فقد رصت فيها ثلاثمائة مائدة مرصعة بالعاج والاحجار الكريمة وسط قاعة من أشهر القاعات التى تسمى «قاعة المضاجع التسعة عشر» ذا السقف الذهبى والستائر المزركشة بخيوط الذهب ، وبعد أن تلذذ الضيوف

باشهى ألوان الطعام وأفخر أنواع الشراب وبعد أن استمتعوا بأروع الرقصات لأجمل الفاتنات .. قاما صاحبا الجلالة الامبراطوية واستأذنا من الضيوف فى الانصراف بحجة أن يتركوا لهم الحرية فى المتعة واللهو حتى الصباح .. ولكن شيئا ما حدث .. فحين تسللت أول خيوط الفجر من النوافذ كان يسود القاعة سكون وصمت رهيبين مع أبشع منظر شهدته هذه القاعة الجميلة .. كان النبيذ والخمر المسكوب يختلط بدماء الضيوف القتلى على الأرض .. فقد أصدرت تيودورا أوامرها لكل راقصة بأن تذبح ضيفها بعد أن تسلبه قواه بالمضاجعة وتفقده وعيه بالخمر !! .

وظلت تيودورا هكذا امرأة قاسية متحجرة القلب يحتقرها الشعب ويمقتها نتيجة تصرفاتها الطائشة وقسوتها ومضاعفتها الضرائب ، ففى عهدها انتشرت البطالة وزاد الغلاء وتفشى المرض وزاد الانحلال والفجور وباتت تيودورا امرأة شرسة شريرة الى أقصى الحدود حتى أن الشعب بدأ فى التذمر فتجمعت أفواج الجماهير ذات صباح أمام القصر الملكى هاتفة بسقوط الأمبراطورة وارتفعت صيحاتهم الغاضبة وهم يقذفون بالوحل تمثالها الرابض فى حديقة القصر مرددين « تسقط العاهرة .. تسقط السفاحة» فكان غضب الامبراطور جستنيان

شديدا لا حدود له فأصدر على الفور أوامر باعدام سبعة من زعماء هذه المظاهرة ، لكن الشعب أحس أن تيودورا وراء هذا الأمر فهاج أكثر من ذى قبل وتوجهت الجماهير الى القصر وهم مسلحون بالفئوس والحجارة والعصى وهتفوا مرة أخرى «تسقط العاهرة تسقط السفاحة» ثم أطاحوا بمخازن القصر وسكبوا براميل النبيذ وهم يصرخون «أين القاتلة» .

كانت تيدورا راقدة فى مخدعها تعانى من مرض السرطان الذى أصابها وكانت فى غيبوبة لم يوقظها منها سوى أصوات الجماهير الغاضبة ودقاتهم على باب الجناح الامبراطورى فأحست بأن نهايتها قد اقتربت ، ولكن هل امرأة مثل تيودورا تخضع وتستسلم ؟! .. لقد نهضت مستدعية وصيفتها التى ألبستها ثوبها الملكى وأزاحت لها ستار النافذة فاقتربت تيودورا بخطى ثابتة لتواجه الجماهير التى اشعلت النار فى كل مكان فبدت المدينة وكأنها جحيم أحمر .. فما أن ظهرت تيودورا من خلال النافذة حتى أصابت الدهشة أفراد الشعب ، وزعماء المظاهرة فوقفوا ذاهلين لجرأتها وتماسك أعصابها فانتشر بينهم الهمس فرفعت تيودورا يدها تسكت الجماهير ونظرت لهم بعين رحيمة وسألتهم :

«ماهى مطالبكم» ؟

صاحت الجماهير فى صوت واحد :

ـ الخبز لاشئ سوى الخبز

أومأت تيودورا برأسها قائلة «سوف تنالون الخبز .. وسوف تقام لكم أيضا حفلة من أروع الحفلات التى شهدتها البلاد» .

وانخدع الشعب الطيب الساذج واستجاب لوعدها الخبيث وتعالت الصيحات «تحيا الامبراطورة» .

وفي الموعد الذى حددته تيودورا لتلك الحفلة المجانية تهافتت الجماهير نحو الاستاد الكبير الذى يقام به الحفل حتى بلغ عدد من جاء حوالى مائة ألف متفرج ثم وصلت الامبراطورة والامبراطور واعتليا المقصورة الخاصة بهما فهتفت الجماهير «يحيا الامبراطور .. تحيا الامبراطورة» .

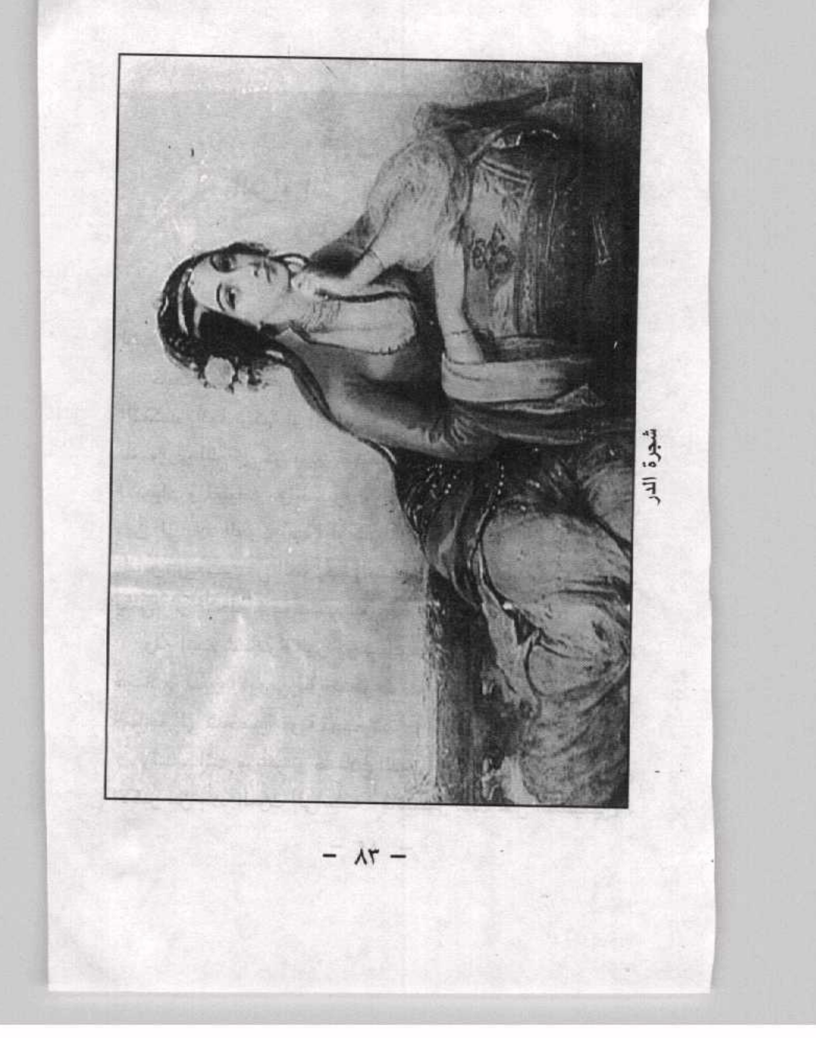
وبدأت الحفلة فبدأت الاستعراضات ثم المهرجانات والرقص وألعاب السباق وبدا أن الحفل سيطول ويمتد من الصباح حتى مابعد الظهيرة فأمرت تيودورا بتوزيع غذاء فاخر على جميع الحاضرين ، مزود بالخمر والمشهيات على نفقة تيودورا الخاصة .. وقبل أن ينتهى الحفل غادر ثنائى الامبراطورية المكان فهما حريصان دائما على الانصراف فى الوقت المناسب .

وحين انتهى البرنامج الأخير من الحفل ظهر قائد جيوش الامبراطورية فى ساحة الملعب تصحبه فرقة من الجنود المسلحين فحيتهم الجماهير بالهتافات المدوية ظنا منهم أنها أحد برامج

الاحتفال إلا أنها لم تكن سوى مؤامرة حقيرة دبرتها تيودورا فقد صاح قائد الحرس فى جنوده «استعدوا.. اضربوا» .

وتطايرت الى قلوب الجماهير سيول من السهام القاتلة وتعالت صيحات الفزع والرعب وتدافعت الجماهير نحو الابواب طالبين النجاة من هذه المذبحة الرهيبة لكنهم فوجئوا بفرق أخرى من الجنود تنتظرهم على الأبواب فلم يجدوا مخرجا أو منفذا للنجاة لقد حوصروا حصارا محكما لا مفر منه ، واستمرت المجزرة حتي الغروب فامتلأت أرض الملعب الكبير بالعديد من برك الدم الحمراء القانية .. فقد راح ضحية هذه المجزرة الآدمية ثلاثين ألف رجل ، وحين أخبر قائد الحرس تيودورا بنجاح المؤامرة ابتسمت ابتسامة خبيثة وهى تهز رأسها ! .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى اقتصت السماء من هذه المرأة التى لم يشهد التاريخ مثيلا لها فى قسوتها وجبروتها فقد ظل المرض ينخر جسدها ويفتت فيه وهى تحاول عبثا بكل وسائل العلاج أن تنجو بلا جدوى .. وتشوه هذه الجسد الجميل الذى كثيرا ما استغلته تيودورا اداة لشرها وآثامها ، وظلت هكذا امرأة مريضة مشوهة حتى لفظت انفاسها الأخيرة سنة ٥٤٨م ، تاركة وصية ساذجة تقول «اغسلوا جسدى بحمام من زيت الورد وعطروه بأفوح العطور» !! .



شجرة الدر

«شجرة الدر»
المرأة التى هزمت الصليبيين وهزمتها امرأة !!

شجرة الدر .. جارية اشتراها الملك الصالح نجم الدين فما لبثت أن برزت وغدت ملكه مرهوبة الجانب عظيمة الشأن ..

كانت مغمورة لم يعرف المؤرخون لها نسباً ، بل لم يستطيعوا التأكيد بأنها تركية أو أرمنية أو رومية ... فهى واحدة من ألوف الجوارى اللواتى كن يزين قصور السلاطين والخلفاء ، ومنهن الأديبات والمغنيات ، والسميرات والمحظيات، وكلهن اعجميات يؤتى بهن إلى بلاد العرب أسرا أو شراء ، فيكن أشبه بالمتاع يتهاداه الناس، ويعشن فى الظل حتى ينجبن الامراء ، فيظفرن حينئذ بشىء من الاحترام ، وتسمى الواحدة منهن «أم الولد» ...

ولمع اسم شجرة الدر ، ومثلت دورها الخطير ، بعد وفاة صلاح الدين الايوبى ، واضطراب ملكه ، وتنازع أهله، وظهور الحاجة إلى شخصية قوية تجمع شتات المسلمين..!! .

وقد كانت من مآثر صلاح الدين أنه استطاع ضم القسم الأكبر من بلاد العرب إلى ملكه ، فانتصر بذلك على الصليبيين ،

واستعاد بيت المقدس ، وانكمش الفرنجة فى رقعة ضيقة من الأرض كان حريا ، لو أفسح له فى مجال الحياة ، ان ينتزعها منهم .

وما كاد الفارس البطل أن يرقد رقاده الأخير ، حتى تمزقت مملكته الكبيرة، وتقاسمها أولاده الثلاثة، فاستولى العزيز على مصر ، وملك الافضل بلاد الشام ، وتولى المظفر ملك حلب ، ونشبت الحروب الاهلية بين هذه الممالك الثلاث!

ثم توفى العزيز فخلفه على عرش مصر ولده المنصور وهو طفل صغير ، فطمع الأفضل فى مصر واستولى عليها، ثم اشتعلت الحرب بينه وبين عمه العادل فانتصر هذا واستولى على مصر والشام وحكمهما عشرين سنة ، ثم خلفه ابنه الكامل فى حكمهما عشرين سنة أخرى..! .

ولما توفى الكامل سنة ٦٣٥ هـ استولى على عرش مصر ولده الاصغر الملك العادل أبو بكر نائبه فيها ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين نائبا عنه فى حلب وبلاد الشرق، فاغضبه استئثار أخيه ورأى أنه أحق بالملك منه ، فسار لمقابلته وأخذ يؤلب الامراء عليه ، فاعترضه صاحب الكرك وأسره وسجنه شهراً فى القلعة مع بعض خدمه وجاريته «شجرة الدر» أم ولده خليل ..

ولبث نجم الدين فى اسر صاحب الكرك سبعة أشهر ، ثم أشهد ، ثم اطلق سراحه ، وتحالف معه ان هو انتصر على أخيه أن يستقل بمصر ويقطعه بلاد الشام.

والحق أن نجم الدين ما لبث أن استولى على مصر بغير قتال، إذ نقم أمراء المملكة على أخيه ، ورأوا فيه فتى طائشا لا يصلح لإدارة البلاد ، فاعتقلوه وارسلوا إلى أخيه الصالح نجم الدين فاسرع فى العودة إلى مصر ، وجلس على العرش ، وزج أخاه فى السجن ثم أمر به فقتل فى سجنه .

هكذا يبدأ التاريخ للقصة العجيبة التى تؤلفها سيرة «شجرة الدر»..

من هذه الرواية نعلم أنها كانت لاتزال يوم دخلت مصر جارية للملك الصالح نجم الدين برغم أنها ولدت له ابنه خليل..

ويضيف التاريخ أن الملك الصالح لم يكد يتولى العرش حتى تألق نجم جاريته، فتبوأت فى البلاط اسمى مكانة وغدت مصدر النهى والأمر.

ونستطيع أن نتبين من خلال هذه الرواية شيئا من ملامح شجرة الدر ، فنرى انها كانت إلى جانب ما تتمتع به من فتنة وعذوبة وجمال خلاب ، ذات شخصية قوية وثقافية واسعة وذكاء حاد ، وقد أثرت شخصيتها فى سيدها فقدر مواهبها

وسداد رأيها فأشركها فى أمور دولته منذ حظى بها فى حلب ، واتخذها رفيقة له تشاطره نعم الحياة وبؤسها ، وتتقاسم معه أعباء الملك ..

وقد نشأت شجرة الدر نشأة عربية خالصة ، وحرص التاجر الذى سباها أو اشتراها على تخريجها فى الفنون والآداب وتهذيبها بأخلاق البلاط، حتى غدت واحدة من أولئك الجوارى المبرزات اللامعات اللواتى سيطرن على قصور الملوك والامراء فى أواخر العصر العباسى، وكن وقد اكتملن عقلا وخلقا وجمالا ، كتلك التى أقبلت على على بن الجهم فى مجلس أحد أصدقائه فهمس صديقه فى أذنه مداعبا : يا أبا الحسن .. هذه الجنة التى كنتم توعدون ..

وكان نجم الدين حين جلس على عرش مصر فى الرابعة والثلاثين ، وكانت شجرة الدر على ماتوحى به سيرتها فى حدود الخامسة والعشرين، وكان يحبها حبا عظيما وقد رأى من سطوع مواهبها وما اشتهرت به من عفة وفضيلة ، أنها خليقة بأن تكون زوجة له، فاعتقها وتزوجها ، فاكتسب نفوذها بذلك صفة شرعية ، وأنشأت تساهم بنصيب وافر فى شئون الدولة ..

وانقضت عشر سنوات من حكم الملك الصالح وهى تنعم معه

برخاء عميم وسعادة وارفة الظلال ، وتشاطره مجده وقوته ورفعة شأنه ، وتوطدت معه أركان ملكه الذى امتد إلى دمشق وعسقلان والكرك ..

بيد أن مصر مالبثت أن تعرضت فى عهده إلى أعظم حملة صليبية وجهت اليها ، وهى الحملة التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع المعروف بالقديس لويس.

وبلغت هذه الحملة المياه المصرية فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧هـ فى اسطول ضخم رسا تجاه دمياط ، وأرسل لويس التاسع إلى نجم الدين كتابا يبلغه أنه جاء بعسكر بعدد الحصى، ويحذره من المقاومة العقيمة، وينصحه بالخضوع والتسليم.

وكان الملك الصالح مريضا فتولته الحيرة والاضطراب، وجعل يقرأ الكتاب وعيناه مغرورقتان بالدمع..

إلا أن شجرة الدر وقفت إلى جانبه تبث فيه روح العزيمة والاباء ، وتحضه على المقاومة المستميتة ، فتذرع بالشجاعة ، وأجاب على كتاب لويس التاسع بكتاب أنشأه كاتبه قاضى القضاة الشاعر بهاء الدين زهير، فرد على التهديد بمثله وحذر ملك الفرنجة من عاقبة البغى والعدوان ..

ولكن سرعان ما نزل الغزاة إلى البر واحتلوا دمياط على اثر الرعب الذى دب فى حاميتها فتخلوا عنها وغادروها مع الأهالى

إلى المعسكر السلطانى . واستولى الفرنجة فيها على مقدار وافر من المؤونة والذخيرة! .

وقد غضب السلطان وأعدم عددا من مقدمى الجند لجبنهم وتخاذلهم ، ثم انكفأ بمعسكره إلى المنصورة فنزل فيها، وأمر بتحصينها ، وجعل منها قاعدة جديدة احتشدت فيها القوى المصرية وأخذت تنازل طلائع القوى الصليبية التى كانت تستعد للزحف إلى قلب البلاد ..

ومرت ستة أشهر والسلطان يعانى المرض فى المنصورة ، وهو يشرف على تحصين المدينة وسير القتال مع العدو، ثم اشتدت عليه وطأته فمات فى ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ وأواصى بالعرش لولده الملك المعظم تورانشاه نائبه فى البلاد الشرقية ، وكان يومئذ فى حصن كيفا بديار بكر فدعى للحضور عاجلا إلى مصر.

وكانت وفاة نجم الدين فى وسط تلك المعمعة الهائلة ، خنجراً ماضيا يسدد إلى قلب مصر .

فقد كان من المألوف فى تلك الأيام أن يثير موت الملك اطماع القادة والامراء، فيتنافسوا على السلطان ، ويقتلوا فى سبيل الوصول اليه والاستئثار به ..

وكان نشوب مثل هذا الخلاف فى ذلك الموقف العصيب خليقا

بأن يمزق وحدة الأمة والجيش ، ويطوح بالبلاد ، ويفتح أبوابها للغزاة المعتدين .

★★★

كيف تتصرف شجرة الدر ؟!

لقد أدركت حرج المأزق الذى أوقعها فيه القدر ، وأيقنت أن مصير الحرب والبلاد أصبح بين يديها ، وكان أقل تخاذل فيها يؤدى إلى انتشار الفوضى ، وتقهقر الجيوش الاسلامية ، ومن ثم انتصار الغزاة الصليبيين.

فهل تسمح بذلك زوجة نجم الدين !! كلا.

لقد حزمت أمرها معتصمة بكل ما فيها من القوة والصبر، وقررت أن تتابع القتال كأن شيئا لم يحدث ، أما نبأ وفاة الملك الصالح فكتمته عن الجميع ، لئلا يسود الذعر وتخرب الديار ، وبخاصة أن ولى العهد غياث الدين توران شاه بعيد فى حصن كيفا . والطامعون بالعرش كثيرون .

وفى ليلة خطيرة استدعت شجرة الدر فخر الدين الذى كانت تثق به ثقة تامة وأطلعته على السر الرهيب ، ثم قالت له :

– لا يجوز أن يعلم أحد بموت الملك قبل أن نسحق القوات الصليبية وننقذ بلادنا وعيالنا من شرها . فإذا علم الغزاة أن

العرش قد خلا من صاحبه طمعوا بنا ، وضاعفوا حملاتهم علينا . ولا تنس أن أمراء بنى أيوب طامعون بالملك، وهم ليسوا أهلا له . أما ولى العهد فهو لايزال فتى عديم الحزم والتدبير لا يستطيع الصمود فى وجه عدونا الزاحف بجيوشه الحاقدة الشريرة .

قال فخر الدين ، وقد تهيب الموقف ، وعزم على بذل دمه فى وجه حومة الوغى:

– دبرى الأمر كما ترين، ياصاحبة العصمة ، واعلمى انى سيف من سيوفك ، أنفذ أمرك حتى لو دفعتنى إلى الموت . فأجابته شجرة الدر :

– بارك الله فيك ، أيها الأمير، فما شككت يوما فى اخلاصك . وكل ما أريده منك أن يظل موت الملك مكتوماً حتى يزول الخطر، وأن ترسل إلى حصن كيفا من يأتينا بولى العهد على جناح السرعة .

وفى تلك الليلة بالذات استدعت أم خليل طبيب الملك وخادمه الخاص ، وأمرتهما بغسل الجثة وتحنيطها بعد أن اخذت منهما الايمان المغلظة بكتمان السر . ثم جعلتها فى نعش محكم . ونقلتها مع الأمير فخر الدين ، عبر النيل، إلى قصر الروضة. واستمرت مراسم القصر الملكى على حالتها الطبيعية كما كانت

فى السابق .. ترفع الاحكام إلى الملك ليبدى رأيه فيها، وتعود وعليها توقيعه بالموافقة أو الرفض!! .

كذلك ظلت الأوامر تصدر إلى القادة ، والرؤساء وأمراء الجيش، وعليها خاتم الملك وخطه . أما إذا طلب أحد رجال البلاط مقابلة الملك، فكان يقال له : ان جلالته متعب لا يستطيع مقابلة أحد .

أسر .. لويس !

بهذا التدبير الحكيم استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها ببراعة تثير الاعجاب، فانقذت العرش من تهافت الطامعين به. ولكنها أدركت أن الاستمرار فى كتمان وفاة الملك أمر غير ممكن ، وبخاصة أن تردد الأمير فخر الدين ، دون سواه على القصر، أثار تساؤل الناس عن الأسباب التى جعلت الملك يخص هذا الأمير وحده بعطفه .

غير أن جهود «أم خليل»، لم تذهب سدى، بل أدت إلى النتائج المرجوة : لقد هزم الصليبيون فى معارك حاسمة ، وارتفع كابوس الخطر عن وادى النيل ، كما وصل ولى العهد من حصن كيفا .

عندئذ تنفست شجرة الدر ملء صدرها ، وقد أحست بنجاح مساعيها ، وانتهاء قلقها . فأعلنت وفاة الملك الصالح، واصدرت

أوامرها إلى كبار رجال الدولة والجيش أن يقسموا يمين الولاء للملك الجديد: غياث الدين توران شاه . ثم امرت أن يدعى له على المنابر فى المساجد ، فاستتب له الأمر ، وسارت أعمال الدولة فى مجراها الطبيعى.

إلا أن هذه التدابير الحكيمة لم تجعل من الفتى الضعيف الرأى رجلا جديرا بالجلوس على العرش فى مثل ذلك الزمان الحافل بالأحداث المصيرية . لقد كانت كل مؤهلاته أنه ابن الملك ، وما أكثر ابناء الملوك المعتوهين! .

ولما علم الصليبيون بموت الملك الصالح شددوا هجومهم على مدينة المنصورة فى الدلتا. وكانت شجرة الدر تنتظر هذا الهجوم وقد استعدت له، وبلغت الحماسة حدا جعلها تشارك بنفسها الاهالى والجنود فى صد غارات الاعداء ، وترسم خطط القتال مع قادة الجيش، كما تشرف على تنفيذها!. ها هى ذى تراقب عن كثب سير المعارك ، وترسل النجدات إلى المقاتلين بلا توقف . لقد أحبت النيل وأرضه، كما أخلصت لدينها : فهى تصد عنه بكل ماتستطيع .

وفى معركة المنصورة استعمل المسلمون سلاحاً جديداً للمرة الأولى هو النار الاغريقية . فأخذت المجانيق تقذف العدو بكرات كبيرة من المواد الملتهبة عوضا عن الحجارة، فانتشر الحريق فى

صفوف الصليبيين ومعسكراتهم . وصدف أن هبت عليهم الرياح آنذاك ، فكانت ريح الهزيمة المنكرة . فانكفأوا خاسرين قد ملأ الرعب قلوبهم .

وفي هذه الاثناء ابلى الأمير فخر الدين بلاء حسنا وانتقم انتقاماً باهراً من الاعداء الذين كانوا قد تغلبوا عليه فى معركة دمياط . وانقض ركن الدين بيبرس البند قدارى برجال الحرس السلطانى على الغزاة فصدهم عن باب القصر فى المنصورة ومزقهم شر ممزق .

ثم أن المصريين احرزوا انتصارهم الحاسم فى اليوم التاسع من فبراير ١٢٥٠ ، فأسروا قائد الحملة الصليبية ملك فرنسا لويس التاسع ، وانزلوه فى دار القاضى فخر الدين لقمان ، وانتدبوا الخادم صبيح العظمى لحراسته .

أما الملك الجديد توران شاه ، فعوضا عن أن يبادر إلى مكافأة ابطال الجيش على مابذلوه من جهود لاحراز النصر العظيم . نقم عليهم ، وأعلن عزمه على قتلهم دون أى سبب الا أنهم كانوا رجال أبيه ....!!

كان يصف الشموع، ويأخذ رؤوسها بالسيف وهو يقول : «هكذا سأفعل بالمماليك البحرية»

ولم يكتف بهذا القدر ، بل تعمد اهانة كبار الامراء ، والحط من قدرهم ، فقرروا القضاء عليه.

وذات يوم ، جلس الملك بين أصحابه فى موكب فخم، ورجال الحرس أمامه وفى أيديهم عصى كسيت بالذهب . ولما وقع نظره على امراء الجيش رفع رأسه وضحك كأنه يقول لهم : «إنى سلطانكم رغم أنوفكم» فاضمروا له الشر.

ولما توقف الموكب، واحضر الطعام أمام الملك انقض المماليك على توران شاه بالسيوف، وضربه أحدهم فقطع أصابعه.

ولم يكن توران شاه يتوقع هذه المفاجأة ، فنهض مذعورا وفر هاربا ، ولجأ إلى برج خشبى واغلق وراءه الباب ، واحرم المماليك النار فى البرج ، فألقى الملك بنفسه فى النيل ، وراح يسبح والسهام تأخذه من كل ناحية وهو يصيح :

– خذوا ملككم، ودعونى أعود إلى حصن كيفا!

وكانت آخرة أمره أن غرق فى الماء فانتشل جثته الصيادون!

لقد مات توران شاه على هذه الصورة لأنه لم يحسن سياسته مع الذين كانوا حماة الوطن، وأصحاب القوة الفاعلة فى البلاد ، فاتجهت الانظار إلى شجرة الدر . وتذكر المماليك مواقفها البطولية فى محاربة الصليبيين ، فقرروا أن يجلسوها على العرش.

وجاء عز الدين أيبك ، كبير قادة الجيش يقول لها :

– ياصاحبة العصمة ، انت الآن ملكة المسلمين! .

وكانت تنتظر هذه النتيجة بعد مقتل توران شاه إلا أنها تظاهرت بالدهشة والاستغراب وأجابت:

– ملكة المسلمين؟ أنا ؟ ماذا تقول أيها الأمير ؟

فأجاب :

– أجل ، انت ملكة المسلمين ، وعصمة الدنيا والدين ! هذا ما أجمع عليه امراء الجيش ، لقد رأوا أن حرم مولانا الملك الصالح ، رحمه الله ، وأم ولده خليل ، وأعز الناس عليه ، هى السيدة العاقلة ، المدبرة ، والجديرة بالجلوس على العرش ، لأنها تغار على البلاد، وتحسن سياسة الدولة ، وتحمى الديار من الاعداء.

– حسنا لكنى أنزل هذا الأمر لك ، فعليك أن تدبر المملكة، وأن توزع المناصب على الرجال الأكفاء . ولست أطلب إليك إلا أن تخص بعنايتك الأمير ركن الدين بيبرس، فهو من خيرة الأمراء وأشدهم غيرة على ديار المسلمين .

وفى اليوم التالى احتفل المماليك البحرية بجلوس شجرة الدر على عرش مصر ، فاستقبلتهم من وراء الستار، وخاطبتهم قائلة:

«إنى شاكرة لكم مروءتكم وحسن ظنكم، ولا يسعنى إلا أن أوافق على ما اجتمعتم عليه، ولكنى لم اقبل هذا المنصب إلا

لاعتـمادى عليكم، وثقـتى بكم .. فـانتم سـيوف هـذه الدولة ، ولا أستطيع عملا إلا إذا أخذتم بيدى!!»

فهتفوا باسمها ثم غادروا القصر ، فودعهم عز الدين ايبك وشيعهم إلى الباب الخارجي.

★★★

أول ملكة فى الاسلام!!

أطل على القـاهرة يوم بهـيج، وكـان الناس فى هـرج ومـرج، يستعدون للاحتفال بالحدث العظيم .

ازدحموا فى الشوارع والسـاحات، بين راكب وراجل، رجالا ونساء ، فغصت بهم الساحة الواسعة المنبسطة أمام القلعة. وكان فيـهم البـاعـة يحملون الكعك، والحلويات، والفـواكه منادين على سلعـهم ، وقـد سـادت الفـوضى، وتدافع المزدحـمـون بالاكتـاف والصدور.

وفى بعض الاماكن المنفـردة ، فى أطراف السـاحـة ، عـقدت حلقات للبحث فى الحديث العجيب والأول من نوعه فى الاسلام، وهو : تنصيب امرأة ملكة على المسلمين .

قال شاب كان يحمل كتابا خرج به من الجامع الأزهر، وهو من مجندى المماليك البحرية:

– لم نسـتـغـرب جلوس «أم خليل» على العـرش ؟؟ ألم تتـول

السلطة رضيـة شئـون الملك فى دلهى طوال أربع سنوات ؟ ألم تحكم تركمان خاتون ، والدة السلطان محمد بن تكشى ، بلاد خوارزم وخراسان ؟ ألم تكن زبيدة سيدة بغداد فى عهد الرشيد ؟ وإذا رجعنا قليلاً إلى ما قبل الاسلام ، أفلا تملأ نفوسنا عظمة بلقيس وكليوباترا ، وزنوبيا فى أرض تدمر! .

وزايد آخر فقال:

– أليست شجرة الدر زوج الملك الصالح ، وأم ولده، وقاهرة الصليبيين، وعقل الدولة المدبر الواعى؟! لقد اعترف الأبطال بسداد رأيها وشجاعتها، وأعربوا عن إعجابهم بمواهبها الفذة .. فلم لا تجلس على عرش مصر ؟ .

فرد ثالث وهو يكاد ينفجر غيظا:

– هذه والله بدعة ! فهل خلت بلاد مصر من الرجال لتحكمها امرأة ؟ .

وقبل أن يكمل الرجل كلامه سمع صوت الأبواق وقرع الطبول. ثم أطل موكب المماليك البحرية متوجها صوب القلعة، وفى مقدمته كبار الفرسان فى ملابسهم المذهبة ، اللامعة تحت الشمس. وكان خلفهم هودج «محفة» شجرة الدر تحمله البغال، وقد ألقيت عليه ستائر الحرير المزركش ، ويواكبه فرسان من المماليك فى ثياب زاهية الألوان . وجاء خلفهم حملة الرماح القصيرة فكوكبة من

الرماح ، فجماهير الشعب المائجة تتصاعد منها الهتافات والزغاريد!! .

ووصل الموكب إلى باب القلعة المواجه للقاهرة ، فاستقبلته بعض فصائل الجند وجعلت تمنع الناس من الدخول ، وقد أغلق باب القلعة الآخر منعا للازدحام فى داخلها .

ودخل الموكب .. فظلت جماهير الشعب فى الخارج فيما كانت الطبول تقرع ، وأصوات الابواق تتجاوب بلا انقطاع وما انفك الموكب سائرا حتى بلغ الباب الداخلى ، ففتح أمامه ، ولم يتجاوز عتبته سوى الخاصة من الامراء وارباب المناصب الرفيعة .

وفى رواق فسيح تحف به الأبنية المخصصة للسكن ترجل الفرسان ، وانزلت شجرة الدر من محفتها ، ومشت على السجاد بين الاعلام والرياضين والأزهار . فسار عز الدين ايبك وكبار الامراء بين يديها حتى بلغت قبة من الحرير المطرز كان يحملها نفر من القادة ، فدخلتها مع وصيفاتها وأرخيت عليهن الستائر.

وتحركت القبة حتى بلغت الايوان، وفيه سرير السلطنة الذهبى، فجعلت القبة فوقه .. وجلست شجرة الدر عليه من غير أن يراها أحد من الحاضرين .

ودخل قاضى القضاة فجلس إلى يمين القبة ، وجلس وراءه أمين بيت المال مناظر الحسبة، وإلى يساره أمين السر وبعض أرباب المناصب ، والشيوخ والمستشارون.

وأمام القبة فى وسط الايوان، جلس الأمير عز الدين ايبك ، قائد الجند العام، وكبار امراء المماليك. وكان خلف السرير صفان من رجال الحرس وراءهم الحجاب والخدم .

وجىء بجماعة من الاسرى الصليبيين للتذكير بالانتصارات الحاسمة التى ساهمت فيها الملكة الجديدة مساهمة فعالة لا يجهلها أحد.

ولما استقر الحاضرون فى أماكنهم، نهض الأمير عز الدين ايبك وخاطبهم قائلاً :

– أيها الامراء والقادة ، لقد علمتم جميعاً بمصير الملك توران شاه .. أنه اساء التصرف ، وحاول التنكيل بجند هذا البلد ، وهم درع الدولة وسيفها. وليس فيكم من لم يشهد بلاءهم فى حرب الافرنج المعتدين زمن الملك الصالح، رحمه الله.

ولما خلا سرير الدولة ، لم نجد من هو أولى به من مولاتنا صاحبة العصمة شجرة الدر أم خليل وزوج الملك الصالح .. وقد أجمع رأى الأمراء والقضاة على اختيارها ملكة ، تتولى شئون المملكة بمساعدة المخلصين الأوفياء من أصحاب الكفاءة . أما

حملة السيوف فتعهدوا بطاعتها لاحقاق الحق ، وحماية الشرائع والدين . ونحن نحتفل بتنصيب مولاتنا صاحبة العصمة أم خليل ملكة ، وسندعو لها على المنابر بعد الدعاء لمولانا أمير المؤمنين المستعصم بالله ، الخليفة فى بغداد . وسننقش اسمها على الدنانير والدراهم.

فماذا ترون أيها الكرام والأفاضل!

وتقدم قاضى القضاة فدعا للملكة قائلا: « واحفظ اللهم الجبهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل صاحبة السلطان الملك الصالح»..

واستطرد عز الدين أيبك قائلاً :

لقد عهدت صاحبة العصمة إلى تدبير المملكة باسمها ، وولت الأمير ركن الدين بيبرس شئون القصر والقلعة ، وامرتنى أن اثبت أصحاب المناصب الموالين لنا ، من أصحاب الاقلام ، وأصحاب السيوف .

ثم أشار إلى صاحب الستار فازاحه ، وبدت شجرة الدر على سرير الملك تحت القبة ، وقد أرخت النقاب ، وعلى رأسها العصائب السلطانية الصفراء تحمل ألقاب الملكة مطرزة بالذهب .

فهتف الناس داعين لها ثم ارخى الستار من جديد .

واكمل عز الدين خطبته قائلاً :

«سنحتفل قريباً بقراءة المرسوم الذى يرد علينا من أمير المؤمنين فى بغداد تأييدا لسلطنة مولاتنا حفظها الله».

وقبل أن يتفرق الحاضرون تقدم بعض رجال الحرس يحملون الأطباق ، عليها صرر النقود، فوزعت على الجميع، وكانت كل صرة تحمل اسم صاحبها مكتوبا عليها .

وبعد توزيع العطايا أعلن الأمير عز الدين ان الملكة أمرت بنقل السلطنة من جزيرة الروضة إلى القلعة التى تمت فيها مراسم التنصيب.

ولما خلت القلعة من المحتفلين انتقلت شجرة الدر إلى قصر السلطنة ، وأمرت الخدم بالانصراف ، وخلت بنفسها تستعرض ما مر بها فى ذلك اليوم التاريخى.

تذكرت صباها وشبابها ، فتراءت لها صور ومشاهد من نضالها الطويل . فزادها ذلك شعوراً بمسئوليتها ، وتصميما على حماية البلاد ، وتعزيز الجيش ، ورفع مستوى الشعب .

وألقت نظرة على المستقبل ، فرأت أنه لا يخلو من المتاعب ، وأن الخطر الصليبى مايزال يهدد البلاد ، ولكنها كانت كبيرة الثقة بجيشها الباسل . فما أن تبادرت هذه الفكرة إلى ذهنها حتى غمرت نفسها موجة من الطمأنينة ، فأشرق وجهها وتنفست ملء صدرها.

وتوالت الأيام هادئة رتيبة ، فأبدت الملكة من المقدرة والجدارة فى تصريف الدولة ما أطلق الألسنة بالثناء عليها .

ولقد لمس الجميع ما تتحلى به من رحابة الصدر، وحسن التدبير، فاعجب بها رجال البلاط ، واطاعوا راغبين هانئين ، لكثرة ما خلعت على الأمراء، وتصدقت على الفقراء ونشرت راية الأمن والسلام.

ولم يفتها أن كونها امرأة هى الحجة الوحيدة التى يتخذها أعداؤها لينكروا عليها حقها فى الجلوس على العرش . فحرصت على أن تدعى بأعز ألقابها عليها وهو : «أم خليل» ترسيخا لأمومتها فى أذهان الناس.

ولعلها اختارت لقب «المستعصمية» استدراراً لعطف الخليفة «المستعصم» عليها ، منذ كانت تشعر فى قرارة نفسها أنه من الصعب يوافق على تنصيبها ملكة.

وقد صح ظنها ، وتحقق ما كانت تخشاه . فلم يدم ملكها سوى ثمانين يوماً ، ثم وصل رسول الخليفة ، فاستقبله الامراء فى القلعة ، وكان ركن الدين بيبرس غائباً فى دمياط .

كانت شجرة الدر جالسة على سرير الملك ، وعليها الزى الذى لبسته يوم التنصيب ، ومن حولها وصيفاتها ، ووراء الجميع صفان من رجال الحرس . ولم يخف على الذين راقبوا ملامحها

وحركاتها أنها كانت مضطربة فى ذلك اليوم ، إلا أنها تجلدت ، وأظهرت رباطة الجأش .

وفى هدوء مهيب سمع صوت عز الدين ايبك يقول :

– أيها الامراء ، هذا رسول مولانا الخليفة ، أمير المؤمنين المستعصم بالله ، حفظه الله ، ومعه كتاب من الخليفة يتلوه علينا ، فاسمعوا له، وأطيعوا ما فيه.

وتقدم الرسول فوقف على منصة منخفضة وفض الكتاب ثم قرأ مامعناه :

«من أبى أحمد عبدالله المستعصم بالله أمير المؤمنين إلى امراء الجند والوزراء فى مصر ، السلام عليكم ، وبعد ، فقد بلغنا انكم وليتم أمركم شجرة الدر صاحبة الملك الصالح، رحمه الله ، وجعلتموها سلطانة عليكم ، فإذا لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطنة فاخبرونا ، ونحن نرسل اليكم من يصلح لها .. والسلام.» !!

وقوبلت هذه الرسالة بضجيج كأنه هدير البحر.

أما شجرة الدر فأمرت بازاحة الستار الذى كان يحجبها عن الناس ، وقالت بصوت هادىء موزون ، فى نبراته كل معانى العزة والإباء:

«يامعشر الأمراء ، سمعتم ما أمر به أمير المؤمنين، وطاعته

فرض على كل مسلم . ولقد صدق، حفظه الله، فالنساء لا يصلحن للسلطنة ، وأنا لم أقبل الجلوس على العرش إلا عـمـلا برأيكم، ورغبة منى فى استقرار الأحوال بعد اضطرابها . أما الآن ، وقد استقرت الأمور ، وسمعنا رأى مولانا الخليفة ، فانى اخلع نفسى، وأطلب اليكم أن تختاروا من ترونه جديرا بهذا المنصب ، وأنا أول الخاضعين له!».

وكان هذا الموقف رائعاً ، رفع مرتبة شجرة الدر إلى الذروة فى نفوس محبيها والمقدرين لمواهبها.

ومـا كـادت تفـرغ من كـلامـهـا حـتى ارتفع صـوت من وراء الحجاب يقول :

– لا نقبل سلطانا علينا ان لم يكن من آل أيوب .

واتجهت الأنظار إلى كـبـير القـادة عـز الدين أيبك ، فنهض وقال:

– لا أعرف بين الايوبيين من هو أجدر بالملك من مولانا موسى ابن صـلاح الدين مسعود، ولكنه صـغير السن فـاجـابه رسـول الخليفة على الفور :

– لن يؤثر عليه صغر سنه . فأنت قائد جنده ، ومدبر أموره ، فما رأيكم أيها الامراء؟

فصاح الجميع :

- هذا هو الصواب .

وجيء بالأمير الايوبي الصغير ، فالبس شارات السلطنة في نفس ذلك اليوم .

وكانت شجرة الدر على سريرها ترى وتسمع .. ولما تمت مراسم تنصيب الملك الجديد اسدل على «أم خليل» الستار، فتنفست ملء صدرها وقالت :

- حسبي اني أول امرأة تولت الملك في الاسلام...!!

★★★

أيام حافلة بالأحداث!

لم تكن الثمانون يوماً التي أمضتها شجرة الدر على عرش مصر أيام طمأنينة وارتياح، بل كانت حافلة بالمتاعب والقلق . ذلك ان توليها شئون الملك لم يصطدم بمعارضة الخليفة العباسي وحده، بل أثار عليها الأمراء في دمشق وبغداد . لقد اتهمها بعضهم جهارا بالتحريض على اغتيال توران شاه ، فوضعت كل اعتمادها على عز الدين ايبك ، وجعلته قائداً عاما لجيشها ، ثم قررت أن تقترن به، ظنا منها أنها تستطيع أن تظل قابضة على زمام الحكم من ورائه . بالنظر إلى سيطرتها عليه معنويا ، وإلى ضعف شخصيته بالنسبة إلى ما كانت هي عليه من قوة الارادة والحزم.

ولكنها قبل أن ترتبط به بعقد الزواج استدعته وقالت له :

– انت ياعز الدين ، سيف هذه الدولة ، وصاحب الفضل الأول على هذا العرش ، فليتنى استطيع أن أقدم لك مكافأة على مستوى خدماتك .

فأجابها بكل أدب :

– تعلمين يامولاتى ان حياتى مرهونة باشارة منك . وجل مناى أن أفديك بدمى.

وأنست منه الاخلاص والضعف معا ، فقالت :

– انى ملكة المسلمين أيها الأمير ، ولكنى امرأة . وواجب الحصانة يقضى بأن تكون المرأة فى عصمة رجل، حتى لو كانت ملكة.

وكان عز الدين يتمنى ويحدث نفسه من حين بأن يعرض نفسه على شجرة الدر ، لكنه كان ينتظر الفرصة لمفاتحتها بهذا الأمر . فما كاد يسمعها تتفوه بتلك الكلمات حتى رقص قلبه سرورا وقال:

– لمولاتى الملكة أن تأمر ، وعلى ان أطيع.

– ولكن حرمة العرش تفرض عليك بعض التضحية .

واطرقت مفكرة ، فلم يتجرأ على سؤالها عن نوع تلك التضحية . وبعد برهة من الصمت الثقيل سمعها تقول :

– ان الملكة لا ترضى بأن تكون لها شريكة فى الزواج !

فنهض وقال بصوت متهدج :

– ان زوجتى الأولى طالق !

– وابنك المنصور ؟ الا يطمح إلى العرش متى رأى أباه زوجا للملكة ؟

– انى اتخلى عنه !

– لا تتخل عنه ، بل كفى أن تعلن أن العرش لن ينتقل اليه ، فأم خليل عازمة على أن تنجب وليا للعهد فاكب على يدها يقبلها ثم قال:

– أما قلت لك يامولاتى ، عليك أن تأمرينى وعلىّ أن أطيع ؟

وما هى إلا أيام حتى عقد قران الملكة على عز الدين ايبك، وانصرفت بكل قواها إلى تصفية الحملة الصليبية السابعة . ففرضت على الغزاة المهزومين شروطا قاسية اضطروا إلى الاذعان لها صاغرين . وطلبت فدية للملك لويس الاسير قدرها أربعمائة ألف دينار ، فبادرت زوجته الملكة مرجريت إلى دفعها . فعمرت بها خزينة مصر، وفرغت خزينة الصليبيين الذين أيقنوا أنهم فقدوا آخر أمل لهم بالنصر.

وفى شهر ابريل عام ١٢٥٠ أبحر آخر فوج منهم على ماتبقى لهم من السفن ، وزال خطرهم كليا عن البلاد . وكان لشجرة الدر

اليد الطولى فى إحراز هذا النصر العظيم .

ولما تنازلت ، عملا بأمر الخليفة العباسى ، أصبح عز الدين ايبك سيد الموقف ، لكون الملك الجديد موسى بن صلاح الدين بن مسعود صبيا غرا منصرفاً إلى اللعب لا يدرك من شئون الملك شيئا.

لم تشك شجرة الدر فى ولاء عز الدين ، فأولته ثقتها كاملة . مع أنه اتخذ اسم «الملك المعز» وراح يسعى جهارا للاستقلال بالحكم ، مما أثار عليه نقمة الأمراء الأيوبيين .

وفى تلك الاثناء استولى الناصر، صلاح الدين أمير حلب ، على دمشق ، وأخذ يعد العدة للزحف على مصر واعادة الحكم الايوبى إليها.

وأحس أيبك بالخطر ، فراح يحشد قواته لمواجهة الطوارىء ، وقدمت له شجرة الدر مساعدات جليلة ، فكتبت إلى المماليك الموالين لها ، ووزعت العطايا على الجند ، وأبدت من الحماسة ما شحذ همم الرجال وجعلهم يستعدون للاستبسال فى الميادين .

ولما وصلت قوات أمير حلب إلى جوار القاهرة تصدى لها أيبك على رأس جيش كبير ، فأنزل بها هزيمة نكراء ، وطارد فلولها حتى ابتعد آخر رجل منها عن الديار المصرية .

ويبدو أن ايبك سكر بخمرة ذلك النصر، فتناسى خدمات شجرة الدر ، وازداد طموحا إلى الاستقلال بالملك، فأخذ يستبد بالمماليك ، رفقائه فى السلاح بالأمس ، خوفا من أن ينازعوه سيطرته على الملك .

وكان أشدهم خطرا عليه الأمير اقطاى الذى أعلن ، فى أكثر من مناسبة ، أنه أجدر منه بالعرش ، فحقد عليه ايبك ، وبات يتحين الفرص للبطش به.

وظلت شجرة الدر أمينة على عهدها لايبك ، تدافع عنه بكل ما أوتيت من قوة الاقناع ، وتتفانى فى نصرته ، وتبذل كل جهد لتدفع عنه الاخطار . وجعلت تحث المماليك على الاخلاص له والانضواء تحت لوائه .

وبقى هذا شأنها حتى تبين لها أن ايبك لايحفظ لها جميلا ، ولا يرعى لها شعوراً، بل ينوى طعنها فى الصميم ، باقصائها عن السلطة فحسب ،بل بجلب زوجة له أخرى .

لقد بلغها أنه أرسل إلى بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل يخطب منه ابنته . وما كادت تفاتحه بهذا الأمر حتى زجرها صائحاً :

– إلزمى حدك يا امرأة ! فأنا الملك ، افعل ما يطيب لى، ولا اقبل اعتراض أحد .!!

وحاولت أن تسترضيه . فذكرته بماضيهما المشترك ، وبما بذلت فى سبيله من جهود ، فاستشاط غيظا وصاح :

– ان يكن لأحدنا من فضل على الآخر ، فانه لى عليك .. فأنا اجلستك على العرش ، وأنا صنت دولتك بحد السيف ، وما عليك الآن إلا ان تذعنى لمشيئتى ، والا ..

فاتسعت عيناها ، واختلجت شفتاها ، ثم قالت بصوت مبحوح:

– وإلا ماذا؟

– لن اتردد فى إزالة كل عقبة تقف عثرة على طريقى .

فأطرقت برهة ، ثم أجابت :

– انى بين يديك ، فمر بما تشاء.!

– لا أريد هذه المخاصمات التى تزعجنى وترهق أعصابى ، ولا سبيل إلى تلافيها ما دمنا نعيش تحت سقف واحد.

– أتريد منى الابتعاد عنك ؟ فالى أين تريدنى اذهب ؟

– انتقلى إلى دار الوزارة فى القاهرة.

– أهذا هجر؟

فابتسم متهكما واجاب :

– بل هذا اكرام .. لا تنس انى تجاوزت الستين وان من حق من يبلغ هذا السن أن يطلب قسطا من الراحة!!

فادركت انه ينوى اخلاء قصر القلعة ليستقبل فيه عروسه الجديدة ، ولكنها تظاهرت بالتجاهل والموافقة فقالت :

– كما تريد ، فلن أنسى فضلك . وامنيتى الكبرى أن أراك هانئا سعيدا.

وكان صوتها عميقا فيه نبرات الصدق والاخلاص ، فتأثر أيبك حتى كاد يلتمس منها المعذرة ، ثم قال :

– إفعلى مايطيب لك ، واقيمى حيث تشائين ، فأنت السيدة الكبيرة ، لا تعلو على كلمتك كلمة ، مادمت لا تعارضين مشيئتى فى شئونى الخاصة .

– انى مستعدة لاطاعة امرك.

ولمعت فى عينيها الدموع ، فخفضت رأسها ، ومضت إلى جناحها فى القصر بخطى بطيئة متزنة ، لا يفوتها شىء من هيبة الملك وجلال السلطان.

وكاد أيبك يندم على ما بدر منه ، الا أنه انصرف إلى التفكير بعروسه الجديدة . فرأى أن صراحته مع شجرة الدر كانت ضرورية لتوضيح موقفه ، وللحصول على ما يريده من حرية التصرف لينعم بزواجه الجديد من غير أن يساوره قلق . وراح يتأهب لما ينتظره من أيام مقبلة حافلة بالبهجة والسرور !!

ناكر الجميل!

لم تظهر شجرة الدر ذلك الخضوع المطلق لأبيك إلا كسبا للوقت . أما فى قرارة نفسها فقد أضمرت له الشر وصممت على البطش به . لقد غدر بها بعد أن رفعته ..

وكانت كبيرة الاعجاب بركن الدين بيبرس ، بالنظر إلى بلائه الحسن فى مقاتلة الصليبيين ، وإلى ما يتحلى به من روح الفروسية والاقدام . لذلك استدعته فى غياب ابيك لتبوح له بما فى صدرها.

ولما مثل بين يديها فاجأته قائلة :

– لقد طفح الكيل ، صحيح ان الاطماع تغير الرجال ، ولكن عز الدين بات لا يطاق .

واستولى عليها الغضب الذى حبسته فى صدرها طويلا ، وانفجر الآن .. فتهدج صوتها ، وارتجفت يداها . ولما رأت بيبرس مطرقا لا يقول كلمة واحدة ، استطردت قائلة :

– ما بالك لا تجيب ، ياركن الدين ؟ ألا ترى ان ايبك يضحى بأصدقائه دون سبب ؟ .

قال ، وقد شاقه أن يستجلى كل ما فى نفسها :

– لا أحسبه طامعاً ، ياصاحبة العصمة . وبم يطمع وقد جعلته صاحب الأمر حتى يرتفع فوق صوته صوت ؟ .

– وهذا مـايؤلمنى ، ياركن الدين ، فكلمـا زدته قـوة ونفـوذا ، زادنى نفورا وغطرسـة .. فنحن نحـافظ على دوره ، وهو يسـعى للقضاء علينا.

وتزحزحت فى مجلسها كأنها تتحفز للوثوب، فقال :

– ياصاحبة العصمة ، لا أظن عز الدين طامعا بشىء ، ولكنه يعمل بارشاد الخليفة فى بغداد ..

وكان يراقبها من طرف خفى ، فرأى ان ذكر اسم الخليفة العباس أثار حقدها ، وكاد يخرجها عن حدها ، إلا أنها تجلدت ، ثم قالت متصنعة الهدوء :

– أمـا علمت بأن أبيك خطب بنت بدر الدين لؤلؤ أمـير الموصل؟ .

وهنا أدرك بيبرس ان شجرة الدر امرأة أصيبت فى انوثتها ، وزوجة طعنت كرامتها ، فقال:

– ليخطب من يشاء ، فهذا لن يحط من مقامك ، ياصاحبة العصمة .. فأنت ركن هذه الدولة ، وعقلها الموجه ، وقلبها النابض بالحياة .

قالت ، وقد غلبها الهم ، واستولت عليها الكآبة :

– خدعنى ، أيها الأمير ، وهو يحاول تجريدى من كل شىء .. يحاول أن يطرحنى بين الغلمان والخدم، متناسيا فضلى عليه . إنه

والله لجاحد ناكر الجميل ! ألا تعلم كيف أبعد السلطان الشرعى ، الملك الأشرف ، عن عيون الناس ، ثم ألقاه فى سجن مظلم ، وحكم عليه بالموت البطىء ؟! أما أخبروك بحملاته المنكرة على الأمير أقطاى وهو رفيقه فى السلاح ؟! وهل تضمن أنه لا يدبر مكيدة لك انت !! انه رجل لا يتورع عن خيانة أصحابه والغدر بهم.

وأحس بيبرس أنها تحرضه على أيبك فقال :

– لم يكن الملك الاشرف سلطانا يوما واحدا فى حياته لا يا صاحبة العصمة ، فهو صورة جوفاء لا قيمة لها ولا معنى ، ولعل عز الدين حجبه عن الانظار ليحفظ للعرش كرامته وحرمته .

فتضايقت من هذا التفسير، وأجابت :

– مهما يكن الملك الاشرف تافها فان علينا أن نحميه ونحترمه ليدوم لنا هذا الملك . وان لم نفعل تفجرت الاطماع حولنا من كل جانب ، وسادت الفوضى ، والعياذ بالله ! أما قولك بأن ايبك يريد صيانة حرمة العرش فهى طيبة منك أكثر مما ينبغى .. انه لايدل على حقيقة ايبك .. فهو طاغية يريد أن يكون سلطانا ، ويعتقد أن مبايعة الأمراء له واجب مفروض عليهم ! .

قال : ولكن الناس لا يخضعون إلا للملك من آل ايوب.

فابتسمت هازئة وأجابت:

– إنك شجاع فى القتال أيها الأمير ، ولكنك قليل الخبرة فى

السياسة ودسائس القصور . أما رأيت أن ابيك اختار اسم «الملك المعز»؟

– وما معنى هذا الاختيار؟

– أنه رمز لتجدد الدولة الفاطمية التى قضى عليها صلاح الدين ، جد بنى ايوب .. وقد علمت أن عز الدين قد أغرى عددا من الامراء ، فوافقوا على مبايعته ، وهو يغتنم فرصة غيابك فى دمياط لينجز عمله اثناء غيابك ويجعلك امام الامر الواقع .

فاستاء ركن الدين من ذلك وكاد يتميز غيظا ، الا أنه تمالك وقال :

– وما شأنى فى مايريده عز الدين أو ما يفعل ، ياصاحبة العصمة ؟ أنا جندى فى جيش هذه الدولة ، أضرب بسيفها ، وأزود عن حياضها ..

– بل انت بطلها ، وأملها الأخير بالخلاص مما يعده لها عز الدين ابيك ؟

فأدرك عندئذ أنها ما استدعته إلا لتحرضه على أبيك ، فصمم أن لا يتورط ، وقال لها بقوة هادئة لا تترك مجالا للجدل :

– ياصاحبة العصمة، قلت لك انى جندى ، ولن اتخلى عن مهمتى وواجبى . ومهما يكن من الأمر فانى مسافر إلى بغداد بعد أيام ، ولست أدرى متى أعود .

فاطرقت خائبة ، وقد استولت عليها الكآبة ، ثم رفعت رأسها وقالت :

- رافقتكم السلامة ، ياركن الدين .. فاذهب إلى بغداد ، ولا تنس ان ابيك خائن ، لا يخدم إلا نفسه.. وكلما تقدم فى السن عاما ، ازداد تصلبا واستبدادا . ولا أدرى إلى متى استطيع تحمل غطرسته وجوره .

ونهضت متباطئة ، فوضعت يدها على كتفه ثم استطردت قائلة:

- قد تسمع فى بغداد ما لا يسرك من أخبار القاهرة .

وبعد سكوت تسوده الرهبة ، رفعت رأسها وحدقت فى عينى ركن الدين بقوة واصرار ، ثم قالت :

- لن يكون أبيك لبنت لؤلؤ ، ولا إلى غيرها ، فأنا وحدى اعلم لمن سيكون ، وما هو المصير اللائق بطموحه المتمادى.

ومشت إلى جناحها من القصر، فخرج بيبرس مرتبكا، ومضى فى سبيله لا يلوى على شىء.

النيل يهزأ بأطماع الناس

لم يغمض جفن لشجرة الدر فى تلك الليلة ، ولا وجد النعاس اليها سبيلا..

لقد عاودتها الصور .. وانتقلت هى بتفكيرها إلى أيام شبابها فى حصن كيفا ، واستعرضت ما مر بها من أحداث حتى توقفت عند ايبك . فخفض قلبها ، وامتلأت نفسها مرارة ، ثم انقلبت هذه المرارة حقدا قد ينفجر عما قريب ..

فنهضت من فراشها وخرجت إلى الشرفة كى تنظر إلى ظلام الليل ، وترى النيل يجرى بهدوئه الدهرى، وكأنه يهزأ بأطماع الناس وتهافتهم على الأمجاد الزائلة.

وأحست بها إحدى وصيفاتها ، فهرعت إليها تسألها:

– اتريد مولاتى شيئاً فأتيها به ؟

ربتت شجرة الدر كتفها مستأنسة بها، ثم قالت :

– بارك الله فيك، ياصفية، فقد جئت فى الوقت المناسب ، أيقظى مرجانا ، وليأتنى على الفور .

وما هى إلا لحظة حتى مثل مرجان بين يدى مولاته . وهو فتى من أبناء السودان ، صلب ، ضخم الرأس ، مفتول الساعدين ، متين البنية ، كأنه قُدَّ من الصخر . فخاطبته شجرة الدر قائلة :

– أتريد أن تعود إلى بلادك ، يامرجان؟

فارتبك قليلا ، ثم أجاب :

– كل بلاد الاسلام بلادى .. أما الآن فحسبى أنى خادم أمين لمولاتى .

– هذا جميل ! لكن المرء يحن دائماً إلى دياره ، حتى لو كان تاجرا وطنه حيث يربح . ومن لا يخالجه هذا الشعور لا يكون انسانا .

ولما لزم الخادم الصمت لا يدرى بما يجب اعطته حفنة من الدنانير واستطردت قائلة :

– ستعود إلى ديارك ، يامرجان ، ولكن .. بعد أن تقدم لى خدمة خطيرة .

وبان على مرجان أنه انتعش وأحس بأهمية نفسه :

– روحى فدى مولاتى صاحبة العصمة !

– ومتى أديت المهمة اعطيتك فرساً ، وكسوة ، وسيفا ، وقدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب. والآن من عندك من الغلمان الأشداء؟!

– عندى ميمون ، ووضاح ، وكليب ، وعدى، وغيرهم .

– أواثق أنت بأنهم يفعلون ما تأمرهم به؟

– كل الثقة ، يامولاتى.

فاستبشرت شجرة الدر بنباهته وقالت:

– حسنا ، عدهم بمثل ما وعدتك به ، واستعد للقيام بعمل تهتز له هذه الدولة .

فهب واقفاً وقال :

– لتأمر مولاتى بما تريد ! تريدنى أن أموت الساعة ؟!

فضحكت متهللة وأجابت :

– بل أريدك أن تحيا يامرجان ، وأن يموت سواك .. ان يموت من كفر بالنعمة ، واستخف بحرمة العرش ، وتطاول على الكرامات !

– ومن هو يامولاتى !؟ مرينى افعل ماتشائين.

– هو عز الدين ايبك ، قائد الجيش .. الطاغية الذى أبطر فضلنا عليه، ونسى ما اسبغنا عليه من خيرات .

– أين هو يامولاتى ، فاذهب إليه ، واضع خنجرى فى قلبه ؟

فابتهج قلبها بذلك وقالت :

– رويدك يامرجان ! لا أريدك أن تغامر وحدك . فقد يتغلب عليك . لكن ، استعد للعمل غدا ، مع خمسة من رفقائك الذين تثق بهم . وانتظر اشارتى، وأعمل ما أوعز به إليك لا أكثر .

– سترى مولاتى ان مرجان جدير بثقتها ، وما عليها إلا أن تأمره .

فصرفته قائلة : اذهب الآن ، وكن على استعداد.

ولما توارى مرجان فى الظلام ، خلت شجرة الدر بنفسها ، وهى مرتاحة إلى العمل الخطير الذى قررت تنفيذه . لقد غدر بها أيبك .. فعليه أن يدفع الثمن.

ولم لا تنتقم ممن جرح شعورها ، ونال من كرامتها!!

لقد كانت زوجة مخلصة أمينة ، وملكة حازمة صانت البلاد من شر الغزاة الصليبيين ، وهى مستعدة لبذل حياتها فى سبيل العرش والدولة . أما ان يستخف بها ايبك ، ويحاول تحقيرها ، فهذا ما لا ترضاه أبداً.

وما انفكت فى تفكيرها وهى تقلب أمرها على جميع الوجوه ، حتى طلع الفجر ، وبدت تباشيره فى المشرق . وهبت نسماته عليلة تحمل أنفاس الرياحين فعبت شجرة الدر منها ملء صدرها ، ثم استلقت على فراشها ، وأغمضت عينيها تستعرض فى خيالها ما ينتظرها فى يومها الجديد من الأحداث الجسام.

وطاب لها نسيم الصباح فأغفت، وما استيقظت إلا على صهيل الخيول فى الخارج ، وحركة الخدم فى داخل القصر .

وجاءت إحدى الوصيفات تقول لها :

– وصل مولاى الملك المعز .

فنهضت ، ومشت إلى الملك تستقبله مرحبة به . فلما رآها باسمة الثغر ، تبادر إلى ذهنه أنها خضعت لمشيئته ، واذعنت للأمر الواقع . فتفاءل خيرا ، وقال لها :

– جئناك مبكرين ، يا أم خليل ، لنسأل متى تريدين الانتقال إلى دار الوزارة.

فأجابت من غير أن يختلج فى وجهها عصب :

- ساعة يأمر الملك .. غداً أو بعد غد ، فنحن فى ظله كيفما توجهنا.

فاطمأن إلى أن قصر القلعة سيخلو له وحده ، فصرف حاشيته وجلس قائلاً:

- هذا يوم من أيام الراحة ، يأم خليل ، حقا ان الملك حمل يرهق الرجال ويهد الجبال .

فدنت منه مستأنسة ، وراحت تلاطفه قائلة :

- من كان مثلك لايخشى التعب ، أيها الملك . فالبلاد امانة فى عنقك ، وامانها مرهون بهمتك . فاعمل بما يوحيه وجدانك ، ولا تخشى فى الحق لومة لائم.

وسره تشجيعها بعد تلك المشادة العنيفة التى حدثت بينه وبينها ، فأجابها قائلاً :

- إننا نلجأ دائماً إلى مشورتك ، يأم خليل ، ونسترشد بأصالة رأيك . فانت السيدة الأولى فى هذه الدولة ، مهما تختلف الامور وتتبدل الاحوال.

فادركت أنه يحاول أن يفهمها الحدود التى يجب أن تعمل فيها. فهى السيدة العجوز المحاطة بنطاق من الاحترام .. تبدى رأيها إذا استشيرت ، وليس لها أن تتدخل فى شئون الدولة . فقالت :

– حسبى أن أقدم للملك ما وهبنى الله من الخبرة فى معالجة شئون الحياة .

فنزع سيفه، وخلع عمامته، وهو يقول :

– والله إنى لا أجد الراحة والطمأنينة إلا فى جوارك ، ياأم خليل، فهل تأمرين باعداد الحمام ؟ لقد وعدت نفسى بالراحة التامة طوال هذا النهار.

فأجابت على الفور :

– حبا وكرامة !

وصاحت باحدى وصيفاتها :

– إعداد الحمام للملك . وتأكدوا من أن الماء ساخن والمناشف جاهزة .

وتظاهرت بالاهتمام الكبير ، فيما كان أيبك يدخل حجرته ليخلع ثيابه.

وما كاد المعز «أيبك» يدخل الحمام ، حتى استدعت شجرة الدر مرجانا وقالت له :

– أين أعوانك يامرجان؟

– هنا فى الرواق ، ينتظرون إشارتك.

– هذه ساعتك .. فأيبك فى الحمام . ادخلوا عليه ، واضربوه حتى يموت.

فغاب مرجان لحظة، ثم عاد مع رفقائه وكل منهم يحمل هراوة من الحديد . فأشارت شجرة الدر إلى الحمام قائلة :

– بادروا إلى العمل ، وإياكم أن تتركوه قبل أن يلفظ أنفاسه !

وفوجيء أيبك بالغلمان ينهالون عليه ضربا، فأرسل صيحتين ، ثم سقط غائبا عن الصواب . وما انفك مرجان ورفقاؤه يضربونه حتى حطموا رأسه وقضوا عليه !!

★★★

بين اليأس والأمل!

استطاعت شجرة الدر أن تحيط ما فعلته بالكتمان طوال ذلك النهار . وفى صباح اليوم التالى تسرب الخبر إلى خارج القصر، فكان دويه مجلجلا بعيد الاصداء..

نادى المنادى :

– مات الملك المعز!

فوقف الناس واجمين ، بين متسائل وحائر . وكثر اللغط ، وتضاربت الآراء ، وكثرت الظنون ..

ولم تفقد شجرة الدر رباطة جأشها، فاستدعت بيبرس لتجلسه على العرش وتحتمى به، فقيل لها أنه سافر إلى بغداد ولجأت إلى سواه من المماليك ، وعهدها بهم لا يرفضون لها أمراً ، فاعرضوا عنها تحت وطأة الذهول الذى أصابهم .

وفى هذه الغـمـرة من القلق والاضطراب انقـسم المـماليك قسمين: أحدهما اتهم شجرة الدر باغتيال عز الدين ، وحاول الآخر الدفاع عنها لاعتقاده أنها بريئة .

قال الناطق بلسان الفريق الأول :

«لا ضمان لاستقرارنا إلا بالقضاء على هذه المرأة ، فهى مجرمة حقود ، تسفك الدماء لتظل قابضة على زمام الحكم ، فلابد من معاقبتها للتحرر من احقادها ، وانقاذ البلاد من مؤامراتها».

وقال الفريق الآخر:

«أنسيتم أنها قهرت الصليبيين ، وملأت خزينة الدولة ذهبا ، وكافأت المجاهدين الابطال ، وتصدقت على الفقراء ؟! ألا تذكرون أنها صاحبة الملك الصالح الأمينة ، وأم ولده خليل ، والملكة التى عززت الجيش ، ورفعت شأن الأمراء، واشاعت الأمن والطمأنينة فى الرعية؟!» .

واحتدمت المناقشة بين الجانبين وقتا غير يسير ، فكانت الغلبة لمناصرى الملك القتيل أيبك . وفيما كانت شجرة الدر تتسقط الاخبار وقد استولى عليها الرعب للمرة الأولى فى حياتها ، جاء أحد غلمانها يقول لها باكيا من شدة الخوف :

– مولاتى المماليك ناقمون علينا .. رأيتهم يرفعون قبضاتهم

صوب القصر متوعدين . وسمعت احدهم يزمجر : «الويل لشجرة الدر! الويل للقاتلة!» .

فوجمت برهة ، ثم ارتعدت وكادت تعجز عن النهوض . الا أنها استجمعت قواها على الرغم من يقينها انها هالكة لا محالة ، وصممت على الدفاع عن نفسها حتى الرمق الأخير.

وانتشر الخبر فى القاهرة بسرعة البرق : «شجرة الدر قتلت الملك المعز غدرا !» فانتقلت نقمة المماليك إلى عامة الشعب ، وارتفعت الأصوات فى الشوارع والساحات تصيح .

– الموت للقاتلة ! .

وبلغت هذه الصيحات اسماع سكان القصر ، فهرعت شجرة الدر إلى جمع مااستطاعت من الذهب والجواهر ، ثم تسللت من القصر إلى القلعة ، واعتصمت بالبرج الأحمر ، وكان ذلك فى العام ١٢٥٧.

وما هى إلا ساعة ، حتى ركب المماليك وجاءوا يحاصرون القاتلة فى معقلها الأخير . غير انهم ظلوا فى حملتهم تلك منقسمين : منهم من يريد البطش بشجرة الدر بلا هوادة ، ومنهم من يطالب بإقصائها عن الحكم والمحافظة على كرامتها ، بالنظر إلى خدماتها السابقة ، وما اسدت إلى البلاد من معروف لا ينكره أحد.

ولم يكن خلاف المماليك سراً فتناقل الناس أخباره ، وانقسموا بدورهم حـزبين : احـدهمـا يناصـر القـاتلة ، والآخـر يطالب بالاقتـصـاص منها . ولما علمت شـجـرة الدر بما يحـدث حـولها تشجعت . وتجدد الامل في نفسها ، فارسلت أحد رجال الحرس يقول للمماليك :

– أم خليل تذكركم بأنها ما جلست على العرش إلا بإرادتكم ، وتلبية لرغبتكم ، ولما صدر أمر الخليفة بتولية ملك عـوضا عنها خلعت نفسها مختارة مجبرة لتجنبكم التفرقة والاقتتال ، وها هي ذى مستعدة الآن أن تذعن لمشيئتكم إذا حقنتم دمها، وصنتم حرمتها من الامتهان .

فأجاب أحدهم:

– لتخرج حالا من البرج الأحمر ، ولتخاطبنا وجها لوجه من وراء النقاب، لنعرف كيف مات الملك المعز ، ومن قتله، وما هي أسباب اغتياله .

وخشى أحد خصوم الملكة الالداء أن تؤثر في قلوب المماليك وعقولهم ، إن هي ظهرت عليهم – شأنها في مختلف الأزمات والمواقف العصيبة – فاعترض صائحا :

– لا نريد أن نرى للقاتلة وجها ، ولا أن نسمع لها صوتا ، فهي عدوة الدين والوطن .. وما عقاب القاتل إلا الموت ! .

وامتشق سيفه محاولا الهجوم .

واقتدى به بعض رفقائه المتحمسين ، فإذا بعشرات من رجال الحرس يتأهبون للقتال، وكان خلفهم الخدم والغلمان يحملون الرماح ، والعصى ، والهراوات ، فقال قائل :

– علام الاقتتال ، أيها القوم ؟ أما أرسلت هذه المرأة تقول لكم انها مستعدة أن تنزل عند رغبتكم؟ امنحونا متسعا من الوقت لنتدبر هذا الأمر بالتى هى أحسن ، فلا فائدة من تناحر الاخوان!.

واقتنع المتحمسون بوجاهة هذا الرأى فانكفأوا مشترطين أن يعاقب القتلة إذا كانت هناك جريمة قتل. وساد نوع من الهدوء . وكل من الجانبين فى موقف الترقب والاستعداد .

واحست شجرة الدر أن الكابوس الرهيب بدأ يرتفع عن رأسها، فتنفست الصعداء ، وخيل اليها أنها قد نجت من الموت . وهذا أقصى ما كانت تصبو اليه ، وهى الداهية المحنكة فى معالجة الرجال ، وتكييف آرائهم واكتساب مودتهم وولائهم .

★★★

انتقام أم علي .. !!

يوم اشترطت شجرة الدر على عز الدين أيبك أن يطلق زوجته الأولى لتعقد عليه ، لم يخطر فى بالها أنها أقدمت على عمل من

شأنه أن يوردها مورد الهلاك . فقد جلبت على نفسها عداوة امرأة لا تقل عنها حزماً وصلابة وقوة إرادة ! .

ولو اقتصر الأمر على الطلاق ، لكان من المحتمل أن تواجه الزوجة الطالق نصيبها بشئ من التساهل والإذعان لمشيئة القدر .. ولكنها أصيبت فى أعمق عواطفها وأرهفها شعوراً ، ألا وهى عاطفة الأمومة : إذ اضطر أيبك إلى إقصاء ولدها القاصر ، علىّ عن العرش ليرضى شجرة الدر التى كانت صاحبة السلطان .

وأقامت أم على زمنا طويلا تخفى غيظها وتغذى حقدها فى العزلة والظلام ، ولا يدرى بها أحد ، حتى إذا اغتيل الملك المعز، أدركت أن ساعتها قد أزفت ، وبرزت تطالب بالانتقام للدم المهدور غدراً أو عدواناً .

يومذاك وقفت تخاطب المماليك سافرة الوجه ، لمعة العينين ، متوترة الأعصاب . وانطلقت الكلمات من بين شفتيها كالنار المحرقة ، فأثارت الخواطر ، وألهبت النفوس .

وفى ساحة القلعة ، حيث كانت شجرة الدر تستطيع أن تسمعها لو أنصتت إليها بانتباه ، خاطبت أم على المماليك قائلة :

– ويحكم ، ماذا تنتظرون ؟ أترجون رحمة لأبنائكم من تلك التى لم ترحم ولدى علياً ، وهو صبى طاهر القلب ، لم يسئ إليها بشئ ؟ أتتوقعون رأفة بعيالكم من تلك التى سلخت زوجى عنى

لتستأثر به خادما لأغراضها ، وأداة لطموحها .. ولما حاول التحرر من قيود الذل التى كبلته بها ، استباحت دمه ، وقتلته غدراً فى الحمام ؟ ! أين أنتم ، يا أبطال البلاد ، ويا حماة الديار ! أتخدعكم مجرمة دامية اليدين ، وأنتم فى تخاذلكم سادرون ؟ أتستبد بكم امرأة فاسدة الخلال ، وأنتم لطغيانها خاضعون ؟ أين إباء الرجولة فيكم ، أين العزة ، أين الكرامة ، أين الشرف ؟

وكان المماليك يسمعون وقد استولت عليهم الدهشة ، واستيقظت فى نفوسهم النقمة الراقدة ، ثم ارتفع منهم صوت يقول :

– لبيك ، يا أم على ! فوالله لن تعود السيوف إلى أغمادها إلا بعد أن تدفع شجرة الدر من دمها ثمن الدم المسفوح غدراً .

وماج الرجال كأن موجة عارمة من الغيظ قد عصفت بهم فامتشقوا السيوف ، ورفعوا الرماح ، وانطلق صوت أم على مزغرداً :

– يا لثارات الملك المعز ! .

وارتعدت شجرة الدر رعبا من تبدل الأحوال بمثل تلك السرعة المذهلة ، وحل اليأس فى نفسها محل الأمل ، وبخاصة حين رأت

حرسها وخدمها يتفرقون تفادياً للاصطدام بالماليك ، وسمعت أحد المهاجمين يصيح :

– اضرموا النار فى البرج الأحمر ! دونكم المشاعل ، أيها الرجال ! .

انقض مرجان على الماليك مستبسلا ، فتلقفته السيوف ، وأخذته الرماح ..

ورأته شجرة الدر يسقط صريعا ، فغمرها الأسى ، وكادت تخنقها الدموع ، فأطلت من ثغرة عالية فى البرج وصاحت :

– اغمدوا السيوف ، أيها الرجال ، فإنى مستسلمة .. احقنوا الدماء ، وأنا بين أيديكم ، فافعلوا بى ما تشاءون .

وخرجت إليهم رافعة الرأس تحت حجابها الكثيف ، فأحاطوا بها ، واقتادوها إلى السجن . ولم يلقوا السلاح إلا بعد أن أوصدوا دونها أبواب الحديد !! .

قبعت سلطانة الأمس فى ظلمة الانفراد تستعرض ماضيها ، وتحاول معرفة مايخبئه لها الغد ، وتتلقى من تقلبات القدر أمثولة وعبرة . وكانت تسمع صوتا يهمس فى أذنها ، كأنه خارج من أعماق الأرض ، أو هابط من أعالى السماء : « الدم يستسقى الدم! » فارتعدت مفاصلها ، وبكت .

انحدرت الدموع على خديها هادئة ، بطيئة ، فى صمت مهيب،

فما كفكفتها ، بل طاب لها أن تتألم . وهالها أن تفقد قواها أمام الموت ، فاستجمعت رباطة جأشها مصممة على أن تكون مثال الشجاعة والصمود فى اليوم العصيب .

أما أم على ، فما اكتفت بما حل بعدوتها من الهوان ، بل عملت على تعذيبها والتنكيل بها .

وكانت الأنظار قد اتجهت إلى الناصر على بن عز الدين أيبك ، فتفاوض المماليك بشأنه أياما ، ثم أجمعوا على تنصيبه ملكا على عرش أبيه ، فاشتدت شوكة أم على ، واتسع نفوذها ، وأصبحت صاحبة الرأى السائد والكلمة المسموعة . وتسنى لها أن تصب غضبها ونقمتها على شجرة الدر ..

لقد أرسلت إليها الغلمان يجلدونها بالسياط صباح مساء ، ويكيلون لها الشتائم والإهانات ، والصفع واللكم بلا حساب ، فما شكت هذه ولا استغاثت .ولم تستطع أم على أن تروى غليلها بسماع نحيبها ، أو صيحة واحدة من صيحات الألم ينتزعها منها التعذيب .

وكانت الجماهير قد بدأت تهتف للناصر على ، وتتوسم فيه ملكا عادلا يخرج بالبلاد من الأزمة التى تتخبط فيها ، إلا أن أمه أبت إلا أن يبدأ عهده بسفك الدم انتقاما لأبيه ، فخلت به وقالت له:

– أتدرى ، ياولدى ، كيف مات أبوك ؟

– أما اغتالته شجرة الدر ؟

– بلى ! ولكن كـيف ؟ ! أرسلت إليـه الغلمـان يضـربونه بالهراوات فى الحمام حتى لفظ أنفاسه ، وهو البطل المغوار الذى دوخ الجيوش فى الميادين .. والله يابنى ، لو هلك أبوك فى المعركة تحت سنابك الخيل ، لما آلمنى موته ، أما أن يفتك به الغلمان غدرا بأمر هذه المجرمة فهذا مالا يطاق أبداً ..

وكان الناصر على هادئ الطبع ، ميالا إلى المسالمة والتسامح، على الرغم من حداثة سنه . ولكنه تأثر بكلام أمه ، وأثارت غضبه الطريقة التى اغتيل بها أبوه فقال :

– لقد نالت الغادرة جزاء غدرها .. هاهى فى السجن تنتظر مواجهة ربها . والويل لها من يوم الدين .

فصفقت أم على كفا بكف وقالت متباكية :

– أتترك دم أبيك للقدر ، يا ولدى ، وأنت تتأهب للجلوس على العرش ؟ وماذا يقول الناس فيك حين تصبح ملكا وشجرة الدر حية ترزق ؟ ألا يقولون : هذا الذى قتل أباه نفر من الغلمان ، تنفيذا لأمر مجرمة حاقدة ؟ أما إذا قتلتها فإنك تغسل بدمها عارك ، وعارنا جميعا ، وعار البلاد ! رحم الله أباك !

إنه ما أغمض يوما على قذى ، ولا نام على ضيم ، أنت ابنه ووريثه ، ودمه أمانة فى عنقك ، لهفى عليك ، ولدى ، كيف يطيب لك النوم ، وقتلة أبيك تنعم بالحياة ، بل كيف تستطيع أن تنظر إلى وجوه الناس قبل أن تسحق هذه الغادرة سحقا . اذهب إلى السجن فوراً واخمد أنفاسها وإلا سبقتك أنا إلى القيام بهذا الواجب ، وتركتك تعيش نادما ، تنهش قلبك الحسرة إلى ماشاء الله ! .

فنهض على متثاقلا ، وأطرق مفكراً ، ثم قال :

– إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ومضى إلى السجن وهو غير واثق بأن أمه على صواب . ولما وقع نظره على شجرة الدر ، وهى فى أسمالها البالية صفراء الوجه ، دامعة العينين ، مقرحة الجفون ، استل سيفه ودنا منها على مهل ، فراحت تحدق إليه بلا وجل ..

كانت محتبيه على حضيض الزنزانة الرطب ، المكسو بالأوساخ، فما تحركت ، ولا طرف لها جفن .

وتردد على مرتبكا لا يدرى مايفعل .. فخاطبته شجرة الدر برفق قائلة :

– اضرب ، ياعلى ! اضرب ولا تخف . فأنا قاتلة أبيك .

– أتفاخرين بالإجرام ، يا أم خليل ؟

فانتفضت لسماعها هذا الاسم الذى يذكرها بقدسية الأمومة ، ثم قالت :

– لا أفاخر يا على ، بل أنا نادمة ، ومن واجبك أن تضربنى بهذا السيف الذى فى يدك . وإلا فما أنت برجل !!

– أتقتلين وتحرضين على القتل ؟!

فأجابت بصوت ينم عن التوسل :

– لا أحرضك على القتل ، ياعلى ، بل أشجعك على معاقبة قاتلة لم ترع لأبيك حرمة .

فخرج من الزنزانة وصاح بأحد رجال الحرس :

– اكفنى شر هذه المرأة ! فوالله إن لم تقتلها فى هذه الساعة ضربت عنقك .

ومشى على فى ساحة السجن الداخلية بخطى بطيئة ، فما كاد يبلغ الباب حتى هرول الحارس يقول له :

– ماتت شجرة الدر ، يامولاى ، قتلها ...

فقاطعه على مزمجراً :

– كفى لا أريد أن أعلم كيف ماتت ، ولا من قتلها ..

« كاترين الأولى »
عين الحب العمياء !!

قلمـا تجـد فى تواريخ أصـحـاب العـروش سـيـرة أدعى إلى الدهشة والاستغراب من سيرة هذه الامبراطورة الوضيعة الاصل. ويؤخذ من اقوال معاصريها من رجال البلاط الروسى وغيرهم انها لم تكن على شىء من الجمال ولكنها تمكنت بدهائها من استخدام ملامحها فاصطادت بشراك غرامها حاكم اكبر امبراطورية فى ذلك الزمان.

ويؤخذ من المصادر التاريخية ان اصل كاترين ليس معروفا بالدقة حتى ولا يعلم لقبها أو تاريخ ميلادها أو مسقط رأسها . وغاية ما وصل إليه الباحثون انها ولدت على الارجح فى قرية من قرى أسوج أو بولندا حوالى سنة ١٦٨٥ للميلاد من أبوين فقيرين وكان لها اخوة واخوات عدة غلب عليهم لقب سكوفرونسكى . اما اسمها الذى عرفت به فيما بعد فقد منحها إياه بطرس الاكبر.

ولما بلغت السابعة عشرة من عمرها دخلت فى خدمة القس كلوك راعى كنيسة مارنبرج .. فكانت تقوم بخدمته وتعتنى بأولاده وتنظف بيته وتغسل الثياب وتؤدى جميع الواجبات المطلوبة من

خادمة مثلها. واتفق ان الجيوش الروسية كانت تحاصر يومئذ مدينة مارنبرج ولم يعد فى استطاعة قائد الحامية ان يدافع عنها فعزم ان ينسف حصونها قبل ان يسلمها إلى الاعداء . وخير الاهالى بين الموت داخل المدينة أو الموت بين الاعداء . فاختار القس كلوك الخروج من المدينة وانطلق هو وأهل بيته وخادمته مارتا (كاترين) إلى معسكر الروس وطلبوا الرحمة من قائد الجيش المحاصر . فلما رأى القائد نضارة «مارتا» وملامحها الفتانة وقعت فى نفسه موقعا حسنا فارسل القس واهل بيته اسرى إلى موسكو واستبقى «مارتا» عنده.

ولم تمر بضعة أيام حتى كسبت مارتا مودة جميع الضباط ورجال الجيش الذين كانت بينهم فكانوا يأنسون إلى حديثها ويسرون بمسامرتها ويتسابقون إلى اكتساب مرضاتها لدماثه اخلاقها وشدة دهائها .

ومن ذلك الحين بدأ نجم سعدها يصعد ، فلم يمر زمن طويل حتى كثر الحائمون حولها ومعظمهم من ضباط الجيش . فكانت تراضى جميعهم وتستميل قلوبهم ولاتدع لهم مجالا للغيرة أو التحاسد . ويظهر انها أحبت واحداً منهم حبا مبرحا وولعت به ولعا شديدا . وكان هو ايضا كلفا بها فى اول الامر ولكنه لم يلبث ان ضجر منها فهجرها ولم يعبأ بها . أما هى فكظمت لوعتها

وكتمت ما كان يختلج بفؤادها وقالت فى نفسها ان الزمان هو الطبيب الشافى لى من هذا الحب فلعله لاتمر بضعة ايام حتى اتغلب على عواطفى .

وبعد زمن قصير دخلت فى خدمة منشيكوف صديق الامبراطور الحميم بصفة وصيفة له . ولكن وظيفتها لم تحل دون وقوع مولاها فى شرك غرامها ! .. فصار ملازما لها فى جميع حركاتها وسكناتها . واضطر مرة ان يسافر إلى مدينة «ويتسبك» بمهمة سياسية فلم يكد يبتعد عن «مارتا» قليلا حتى شعر بشوق إليها فكتب يستقدمها إليه، فذهبت وأقامت معه إلى حين انقضاء مهمته !! .

واتفق بعد عودته إلى موسكو ان زاره الامبراطور بطرس الاكبر فى منزله ودهش لما رآه من دلائل التنظيم والنظافة فى بيته، وسأله عن سر ذلك . فلم يجبه الوزير بشىء بل أزاح ستارا ظهرت من ورائه «مارتا» لابسة «مريلة» وهى تمسح الغرفة الملاصقة وتنظف زجاج النوافذ . فأثر المشهد فى نفس الامبراطور وطلب من صديقه ان يعرفه بوصيفته !! .

إن القلم ليعجز عن وصف المقابلة التى جرت بين الوصيفة والامبراطور فى تلك الساعة ، وقد صار بعض المؤرخين فى تعليل ذلك التأثير لأنهم أنكروا أن «مارتا» كانت على شىء من الجمال

المفرط . على ان عين الحب عمياء ومهما تكن ملامح «مارتا» بسيطة فإنها أثرت فى نفس بطرس الأكبر تأثيرا لم يمحه مرور الزمان بل لزمه حتى آخر دقيقة فى حياته .

ولا حاجة إلى القول بأن الامبراطور تمكن من أخذ مارتا التى دعيت كاترين فيما بعد - من صديقه الوزير وجعلها فى البلاط، وكان يتفانى فى اظهار حبه لها اكتسابا لمرضاتها، ويفعل كل ما يسرها ويغدق عليها المنح والهدايا !! وقد قيل انه دخل ذات يوم إلى غرفتها فوجدها نائمة ، وكان قد جاءها بشىء كثير من الحلى والجواهر هدية لها . فلما استيقظت ورأت ما حولها من تلك المصوغات تظاهرت بقليل من الاباء وخاطبت الامبراطور بلهجة عتاب لطيف قائلة : «وهل تحتاج ان ترشونى لتنال حبى يا مولاى؟» فسر الامبراطور من كلامها وزاد قدرها فى عينيه !! .

ومما ساعدها على نيل المكانة الرفيعة التى بلغتها فى بلاط الامبراطور انها كانت دمثة الخلق مع الجميع ، صبوحة الوجه لا تتصنع فى أعمالها وأقوالها . وقد كانت هى وحدها القادرة على أن تخفف من حدة الامبراطور اذا انتابته سورة الغضب ، فكانت تقترب منه وتلقى ذراعيها حول عنقه وتقبله فتهدأ ثائرته وتنقلب عبوسته إلى ابتسامة تدل على الرضى والسرور . ويظهر أن رنة صوتها كانت تؤثر فى نفسه فكان يطرب لكل كلمة تقولها !! .

هكذا كانت هذه المرأة تزداد رفعة ومقاما فى نظر الامبراطور وفى البلاط كله . فلم تعقد حفلة بدونها ولا كان الامبراطور يسر باجتماع لا تحضر فيه . والحق ان التاريخ يشهد لحكمتها ودهائها فانها كثيرا ما أبدت النصائح الثمينة لبطرس الاكبر مما كان له أحسن تأثير فى إدارة شئون المملكة .

ويؤخذ من أقوال بعض المؤرخين أن الامبراطور تزوجها سراً وكان يهتم بها كل الاهتمام . فلما خرج سنة ١٧٠٨ من موسكو لينضم إلى جيشه ترك وراءه وصية بخط يده جاء فيها : «إذا شاء الله ان أموت قبل أن أعود إلى عاصمة مملكتى فانني أوصى لكاترين وابنتها بثلاثة آلاف روبل» ، وهذه الوصية تدل على ان كاترين كانت قد أنجبت للامبراطور وهو الواقع مع ان زواجهما لم يكن علنا . ومهما يكن فإن الامبراطور عزم بعد رجوعه إلى موسكو ان يتزوجها رسميا ففعل ذلك فى سنة ١٧١٢! .

ومنذ ذلك اليوم بدأت سلسلة حفلات وولائم قلما شهد البلاط الروسى أفخم منها وأبهى ، ولم يكن لكاترين أعداء فى البلاط ولا خارج البلاط لان أخلاقها الرضية وحسن معشرها وشدة دهائها كسبت لها مودة الجميع .

★★★

وهكذا بلغت تلك الوصيفة مكانة من الشهرة والعظمة تحسدها عليها الملكات والأميرات ، مع انها كما ذكرنا لم تكن على شيء مفرط من الجمال . وفي قصور ملوك الروس صور عديدة تمثلها بهيئات مختلفة وهي في جميعها بسيطة الملامح لولا ذبول عينيها يكسبها مسحة من الجمال .

على أنها وان لم تكن فائقة الجمال في عيون الناس فقد كانت كذلك في نظر زوجها الامبراطور . وقد كان شديد التعلق بها يقرب حبه لها من العبادة !! .. وسرى ذلك الحب إلى الجيش كله فكان القواد الكبار والصغار يظهرون لها وداً واحتراما عظيمين ، فقد كانت تستعرضهم بصحبة زوجها الامبراطور وتحضر في جميع ولائمهم وحفلاتهم وتصحبهم في خيامهم وتشاطرهم أفراحهم ومشقاتهم . وكانت في جميع أحوال حياتها لا يخلو ثغرها من ابتسامة ترفع مكانتها لدى الناظر إليها . ومما زادهم إعجابا بها أنها كانت تمتطي صهوة جوادها تبتسم ابتسامة الظافر المتنصر.

وقد شهد جميع الذين رأوها وعرفوها انها لم يكن قط يبدو عليها شيء من دلائل الغرور فلم تكن تخجل من الاشارة إلى ضعة أصلها ونسبها بل بالعكس تباهي بهما ولا تجد موضعا ألذ من الحديث عن أهلها وما كانوا عليه من ضعة النسب. وكثيرا ما

كانت تذكر زوجها الامبراطور بأنها كانت وصيفة عند وزيره تغسل له ثيابه وتقوم بتنظيم بيته فيضحك الامبراطور لكلامها ويطرب لرخامة صوتها ! .

ولو شئنا ان نورد الرسائل الغرامية التى كان يتبادلها بطرس وكاترين لملأنا بها المجلدات الضخمة ، ولم تنقطع تلك الرسائل بعد زواجهما بل ظلا يتراسلان كلما ابتعد أحدهما عند الآخر يوما أو يومين! . وكان بطرس يخاطبها بقوله «حبيبتى» و «معبودتى» و«ملاكى» و«حبة فؤادى» إلى غير ذلك من الالقاب الدالة على تمكن حبها من قلبه .

وقد قيل أنه فارقها مرة مدة أسبوع واحد كان يراسلها فى خلاله كل يوم . ولما لم يعد فى وسعه الصبر على فراقها أرسل سفينته الخاصة لينقلها إليه وكتب يقول لها : «كيفما التفت حولى أرى العالم أشبه بفراغ عظيم لأنك لست بقربى . وقد تملك منى الملل فكلما دخلت غرفة أجدها فارغة مقفرة فأشعر إذ ذاك بدافع يدفعنى إلى اللحاق بك أينما كنت وحيثما تقيمين. فلماذا انت بعيدة عنى يا كاترين وانت تعلمين شدة ما أعانيه من لوعة الفراق؟ وها هى ذى الحياة كلها ملل وسآمة بدونك ايتها الحبيبة» !! .

وكان الامبراطور يبعث إليها مع كل رسالة بهدية فاخرة فمرة

يرسل إليها ساعة وأخرى حلية ثمينة ، ولم يكن يبخل بشيء في سبيل مسرتها . وكانت هي أيضا تهدى إليه هدايا متنوعة أثمنها في نظره خصل من شعرها وازهار يابسة وكانت ترسل مع الهدايا رسائل تشف عن دهاء واخلاص . وارسل إليها على اثر معاهدة ينشتاد يقول : «إنني مضطر بحسب شروط هذه المعاهدة أن أعيد جميع الاسرى الليفونيين إلى ملك أسوج .. ولما كنت أنت واحدة منهم فلا اعلم ماذا أصنع» فكتبت إليه تقول : «ألست خادمتك الأمينة ؟ اصنع بي ما يحسن في عينيك. انما أملي ان لا تطردني من بيتك».

وظلت الامور تجري على هذا المنوال ورابطة الحب تقوى بين بطرس وكاترين التي لم تكن تدع فرصة تمر دون ان تظهر لزوجها دلائل الود والاخلاص .

ومع ان كاترين بلغت هذه الرفعة من المنزلة لدى الامبراطور لم تنس قط أهلها في ليفونيا . وكان أحد اخوتها سائقا والآخر اسكافيا والثالث فلاحا والرابع خادما فاستقدمتهم جميعا وقدمتهم إلى زوجها الامبراطور فأغدق عليهم العطايا وفرض لهم مرتبا سنويا يتقاضونه واولادهم من بعدهم .

كاترين .. الامبراطورة

واتفق في ذلك الزمن ان الامبراطور بطرس كان قد حكم على

ولى عهده «الكسيس» بالموت لاسباب سياسية، ثم عفا عنه ولكن الكسيس مات مذبوحا فى سجنه على ماهو معروف فى التاريخ . فخلا الجو إذ ذاك لابن كاترين فعينه بطرس الاكبر وارثا للعرش . وهكذا تمت الحلقة الاخيرة من السلسلة التى كانت تربط بطرس بكاترين ولم يبق إلا ان يوضع التاج على رأسها لتصبح امبراطورة بالاسم والفعل معا . وقد تم لها ذلك فى شهر مايو ١٧٢٩ . فأقيمت الاحتفالات الشائقة فى موسكو ، ولم يدخر بطرس الاكبر وسعا فى سبيل جعل الحفلات فريدة فى نوعها . فأمر بصنع تاج جديد لكاترين من أفخم ما رأته عين وقيل انه انفق على صنعه مليونا ونصفا من الروبلات ، وعلى ثوب التتويج الذى صنع فى باريس أربعة آلاف روبل . وكان الامبراطور قد أمر أيضا بصنع مركبة خاصة فى باريس لهذه الحفلة ، قيل إنه عندما وضع بطرس التاج على رأس كاترين وقعت على قدميه تبكى من شدة الفرح !!

ولم يكد يمر ردح من الزمن على تتويج كاترين حتى حدث ما كاد يسقطها من شاهق مجدها ويذهب بمكانتها. ذلك انها كانت محاطة بكثيرين من رجال البلاط الذين كانوا يتوددون إليها . ومنهم وليم مونس اخ الآنسة مونس التى كانت سابقا محظية الامبراطور . وقيل إنه نشأت بين مونس وكاترين علاقات غرامية

انتشر خبرها فى البلاط ولم يكن أحد يجسر ان يطلع الامبراطور عليها خوفا من غضبه . ولكن الامبراطور علم بها فيما بعد فباغت العشيقين ذات ليلة يسيران فى الحديقة على نور القمر وقد احتضن أحدهما الآخر ! وفى نفس الليلة أمر الامبراطور بالقاء القبض على مونس والاتيان به إليه ، فلما مثل بين يديه اعترف بذنبه. وللحال أمر الامبراطور بقتله ، وقيل إنه قتل بينما كانت كاترين ترقص على وقع الآلات الموسيقية فى إحدى حفلات البلاط وعلى ثغرها ابتسامة على رغم ما فى قلبها من الحزن .. وفى الصباح التالى اركبها الامبراطور إلى جانبه ومر معها بجثة عشيقها معلقة فى احد الميادين، فلم تنبس كاترين بكلمة بل حولت نظرها عن ذلك المشهد إلى وجه زوجها الامبراطور وهى تتكلف التبسم متجاهلة غرض الامبراطور من اختيار تلك النزهة الفظيعة . ولم يكتف الامبراطور بهذا الانتقام بل وضع رأس القتيل فى زجاجة مملوءة بالكحول وجعل الزجاجة فى غرفة كاترين . ولما رأى أن كاترين تتجاهل أسباب ذلك كله اشتد غضبه ذات يوم فامسك بوعاء ثمين وقذف به على الارض فحطمه تحطيما وقال لكاترين : «هكذا سأحطم أعدائى !» فأجابته بكل هدوء : «لقد حطمت وعاء ثمينا كان يزين هذا القصر فهل تظن انك زدت بلاطك جمالا؟» .

وظل الامبراطور غضوبا على كاترين مدة من الزمن . ولكنها لم يصعب عليها ان تستعيد مقامها لديه فغفر لها ما مضى وعاد إلى إغداق نعمه عليها إلى أن أدركته الوفاة ففارقها وهو لايزال أمينا على حبها !! إلا أنها لم ترع عهود وداده ، فإنها لم تكد تواريه فى لحده حتى اخذت تتمتع بحريتها وتحيى الحفلات الراقصة واندفعت فى اللهو تاركة شئون المملكة بين منشيكوف إلى ان ادركتها الوفاة بعد أن أصبحت امبراطورة لمدة سنة وأربعة أشهر!!



ماری انطوانیت

«ماری أنطوانيت وجن دی فالوا»
أروع حوادث الاحتيال فى التاريخ

كان حادث عقد الملكة مارى انطوانيت والقضية التى ثارت بسببه ، من العوامل التى أدت إلى تعجيل الثورة الفرنسية الكبرى، وانهيار عرش لويس السادس عشر !! .

★★★

فى ١٩ أبريل ١٧٧٠ ، عقد زواج الارشيدوقة مارى انطوانيت، ابنة الامبراطورة مارى تريز النمساوية ، على الأمير لويس ، حفيد ملك فرنسا لويس الخامس عشر ، والذى أصبح بعد وفاة ابيه وارثا للعرش ، ووليا للعهد . وكانت الارشيدوقة فى الخامسة عشرة . وقد عقد الزواج فى فيينا عاصمة النمسا ، وكان العريس فى باريس ، فتم عقد الزواج «بالتوكيل» !

وغادرت العروس فيينا فى ٢١ ابريل قاصدة باريس ، فوصلت إلى مدينة ستارسبورج فى الثامن من مايو ، حيث استقبلها رجال الدين فى الكاتدرائية التاريخية. يتقدمهم الكاردينال الشاب دى روهان ، وهو من أعرق الاسر الفرنسية شرفا ونبلا ، وأعظمها جاها ، وأوسعها ثروة . وقد ارتدى فى ذلك اليوم التاريخى أبهى

حلله . وخاطب الاميرة النمساوية قائلا : «ستكونين أيتها الاميرة بيننا صورة حية لأمك الامبراطورة المحبوبة ، التى تثير اعجاب اوربا، وستثيرين اعجاب الاحقاب المقبلة، فروح الامبراطورة مارى تريز تعانق روح اسرة بوربون المالكة فى فرنسا !» .

بكت الاميرة من الفرح ، وتذكرت امها التى فارقتها فى فيينا ، ثم دخلت الكنيسة حيث باركها الكاردينال ، وأقام من أجلها صلاة حضرها الاساقفة والعظماء وأبناء الشعب.

واستأنفت العروس سفرها ، فاستقبلت فى القصور الملكية بفرسايل استقبالا منقطع النظير . وظلت طول الطريق تسأل عن ذلك الكاردينال الشاب ، فعلمت ان لويس دى روهان يعيش فى قصره ، ببلدة سافرن ، بالقرب من ستراسبورج. عيشة بذخ وترف، مثل غيره من أشراف ذلك العهد، وأنه ينفق أموالا كثيرة بلا حساب ، من ثروته الطائلة التي لاتقدر بالارقام . فهو يقيم المآدب ، ويحيى الحفلات التى يؤمها الاشراف رجالا ونساء ، ويخرج إلى الصيد والقنص ، ولا يحرم نفسه شيئا من ملذات الحياة .

وكان كبير وزراء لويس الخامس عشر ، رجلا رفعته إلى منصبه صداقته لخليلة الملك «الكونتس دي باري» واسمه «دوق ديجيلوين» وهو أيضا من المقربين لاسرة روهان . فقرر ارسال

الكاردينال إلى فيينا سفيرا لفرنسا فى بلاط الامبراطورة مارى تريز ، التى عينت من ناحيتها، الكونت «دى مرسى أرجانتو» سفيرا لها فى بلاط ملك فرنسا وهو الذى اتخذته مارى انطوانيت فيما بعد مرشدا لها . ومؤتمنا على أسرارها.

وكتبت الأميرة إلى أمها ، وكتب السفير إلى مليكته ، بان الكاردينال دى روهان قد عين سفيرا فى فيينا ، ووصفاه بأنه أقرب إلى الجندى منه إلى الكاهن . وأعرب سفير الامبراطورة عن خوفه من أن يكون ملك فرنسا قد احسن الاختيار ! .

ولد لويس دى روهان فى عـــام ١٧٣٤ . فكان إذن فى سنة ١٧٧٠ ، قد بلغ السادسة والثلاثين ، وقد يسرت له سبل التقدم، وارتقـاء أرفع المناصب ، فـعين مـسـاعـداً لرئيس أسـاقـفـه ستراسبورج، وانعم عليه من البابا برتبة الكاردينالية وانتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ، وأحاطه الناس بمظاهر التكريم والتبجيل، وراح الرجل ينعم بملذات الحياة بلا قيد ! .

وكان حلو الحديث ، واسع الاطلاع ، جميل الطلعة ، طيب القلب، سهل الانقياد ، سريع التأثر ، يندفع إلى غاياته وأهدافه دون أن يبالى بالعوائق أو العواقب ، وكان هذا سببا فى شقائه من بعد !! .

أنفق الكاردينال لويس دي روهان مبلغا طائلا من المال لاعداد

دار السفارة فى فيينا ، وسافر فى موكب يشبه مواكب الملوك، ودخل العاصمة النمساوية فى مركبات تجرها خيول مطهمة ، ويحيط بها ويتبعها جيش من الموظفين والخدم . فبهر أنظار النمساوين بمظاهر العظمة والفخفخة ، وترك لاول وهلة فى نفس الامبراطورة أثرا طيبا .

ولكن مارى تريز عدلت عن رأيها فيه، بعد أن شاهدت أعماله فى سفارته ، فان الكاردينال دى روهان عاد فى فيينا إلى ما كان عليه فى سافرن من إقامة المآدب واحياء الحفلات ، وراع الامبراطورة ما رأته من خفة فى سلوك السفير الغريب الاطوار . وكان ممثلها فى بلاط فرنسا ، الكونت دى مرسى أرجانتو يواصل حملاته على الكاردينال من بعيد ، ويوغر صدر الامبراطورة عليه .

وعلم الكاردينال بما يحدث فى الخفاء ، فجعل يدس لغريمه السفير النمساوى فى بلاط الملك لويس الخامس عشر . وتوترت العلاقات بين الرجلين ، وبين الكاردينال ومارى تريز ، فدعا هذا الامبراطورة إلى الكتابة سرا لابنتها مارى انطوانيت بأن تسعى فى نقل السفير الفرنسى من فيينا .

وكانت الاميرة الشابة سريعة الانقياد لارادة أمها . فان حياتها فى البلاط الفرنسى كانت محوطة بجو من الدسائس والمكائد، ولم يكن لها من مرشد غير أمها البعيدة، بواسطة

صديقها الكونت دى موسى، الذى كان همه الوحيد فى باريس ان يقرب بين سياسة فرنسا وسياسة النمسا. ولم يكن هذا سهلا عليه مع بقاء الكاردينال سفير فى فيينا .

حاول دى مرسى ، وحاولت مارى انطوانيت حمل الوزير الاول على استدعاء الكاردينال السفير، لكنهما فشلا . ولم يوفقا إلى إجابة الامبراطورة إلى رغبتها ، إلا بعد وفاة الملك لويس الخامس عشر ، وارتقاء حفيده ، زوج مارى انطوانيت العرش باسم لويس السادس عشر .

عندما تركت مارى انطوانيت اسرتها وبلادها إلى فرنسا ، كانت مفعمة أملا فى المستقبل ، ورغبة فى اكتساب حب الشعب الفرنسى . وكانت تستسلم لمرح شبابها ، ولا تقيد نفسها بالتقاليد والعادات المرعية فى البلاط ، فجعلت امها تؤنبها على ذلك. وظنت تلك الاميرة التى أصبحت ملكة ، ان فى وسعها ان تفعل ما تفعله كل فتاة فى سنها، وتجاهلت تلك المقتضيات التي يقتضيها المنصب الذى وصلت إليه .

أما زوجها الملك فانه كان يحبها حبا لم يبذله ملوك فرنسا من قبل إلا لخليلاتهم ، وهذا ما أثار ضدها احقاد الوصفيات ، ونساء الاشراف المتزلقات ، اللواتى يطمعن فى السيطرة على قلب الملك.

ولم تكن مارى انطوانيت تفكر كثيرا قبل الاقدام على انفاق المال، فعد الناس هذا التبذير عيبا لا يغتفر ، وبلغت انباء تبذيرها مسامع الشعب الذى كان يدفع الضرائب فحنق عليها .

جان دي فالوا !!

البرد شديد ، والمطر غزير ، والرياح عاصفة ، ولكن فتاة صغيرة ممزقة الثياب كانت تسير فى الطريق فى هذا الوقت مرتعدة الاطراف ، شاحبة اللون ، تمد يدها للمارة ، مرددة بلا انقطاع : «ارحموا فتاة من سلالة اسرة فالوا المالكة» ! والناس لا يصغون إليها . بل ان بعضهم ليدفعها بقسوة صائحا فى وجهها: «يا للفتاة الكاذبة» فيلمع فى عينى المتسولة الصغيرة بريق الغيظ والحسد والحقد .

فإذا ما عادت الفتاة إلى بيتها فى المساء ، انهال عليها صديق أمها ضربا على مشهد من امها ، لانها لم تجمع من التسول المبلغ الذى حدده لها ! .

كانت فى الثامنة من عمرها ، وهى تخرج احيانا للتسول حاملة اختها الصغيرة على كتفها ، حتي تسقط على الارض إعياء . وفى ذات يوم ، بينما هى واقفة على حافة الطريق تردد نداءها : «ارحموا فتاة من سلالة أسرة فالوا !...» إذا بمركبة تقف أمامها، وسيدة من الاشراف تسألها من هى ؟ وأية علاقة لها بأسرة فالوا؟

وكانت السيدة هى «المركيزة دى بولا نفيليه» فما سمعت قصة الفتاة حتى تحركت فى نفسها عاطفة الشفقة، ووعدت بان تساعدها إذا كان ما تقصه صحيحا .

وتقصت المركيزة الأمر ، فعرفت ان المتسولة هى - فى الواقع - من أسرة فالوا ، التى جلس ملوكها على عرش فرنسا ، قبل ان يتولاه ملوك بوربون . فهى من سلالة الملك هنرى الثانى ، وقد قلب لها الدهر ظهر المجن ، فأصبحت فقيرة معدمة.

كان ابوها «جاك دى سان ريمى» يعيش فى دار حقيرة بإحدى القرى . وقد تزوج خادمته فرزق منها باربعة أولاد :

جاك ، الصبى الكبير ، وجان الثانية واختيها مرجريت ومارى.

عجز الرجل عن كسب رزقه فى قريته فرحل عنها مع زوجته وأولاده ، ما عدا البنت الثالثة التى علقها فى شجرة وتركها وانصرف ، فالتقطها أحد الفلاحين وعنى بتربيتها ! .

واصيب الرجل بمرض فهجرته زوجته ، وعاشت مع احد الجنود ثم مات الزوج ، فاصبحت حياة جان جحيما لا يطاق ، وكانت امها وذلك الجندى يضربانها ويرغمانها على التسول .

تلك كانت حالة «جان دى فالوا» عندما وجدتها المركيزة دى بولا نفيله فى الطريق مع اختها .

أنقذتهما المركيزة وأرسلتهما إلى إحدى المدارس حيث ماتت

البنت الصغيرة وبقيت جان وحدها فى المدرسة . وكان ذلك فى سنة ١٧٦٣ .

ومرت أعوام ، واذا بجان دي فالوا تقيم فى قصر المركيزة ضيفة عليها ، مع اختها الصغرى التى جاءت بها من القرية حيث كان ابوها قد علقها فى أغصان الشجرة !! .

المغامرة الفاتنة :

الكونت دي لاموت !!

أصبحت جان فتاة ناضجة جميلة، ونبتت فى صدرها المطامع، واصبحت تتطلع إلى مستقبل يتفق مع الدم الذى يجرى فى عروقها ، دم ملوك فرنسا السابقين !! .

وبلغت الحادية والعشرين ، فقررت ان تشق طريقها فى الحياة، وراحت تنتقل مع اختها، من دار إلى دار ومن قصر إلى قصر ، حيث تدعو نفسها «الاميرة جان دى فالوا» وتعمل على التقرب من الاسر الكبيرة ، وأخيرا ، فى سنة ١٧٨٠ ، تزوجت ضابطا شابا يدعى «مارك انطوان لاموت» بعد ان أوقعته فى حبائلها ، ولم يمض على هذا الزواج أكثر من شهر واحد ، حتى وضعت جان طفلين توأمين ، ماتا بعد بضعة ايام ، وكان الزوج فى السادسة والعشرين ، والزوجة فى الرابعة والعشرين.

وقد انتحلت جان دى فالوا لنفسها ولزوجها لقب الكونتيسة ،

فسمت نفسها ، الكونتيسة : دى لاموت وسمت زوجها «الكونت دى لاموت ويقى اللقب مرتبطا بالاسمين !! .

كان دى لاموت فقيرا ، ولم تكن جان تملك شيئا غير المعاش الذى حصلت عليه من القصر الملكى بواسطة المركيزة دى بولا نفليه الطيبة القلب . فذهب الزوجان إلى مدام دى لاتور ، اخت دى لاموت ، وأقاما عندها مدة الزمن ، ثم رهنت جان معاشها بمبلغ ألف فرنك، واشترى زوجها مركبة من تاجر لم يدفع له ثمنها ثم باعها وقبض الثمن ، وهكذا تمكن الزوج والزوجة من اعداد منزل للاقامة فيه . وجعلت «الكونتيسة دى لاموت» تثير فى نفس زوجها تلك المطامع التى تختلج بها نفسها ، فوقع الرجل تحت سلطانها، لأنه كان ضعيف الارادة ، ضيق التفكير .

علمت مدام دى لاموت ان المركيزة التى أحسنت إليها ذاهبة إلى ستراسبورج ، حيث تحل ضيفة على الكاردينال روهان فى قصره بسافرن ، فعولت على الذهاب أيضا مع زوجها إلى تلك المدينة ، على أمل أن تتصل بالكاردينال لاستغلال نفوذه لمصلحتها فى المستقبل . ونفذت عزمها فى الحال .

وكان الكاردينال قد عاد من فيينا ، واستقر من جديد فى أملاكه الشاسعة ، حيث واصل تبذيره ، وإحاطة نفسه بجيش من المعجين المتزلفين . وكانت مدام دى لاموت من اولئك الاشخاص

الذين فى مقدورهم أن يؤثروا على الكاردينال بالحديث العذب، أو الكذب والنفاق، وهذا ما حدث للكونتيسة ، المغامرة ، الجميلة ، الفاتنة.

قدمتها المركيزة دى بولا نفليه إلى لويس دى روهان ، فاهتم الكاردينال اهتماما واضحا بما قصته عليه من مغامراتها ، والظروف التى احاطت بنشأتها ، ووعدها ذلك الرجل الطيب الكريم بأن يساعدها كلما وجدت نفسها فى حاجة إلى مساعدة ، لكى تحيا حياة لائقة بشرف محتدها . وكان أول ما صنعه لها الحصول لزوجها الكونت دى لاموت على وظيفة ضابط فى حرس شقيق الملك. ومنذ ذلك الحين ، بدأت الكونتيسة دى لاموت تنصب شباكها حول الكاردينال .

لم تكن الكونتيسة دى لاموت بما بلغته من نجاح بواسطة معارفها الكثيرين، وفى مقدمتهم الكاردينال روهان، ومن اجل ذلك، بدأت تقترض المال من هنا وهناك ، وانتقلت إلى فرسايل حيث استأجرت منزلا ملأته بالرياش الفاخرة ، والتحف الثمينة ، واستأجرت منزلا آخر فى باريس ، فعلت فيه ما فعلته بالمنزل الاول. وقامت مشاحنات بينها وبين دائنيها . وكانت كلما أردات التخلص من ورطة وقعت فى ورطة أخرى فاختلط فى حياتها الحابل بالنابل ، ولكنها ظلت تظهر أمام الناس فى مظهر المرأة

الغنية الشريفة ، وتبهر الالباب ببذخها وتأنقها ، وتدعى ان علاقاتها بالاسرة المالكة وثيقة العرى وان الملك لويس السادس عشر والملكة مارى انطوانيت يحبانها ويستقبلانها ويتخذانها موضع أسرارهما!!

وجعلت تسعى لحمل الملك على اصدار قرار باعادة الاملاك التى كانت لاسرة فالوا اليها هى ، سليلة هذه الاسرة، ولو انه تم لها ذلك ، لأصبحت فى الواقع على جانب عظيم من الغنى والجاه.

ونجحت فى حمل الملك علي مضاعفة المعاش الذى كان مقررا لها ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لسداد النفقات الباهظة التى تتطلبها حياة كالتى انغمست فيها الكونتيسة دى لاموت.

المال ! المال ! لابد لها من المال ! .

فكرت فى استغلال علاقاتها الوثيقة المزعومة بالملك والملكة، وجعلت تتحدث عنها فى كل مناسبة ، على أمل أن يقصدها طلاب الحاجات لقضاء حاجاتهم مقابل أتعاب يدفعونها إليها ، ولكنها فى الواقع لم تكن تعرف الملك ولا الملكة . وكل ما فى الأمر انها عرفت بعض رجال الحاشية ووصيفات الملكة. غير أنها لم تكن من التعقل بحيث تدرك مبلغ الخطر الذى ينطوى عليه ادعاؤها صداقة الملك، والملكة. وعبثا حاول أحد المقربين إليها أن يردها عن الاسترسال فى التحدث عن تلك العلاقة الكاذبة، إلا أن الكونتيسة

ذات المطامع الواسعة والجشع الذى لا حد له ، لم تصغ للنصيحة ولم تعدل عن الخطة التى رسمتها لنفسها .

وجمعت جان دى لاموت حولها شركاء عهدت كل منهم بمهمة أو وظيفة خاصة ، لتنفيذ تلك الخطة التى كانت تعتقد انها مضمونة النجاح، وانها ستصل بها إلى ذروة المجد والثروة. وبين اولئك الاشخاص شاب يدعى «رينو دي لافيليت» لعب فيما بعد دورا خطيرا فى حياتها ، وكان هذا الشاب ماهرا فى تقليد الخط، وقد اتخذته جان «سكرتيرا» لها .

★★★

حزن الكاردينال روهان حزنا شديدا لعلمه بأن الملكة غاضبة عليه تضامنا مع امها الامبراطورة ، بسبب سلوكه وسياسته فى فيينا، فجعل يبذل المساعى لاصلاح علاقته بالبلاط، والحصول على رضى ماري انطوانيت . لكن نفوذ الام عند ابنتها كان عظيما . فظلت الملكة معرضة عن الكاردينال ، وظل الطريق مسدودا أمامه لبلوغ ما كان يتوق إليه من مناصب وسلطان ، بسبب ذلك الاعراض الملكى.

كان الكاردينال يطمع فى ان يصبح يوما حاكم فرنسا ، كما كان من قبل الكاردينال ريشليو، والكاردينال مازاران ، والكاردينال فلورى ، فكيف العمل للتغلب على عداوة الملكة ؟

وهنا برزت الكونتيسة جان دى لاموت إلى الميدان ، وبدأت بتنفيذ خطتها الجهنمية مع الكاردينال الطيب القلب السهل القياد.

صدقها عندما قالت له ان علاقتها بمارى انطوانيت تزداد توثقا يوما بعد يوم ، وانها مستعدة بحكم هذه العلاقة لاصلاح ذات البين ، وهى على ثقة من إزالة الجفاء بينه وبين الملكة ، على شرط ان يصنع ما تطلبه منه بلا جدل ولاتردد . صدقها وترك لها حرية العمل بما تقتضيه المصلحة ! .

وفى ذات يوم ، قالت له ان الملكة ستشير إلىّ برأسها ، علامة الرضا ، وهى تمر بين عظماء المملكة فى بهو الاستقبال فى القصر، فوقف الكاردينال مع الواقفين وخيّل إليه فعلا ان الملكة تشير إليه برأسها ، فطار قلبه من الفرح ! .

وطلبت منه جان ان يكتب عريضة، يشرح فيها سلوكه ويبرره، قائلة له ان الملكة طلبت ذلك منها ، فصدقها الكاردينال ، وكتب العريضة ، وجاء الرد من الملكة ، موقعا عليه بيدها، وهى تقول فيه انها تنسى الماضى ، وانها ستقابله عندما تسنح الفرصة ! .

وقد اعترف دى لافيليت فيما بعد أنه هو كاتب ذلك الرد ، وكاتب جميع الرسائل التى تلقاها الكاردينال من الملكة، وانه كان يقلد خط ماري انطوانيت نزولا على امر مدام لاموت.

واعتقد الكاردينال ان كل شيء سائر على ما يرام ، بينه وبين الملكة ، بفضل الكونتيسة صديقتها ! .

وضمت جان دى لاموت إلى عصابتها ، فى أثناء ذلك أعطت فتاة ساذجة جميلة تدعى «نيكول لوجى» اسم «بارونة دوليفا» وعقدت العزم على استخدامها لقضاء أغراضها . وإذا كان لافيليت يكتب رسائل الملكة ، فان نيكول ستمثل دور الملكة، فى الرواية التى تعد الكونتيسة فصولها ومشاهدها .

كانت نيكول يتيمة مسكينة ، فأنقذتها الكونتيسة واحسنت إليها، وأقسمت الفتاة ان تطيعها في كل ما تطلبه منها .

وجاء ت الكونتيسة يوما إلى الكاردينال دى روهان فأبلغته ان الملكة ستقابله فى «خلوة فينوس» بحديقة القصر الكبيرة ورسمت له خطة السير . وذهبت مع زوجها ولافيليت ونيكول إلى تلك الخلوة، ودخلت نيكول إلى مكان مظلم حيث جلست على مقعد، وجاء الكاردينال فمر أمامها، ولم يتمكن من رؤية وجهها ، فاكتفى بلثم أطراف ثوبها، وسمعها تقول له متمتمة : «كن واثقا ان الماضى أسدل عليه النسيان !» .. وابتعد الكاردينال معتقدا أن المرأة التى لثم ثوبها ، وسمع صوتها، انما هى الملكة نفسها، التى وفت بوعدها، وحددت له تلك المقابلة بواسطة الكونتيسة دى لاموت، فى حين أن المرأة المختبة في خلوة فينوس لم تكن غير

نيكول الفتاة الساذجة ، التى كانت شديدة الشبه بالملكة ، والتى دربتها الكونتيسة على تمثيل دورها باتقان ، كما دربت لافيليت على تقليد خط الملكة !! .

قضية العقد الثمين ..!!

كانت سعادة الكاردينال عظيمة لا توصف ، واعتقد أن أحلامه ستتحقق مادامت العقبة الوحيدة قد زالت عن طريقه ، وانه سيصبح فى مستقبل الايام خليفة الكرادله الذين حكموا فرنسا من قبله.

وظهرت نتائج مقابلته للملكة بعد أيام من تلك الليلة التاريخية المشهودة .. فقد جاءته الكونتيسة دى لاموت طالبة منه باسم الملكة مبلغ خمسين ألف ليرة (أى ٧٥٠ ألف فرنك) قالت انها فى حاجة إليها ، ولاتريد ان تطلبها من الملك . وتوالت مثل هذه الطلبات على الكاردينال ، بواسطة جان دى لاموت ، وكان الرجل يدفع فرحا مرتاحا ، فتأخذ جان النقود وتهرع إلى الاسواق ، فتبتاع ما هى فى حاجة إليه من ثياب وأثاث وتحف وخيول ومركبات .. ، وكانت الملكة تجهل كل شيء من اعمال النصب والاحتيال التي انصرفت إليها الكونتيسة المغامرة .

وبعد ان وثقت الكونتيسة من استعداد الكاردينال لاجابة الملكة إلى جميع طلباتها أيا كان نوعها ، عمدت إلى تنفيذ المرحلة

الأخيرة من خطتها الشيطانية وهى المرحلة المعروفة بقضية العقد .

كان الملك والملكة يشتريان المجوهرات والحلى من التاجر الالمانى «شارل أوجست بوهمر» وشريكه «بول بازنجر» وهو ألمانى مثله ، وان كان من أصل فرنسى . وكان هذان التاجران قد جمعا من أنحاء اوربا كمية من أفخر الاحجار الكريمة الموجودة فى ذلك الوقت، وصنعا منها عقدا رائعا يعتبر أجمل حلية عرفت للبيع فى أسواق المجوهرات. وكان أملهما ان يبيعا ذلك العقد إلى الملك لويس الخامس عشر ، ليقدمه هدية إلى خليلته مدام دى بارى . لكن الملك لويس الخامس عشر مات قبل ان يشترى العقد، فعرضه صاحباه على البلاط الاسبانى فرفض شراءه أيضا لفداحة ثمنه، وفكر التاجران فى عرضه على لويس السادس عشر ، فأعجب به الملك، وسأل مارى انطوانيت إذا كانت تريد ان يشتريه لها، فرفضت قائلة ان دفع الثمن المطلوب يعد ضربا من الجنون.

أما ذلك الثمن ، فهو مليون وستمائة الف ليرة ، اى ما يوازى ٢٤ مليون فرنك ، وهو مبلغ هائل بالنسبة إلى قيمة النقد فى ذلك العهد.

وأرسل بوهمر يقول للملك انه اضطر إلى استدانه ٨٠٠ ألف ليرة من احد الاغنياء لدفع بقية الماسات ، وان أمواله كلها

أصبحت مجمدة ، وفوائدها باهظة ، ويسترحم لويس السادس عشر ان ينقذه من الافلاس بشراء العقد منه . وجعل الرجل يعمد إلى الوساطات ، فعاد الملك يسأل الملكة التى قالت انها لن تحلى عنقها بذلك العقد لا يقال انها تبذر أموال الشعب الجائع ! .

وعلمت الكونتيسة دى لاموت بقصة العقد ، فبرزت فى ذهنها المرحلة الاخيرة من خطتها مع الكاردينال .

اسرعت إليه وقالت ما خلاصته : «ان الملكة ترغب فى شراء العقد من بوهمر ، ولكنها لا تملك المال اللازم لذلك ، ولا تريد من ناحية أخرى أن يعلم الملك بانها ترغب فى شراء العقد . وهى تأمل أن يتولى الكاردينال شراءه بالنيابة عنها ، فيوقع على عقد البيع، ويتفق مع صاحبى العقد على طريقة الدفع التى يريدانها ، على شرط أن يقوم هو بتنفيذ عقد البيع أو تسديد الثمن ، ثم يسترده من الملكة على دفعات متوالية !!» .

وصدقها الكاردينال دى روهان !!!

لاحت في أفق باريس فى تلك الايام شخصية غريبة قدر لها أن تلعب دورا فى قضية العقد الماسى .. انه المدعو «الكونت كاليوسترو » كان يحيط نفسه بجو من الغموض ويدعى أنه ولد فى مالطة ونشأ فى المدينة المنورة وطاف فى افريقيا والشرق الاوسط، بل وادعى انه شاهد بناء سفينة نوح وصلب المسيح وانه يعرف سر صنع الذهب والماس ، كما يعرف المستقبل ! .

كان الكاردينال روهان يتفاخر بصداقة الكونت كاليوسترو هذا لذا راح يستشيره ويطلب مشورته .. وتظاهر الكونت بانه فى حالة غيبوبة يستلهم الوحي .. ثم فتح عينيه وقال للكاردينال «ستنجح مهمتك وتعود عليك بأعظم الانعامات والالقاب ، ويتضح لفرنسا كلها ما لك من مواهب وعبقرية .. اشتر العقد ومعه حب الملكة لك وتقديرها لاخلاصك وليكن العقد معبرك وموعدك مع قدر رائع»!! ..

واتصلت الكونتيسة بالتاجرين وافهمتهما ان الكاردينال سيشترى العقد ورافقتهما إلى قصر دى روهان ، حيث رأى الكاردينال العقد ، ودخل مفاوضات البيع ، وشروط الدفع ، وبعد أخذ ورد ، لعبت فيها الكونتيسة دى لاموت دورا ، وبعد استشارة كاليوسترو الدجال الذى شجع الكاردينال على شراء العقد بزعم ان هذا سيضمن له مساعدة الملكة وتأييدها إياه في مستقبل الايام، وبعد ان اعتقد لويس دى روهان ان شراء العقد لحساب الملكة سيكون وسيلة لاستخدام نفوذها، وقد يكون مرحلة للاستيلاء على قلبها ، بعد ذلك كله ، تم توقيع العقد ، واتفق الطرفان علي موعد لتسليم الحلية الباهرة ! .

وعندما قال الكاردينال امام صديقته الكونتيسة دى لاموت انه يريد كلمة من الملكة يطمئن إليها ، أخذت منه نسخة من عقد البيع

وخرجت ، ثم عادت حاملة إليه تلك النسخة وعليها توقيع الملكة : «مارى انطوانيت دى فرانس !» .

فلم يبق فى ذهنه أثر لشك ! .

وتسلم الكاردينال العقد من التاجرين ، واتفق مع صديقته على الذهاب إلى منزلها لتسليم العقد إلى الملكة ، أو إلى من توفده لهذا الغرض . وأعدت الكونتيسة عدتها لتمثيل هذا المشهد من الرواية على أحسن ما يرام ، وذهب الكاردينال فى الموعد المحدد، ودخل قاعة الاستقبال بمنزل الكونتيسة ، واذا برجل يدخل «موفدا من الملكة» فيسلم الكاردينال العقد إلى جان دى لاموت ، وتسلمه هذه إلى رسول الملكة ، وينصرف الجميع !! .

ولم يكن رسول الملكة غير رينودى لافيليت ، سكرتير الكونتيسة وعشيقها ، الذى أعاد «الأمانة» إلى سيدته بعد انصراف الكاردينال.

وهكذا حصلت الكونتيسة دى لاموت على «عقد الملكة» الذى كان الكاردينال يعتقد ببساطة عجيبة تدعو إلى الدهشة ، انه اشتراه لحساب ماري انطوانيت ، ومارى انطوانيت لا تدرى من أمره شيئا .

واطلع الكاردينال التاجرين على السر ، قائلا لهما أن العقد قد أرسل إلى الملكة ، ولكنه الزمهما بالكتمان ، لان مارى انطوانيت لا تريد أن يعلم الملك بانها اشترت تلك الحلية الغالية ! .

عمدت العصابة إلى نزع الماسات من العقد واخفائها ، وقام بهذا العمل الكونت دى لاموت وزوجته جان دى لاموت وشريكها رينودى لافيليت . وجعلوا منذ اليوم التالى يتصرفون فى تلك الاحجار الكريمة بلا حذر ، كأنها هبطت عليهم من السماء أو آلت إليهم من ميراث !! .

وقبض البوليس على لافيليت وهو يعرض للبيع كمية من الماس فى الاسواق ، واعترف الرجل بأنه أخذها من «سيدة نبيلة هى الكونتيسة دى لاموت قريبة الملكة» فلم يضايقها البوليس لاعتقاده ان الكونتيسة تتجر بالمجوهرات لحساب بعض الجهات، ولكن مدام دى لاموت ادركت ان عرض اللآلىء فى اسواق باريس قد يجلب عليها وعلى شركائها الخطر ، فقررت بيعها خارج فرنسا، وأوفدت زوجها ولافيليت لهذا الغرض ، إلى انجلترا وهولندا:

وابتاعت الكونتيسة فى باريس كميات من الحلى والثياب والاثاث والتحف ، واشترت دارا فخمة ، وكانت تقول لمن يسألها عن مصدر هذه الثروة الفجائية انها تلقت هدية ثمينة من اناس أسدت إليهم خدمة عظيمة فى أمريكا ! .

وخشيت الكونتيسة أن يكون مجيء الكاردينال إلى باريس ، فى تلك الظروف سببا لاكتشاف أمرها، فجعلت تكتب اليه الخطاب بعد الخطاب ، بأسم الملكة ، وتطلب منه البقاء فى قصره بسافرن،

لان مـجـيئـه إلى باريس سـيدعـو إلى القـيل والقـال . وأحـيت الكونتيسة سلسلة من الحفلات ، كانت تنفق عليها مبالغ طائلة ، والناس يتساءلون : ماذا حدث ؟ وكيف أصبحت مدام دى لاموت ، بين عشية وصباح ، على هذا اليسار الفاحش ؟ .

وصارت متسولة الامس ، تخرج فى مركبة تجرها ستة جياد مطهمة !! .

الصاعقة !!

كانت الكونتيسة دى لاموت ، قد أكدت للكاردينال دى روهان ان الملكة مارى انطوانيت ستحلي عنقها بالعقد الثمين فى الثالث من شهر فبراير ١٧٨٥، وهو عيد فى فرنسا ، فأسر الكاردينال ذلك إلي التاجرين ، فذهبا إلى الحفلة لرؤية العقد على صدر الملكة.

ولكنهما لم يريا شيئا ، فعاد بوهمر إلى الكاردينال واعرب له عن دهشته ، فلم يعلق دى روهان أهمية كبيرة على ذلك وظن ان الملكة لم تلبس العقد لسبب من الاسباب ، ولكنه قال لبوهمر : «هل رفعت شكرك إلى الملكة لانها اشترت منك العقد؟ اذا كنت لم تفعل بعد ، فاذهب وقم بهذا الواجب !».

ومرت الأيام والاسابيع ، دون ان تظهر الملكة وعلى صدرها ذلك العقد ، فسأل الكاردينال صديقته مدام دى لاموت عن سبب

ذلك ، فقالت له ان الملكة لاتعد العقد ملكا لها ، الا بعد أن يتم سداد ثمنه للتاجرين ، واضافت قائلة ايضا ان الملكة تعتقد أن ثمن العقد باهظ جدا ، وانها تطلب تنزيل مبلغ ٢٠٠ الف ليرة من اصل ذلك الثمن. فصدق الكاردينال ذلك وبات ينتظر ، إلى ان قرب موعد دفع القسط الاول من باقى الثمن ، وذلك فى اول اغسطس ١٧٨٣ .

ففى شهر يونيو من تلك السنة - وكان قد مر على استلام العقد خمسة شهور - طلب الملك من التاجرين قرطا من اللؤلؤ لاهدائه إلى الملكة ، فاعتزم بوهمر ان يغتنم الفرصة لشكر مارى انطوانيت على شراء العقد المشهور وابلاغها موافقته على تخفيض ثمنه حسب مشيئتها .

وكتب ورقة بذلك ، وعندما مثل فى حضرة الملكة لتسليمها القرط الذى طلبه الملك ، رفع إليها الورقة، ولكن دخول حاشية الملكة عليهما منعها من قراءتها ، فانصرف بوهمر قبل ان تطلع مارى انطوانيت على مضمون تلك الرسالة .

وعندما تنبهت الملكة إليها، وقرأتها ، لم تفهم ما يقصده التاجر من كتابة رسالته ، التى حشاها بكلمات مبهمة عن «نزوله علي رغبة الملكة وقبول شروطها الخاصة بثمن العقد الذى تم الاتفاق على بيعه ...» فألقت الملكة الورقة فى النار ، وقالت لاحدى

وصيفاتها : «ان هذالرجل يضايقني بعقده ، فقولى له اننى لا احب عقود الماس ولا أريد بعد الآن ان اشترى ماسة واحدة !».

لم تقل الوصيفة للتاجر شيئا ، لانها لم تقابله بعد ذلك اليوم ، ولم يصل إلى بوهمر رد من الملكة على رسالته ، فاعتقد ، واعتقد الكاردينال معه ، ان العقد فى حوزة الملكة ! .

ولم يبق غير أيام على موعد دفع القسط الاول ، وقدره ٤٠٠ ألف ليرة، وكان مفروضا ، حسب الاتفاق بين الكاردينال والكونتيسة ، ان الملكة هى التى تدفع الاقساط وان كان الكاردينال هو الذي تعهد للتاجرين بدفعها، فذهبت مدام دى لاموت إلى الكاردينال فى السابع والعشرين من شهر يوليو ، وقالت له ان الملكة لن تستطيع تسديد القسط المستحق فى اول اغسطس ، وانها ترغب فى تأجيل الدفع ثلاثة شهور ، على أن تكون الدفعة القادمة ٧٠٠ ألف ليرة بدلا من ٤٠٠ ألف . ووضعت الكونتيسة بين يديه مبلغ ٣٠ ألف ليرة ليوصلها إلى التاجرين كفائدة فى الثمن المطلوب . فاعتقد الكاردينال ان المبلغ مرسل من الملكة ، وقبله منه التاجران ولكن كجزء من الدفعة الاولى التي ظلا يطالبان بها .

حينذاك ، أقدمت الكونتيسة على عمل جريء يدل على عدم تقدير العواقب . فقد أرسلت تقول للتاجرين ان التوقيع الذى وضع

فى ذيل عقد البيع مزور ، وانه ليس توقيع الملكة، وان الكاردينال دى روهان رجل غنى يمكنه ان يدفع الثمن كله من جيبه !! .

لم يجرؤ بوهمر على الافضاء إلى الكاردينال بما قالته له الكونتيسة ، ولكنه قلق واضطرب ، واسرع إلى القصر الملكى حيث قابل مدام دى كامبان . وهى الوصيفة التي عهدت إليها الملكة بابلاغ بوهمر انها لاتريد شراء العقد، فواجهته الوصيفة بالحقيقة المرة : «أنت ضحية احتيال مدبر ، فإن الملكة لم تستلم العقد!».

وأدركت الكونتيسة المحتالة ان الخطر أصبح داهما، فذهبت إلى الكاردينال وطلبت منه ان يستضيفها بضعة أيام لان خصوما يكيدون لها عند الملكة . فقالت له ان مارى انطوانيت خائفة من إلحاح التاجرين واحتمال رفعها الامر إلى الملك . فجعل الكاردينال يهدئ روعها ، ويلح على التاجرين بوجوب الانتظار ويؤكد لهما أن الملكة بالذات هى التى ارسلت اليه الثلاثين ألف ليرة لدفعها كفائدة عن المبلغ المطلوب، وان لديه رسائل بخط الملكة هى أفضل ضمان بين يديه .

واطمأنت الكونتيسة على نفسها ، معتقدة ان الصاعقة ستنقض على رأس الكاردينال وحده ، وعادت إلى بلدتها .

وأخذ الكاردينال رأى كاليوسترو الدجال ، فنصحه هذا الرجل البعيد النظر ! بأن يذهب إلى الملك ويقص عليه كل شيء مؤكدا له

ان توقيع الملكة مزور ، وانها لم توقع ابدا باسم «مارى انطوانيت دى فرانس» .. ولو عمل الكاردينال بنصيحة الدجال كاليوسترو لانقذ الموقف . ولكنه تردد . ولم يطاوعه ضميره على كشف الستار عن اعمال الكونتيسة دى لاموت ، معتقدا ان هناك اشياء لايزال يجهلها .

وتساءل الرجل ، أيقضى عليه الواجب بأن يدفع من جيبه ثمن العقد ، ويضع حدا لهذه المسألة ! .

أما الكونتيسة ، فإنها استأنفت فى بلدتها حفلاتها الساهرة ومظاهر البذخ والترف .

وبينما كانت جادى لاموت جالسة إلى المائدة مع لفيف من العظماء فى إحدى الأمسيات ، اذا دخل عليهم احد الاصدقاء وهو يصيح قائلا : «خبر رائع : الكاردينال لويس دى روهان .. قبض عليه البوليس داخل الكنيسة .. مرتديا ثوبه الكهنوتى ! .. يقال ان هناك قصة غريبة .. قصة عقد من الماس اشتراه الكاردينال باسم الملكة !»

وخرجت الكونتيسة من قاعة المائدة مضطربة حائرة .

الطريق الي سجن الباستيل !!

ماذا حدث ؟!

حدث ان مدام دي كامبان اطلعت الملكة علي ماقاله لها التاجر

بوهمر . فارسلت ماری انطوانيت فی طلبه، واطلعها الرجل على مراحل الصفقة التي تمت بينه وبين الكاردينال، وكيف باعه العقد الثمين على اعتبار انه للملكة، وانها لا تريد ان يعلم أمره أحد، فأمرته الملكة بان يكتب تقريراً بذلك كله، فصدع التاجر بالأمر .

وأسرعت الملكة الي الملك لويس السادس عشر وأطلعته علي كل شئ، وطلبت منه ان يتخذ ضد الكاردينال ما يراه لازماً من تدابير، لانه عمد الى استغلال اسمها وتزوير توقيعها، فالكاردينال هو المذنب الوحيد، أو المذنب الأول فی نظر الملكة، ولابد من القصاص منه .

وأرسل الملك فی طلب الكاردينال، الذي كان قد وصل إلي كنيسة القصر للاحتفال بقداس رسمي أمام عظماء الملكة . فأسرع دي روهان الى الملك، وحاول اقناعه بانه لم يقدم علي شراء العقد مدفوعاً بنية سيئة، وانه مخدوع وليس خادعاً .

أدخله الملك الي مكتبه وأمره بأن يدون ما يريد في تقرير يرفع اليه، ففعل الكاردينال ما طلبه الملك منه، ودارت بين لويس السادس عشر والكاردينال المسكين محاورة مؤثرة :

– أين تلك المرأة، مدام دي لاموت ؟

– لا أعلم .

– أين العقد ؟

– انه معها .

– أين الوثائق التي خولتك الملكة موجبها شراء العقد ؟

– انها معي ولكنها مزورة !

– طبعا..مزورة !

– سأحضرها لجلالتكم !

وأضاف الكاردينال بصوت متهدج :

– يا صاحب الجلالة لقد خدعت !سأدفع ثمن العقد من جيبي !

فأجاب الملك :

– لا يسعني في هذه الحالة إلا ان آمر بوضع الاختام علي قصرك ، والقاء القبض عليك، فإن اسم الملكة عزيز عليّ، وقد لطخ هذا الاسم ، فيجب على ألا أهمل شيئا لمعاقبة الفاعلين .

رجاه الكاردينال ان يتجنب الفضيحة . وأوشك الملك ان يلين . لكن الملكة تدخلت في الامر، وألحتْ عليه بوجوب الالتجاء الى الاساليب السريعة الفعالة .

فأصدر الملك أمره بوقف الكاردينال . وبدل ان يخرج لويس دي روهان من مكتب الملك ليذهب الي الكنيسة ويعتلي الهيكل لأداء الصلاة، خرج من ذلك المكتب وخلفه الحرس، واجتاز صفوف العظماء الواقفين علي الجانبين، في طريقه الي سجن الباستيل،

لكنه لم يفقد اعصابه، بالرغم من تلك الساعة الرهيبة . فقد نادي أحد أعوانه، وأوفده الي قصره، وعهد اليه بان يعدم طائفة من الأوراق والوثائق التى كان يظن ان فيها ما يسيئ الي سمعة الملكة، في حين ان الملكة هي التي ألحت في وجوب القضاء عليه !.

★★★

صدر الامر في اليوم ذاته باعتقال الكونتيسة دي لاموت، فارسلت ايضا الي سجن الباستيل . واجتمع في بيتها افراد تلك الاسرة العجيبة، وراحوا يبحثون في أقرب طريقة لتهريب ما تبقي من مال ومجوهرات وأثاث، وفى وسيلة لانقاذ الكونتيسة من السجن .

أما الزوج، الكونت دي لاموت، فقد رأي ان خير ما يفعله هو ان يغادر فرنسا ويبتعد عن موطن الخطر، فسافر الي لندن.

وغضب الشعب لاعتقال الكاردينال، لان الأفكار الثورية كانت قد نجحت فى فرنسا، وعلي الخصوص في باريس، حيث كان الناس يتهمون الملكة بالتبذير، والملك باحتقار ارادة الشعب ورفض الاصلاحات المطلوبة . وحقد اشراف القصر أيضا علي الملكة «الغريبة عن فرنسا» والتي اعتقل بسببها رجل من خيرة رجال البلاد، ومن اعظم الاسر الشريفة جاهاً، وأوسعها ثروة، وامتد الامتعاض الي رجال الدين الذين عدوا اعتقال الكاردينال إهانه

لهم جميعاً، ولم يكن «البرلمان» أقل انزعاجاً من الاشراف والشعب ورجال الدين، لان خصوم الملك فيه كانوا كثيرين . وهكذا، بعد اعتقال الكاردينال دي روهان، وجد الملك نفسه امام معارضة قوية من جميع الطبقات .

وجلست مدام دي لاموت في سجن الباستيل تفكر في أمرها، وفي طريقة للدفاع عن نفسها، وظلت تعتقد ان في وسعها التخلص من الورطة التي وقعت فيها، والقاء التبعة كلها على الكاردينال، الذي قام بعملية الشراء ووقع على الاوراق ودفع جزءاً من المال للتاجرين .

وكانت نيكول، المرأة التى مثلت دور الملكة في «خلوة ڤينوس» قد تزوجت وسافرت مع زوجها الي بروكسيل، فاعيدت الي باريس بناء علي طلب المحققين ، كما اعيد اليها ايضا رينو دي لافليت، مزور الرسائل والتوقيعات، وكان قد فر هارباً ولجأ الي سويسرا، فاجتمع أفراد العصابة كلها في سجن الباستيل، ما عدا الكونت دي لاموت الذي بقي في لندن وتعذر القبض عليه .

ضحية الملكة الغريبة !!

أخطأ الملك باعتقال الكاردينال، وكان في وسعه ان يمنع الفضيحة، وأخطأ مرة ثانية عندما استجاب لطلب الكاردينال باحاله قضيته الي مجلس النواب وكان في وسعه ان يرفض وان

ينظر في الأمر بنفسه ، فيدرس القضية وملابساتها، وينزل العقاب بالذين يستحقونه ، ويخلى سبيل الكاردينال اذا ثبت له حسن نيته .

ووقوع الملك في الخطأ مرتين، أدي الي استغلال هذا الحادث، لمصلحة دعاة الثورة، فكانت «قضية العقد» عاملا من العوامل التي عجلت بتلك الثورة الهائلة التي فجرت مراجلها في فرنسا عام ١٧٨٩ والمعروفة «بالثورة الفرنسية الكبري» .

كان اسم الملكة مرتبطاً بهذه القضية، وكانت سمعتها معرضة للخطر، وقد وجد المجلس فرصة سانحة لإظهار معارضته للأسرة المالكة فاغتنمها .

وبدأ المحققون في استجواب المتهمين، ورفعوا الحجاب شيئاً فشيئا عن الاسرار التي اكتنفت ذلك الحادث الذي يعد من أروع حوادث الاحتيال في التاريخ . فقد سئل جميع المتهمين واحدا واحدا، ثم قوبلت أقوالهم بعضهم ببعض، وعمد المحققون بعد ذلك الي سؤالهم مجتمعين، ومواجهتهم بعضهم ببعض.

واظهرت الكونتيسة دي لاموت رباطة جأش عجيبة، ووقاحة في أجوبتها أدهشت المحققين ، وكانت تعمد الي الكذب بسهولة فائقة، وسرعة خاطر، وتكيل التهم لغيرها كيلاً، محاولة ان تلطخ سمعة الكاردينال مااستطاعت الي ذلك سبيلا، فادعت انه يحبها، وأنه

اخذ العقد لنفسه ، وان الذين شاركوها في العمل كانوا يستغلونها ويبتزون منها الاموال . ولكنها اضطرت في النهاية الي الاعتراف ببعض الحقائق، وان لم تعترف بها جميعاً، وكانت في حجرتها بسجن الباستيل تصيح وتسب، ثم تنتابها نوبة عصبية أقرب الي الجنون، فتلقي بنفسها علي الارض وتحطم كل ما يقع تحت يدها .

أما الكاردينال، فقد أثبت في أثناء التحقيق انه رجل طيب السريرة سليم النية الي حد بعيد، وكان هادئاً، متزناً، يعرف انه أخطأ ولكنه ينكر انه مذنب، وكان شديد الاهتمام، وهو في سجنه، بالدجال كاليوسترو وزوجته . وقد اعتقلا مثله في سجن الباستيل. وظل متصلا بالاشخاص الذين عهد اليهم في الدفاع عنه، وقد تجلت عواطفة النبيلة في الرسائل التي كان يكتبها اليهم من سجنه، والتي أبدي في بعضها أسفه لزج الملكة في تلك القضية بسببه .

★★★

لم يعد للناس شاغل في باريس غير قضية العقد . فالاشراف في قصورهم، والمفكرون والكتاب في خلواتهم، والجمهور في الشوارع والميادين، ورجال الدين في كنائسهم وأديرتهم، كلهم كانوا يتحدثون عن القضية ويبدون رأيهم فيها ويرقبون يوم المحاكمة.

وكان الشعور العام عدائياً نحو الملك والملكة، فعمد رجال الثورة الي طبع منشورات اتهموا الملكة بالحق والباطل، وتظاهر الناس حول الباستيل هاتفين بحياة الكاردينال الذي كانوا يعدونه ضحية تلك الملكة الغريبة لانه قاوم سياستها، وبذل رجال الدين نفوذهم في كل مكان لاكتساب عطف القضاة، علي الكاردينال المفتري عليه، وتضامن الاشراف مع اسرة روهان التي أهينت في شخص عميدها . ووضع االشعراء الشعبيون الاغانى والاناشيد، للثناء علي الكاردينال والطعن في الملكة «النمساوية» والملك الذي انقاد لها. وما كاد يوم المحاكمة يجيئ حتي كان الجو قد تسمم والافكار قد اضطربت والخواطر قد هاجت .

وكان الناس يرددون في شوارع باريس، أن الكاردينال قد ابتاع العقد لان الملكة طلبت منه ان يبتاعه لها، وانه يؤكد في سجنه ان العقد قد تسلمته الملكة، ولكنها تنكر، وترفض ان تواجه الكاردينال لانها تخاف منه !

المحاكمة

بدأت جلسات البرلمان للنظر في «قضية العقد» في ٢٢ مايو ١٧٨٦ وكان عدد الاعضاء٦٤ عضوا، ليس فيهم واحد من الاشراف الذين تربطهم بالاسرة المالكة رابطة القرابة، فهؤلاء قد انسحبوا من المجلس، أو بالاحري «ردوا» عن النظر في القضية .

وكان رئيس هذه المحكمة العليا المركيز«ايتان دالنجر» رئيس البرلمان .

كان المتهمون : الكاردينال دي روهان، والكونتيسة چان دي لاموت، وزوجها الكونت دي لاموت، والآنسة نيكول دوليفا، والكونت دي كاليوسترو، ورينو دي لافليت .

اعترف دي لافليت بأن رسائل الملكة كتبت بخطه، وانه اشترك في اعداد مشهد «خلوة ڤينوس» وانه تسلم العقد من يد الكونتيسة بعد ان أخذته من الكاردينال ، ثم أعاده اليها .

وبلغت وقاحة الكونتيسة أثناء المحاكمة مبلغاً لا يمكن وصفه . فكانت تشتم وتسب القضاة والشهود، وتفتري علي الجميع، وتدعي ان الذين شهدوا ضدها كانوا جميعا يتوددون اليها ويكاشفونها بغرامهم . وارادت ان تثبت ان الملكة كانت تراسل الكاردينال، وانها قابلته فعلا في «خلوة ڤينوس» .

وكانت أقوال الكردينال أمام القضاة مطابقة لأقواله في محاضر التحقيق . ولم يخرج ذلك النبيل الشريف لحظة واحدة عن رصانته واتزانه . وقد اعاد الي مسامع القضاة رواية الحادث كما وقع .

وجاءت أقوال المتهمين كلها مثبتة لادانة الكونتيسة دي لاموت والذين اشتركوا معها اشتراكاً مباشراً في اعداد حادث الاحتيا لوالتمتع بثمرة السرقة .

وكانت الجماهير محتشدة في الخارج، تتسقط الأخبار، وتعلق عليها، وتنتظر صدور الحكم ببراءة الكاردينال دي روهان.

ولما أخذ رئيس المحكمة يقرأ الحيثيات وتبين الناس ان المحكمة قد غيرت محور ارتكاز القضية فحولته إلى قضية للفصل بين الملكة نفسها وبين الكاردينال .. وحكمت لصالح الكاردينال، وهتفت الجماهير :

«يحيا الكاردينال .. يحيا البرلمان» .. واصبح الكاردينال دي روهان رمزاً للمقاومة وممثلا لمعارضة الملكة وكل ما تمثله.

وحكمت المحكمة غيابيا علي دي لاموت زوج الكونتيسة وقررت نفى المزور لافيليت وحكمت بأن تطبع رسمة العار بالنار علي كل من كتفي الكونتيسة وان تسجن مدي حياتها ولكن جزءا من ثمن العقد الماسي استغل في تدبير هربها من السجن بعد عام واحد !!.

★★★

الوجه السياسى لقضية العقد الماسى!!

كان لتلك القضية أثر كبير على حياة الملكة مارى انطوانيت رغم براء تها وعدم علمها بشراء العقد الماسى ، الا ان الناس اتخنوا تلك القضية ذريعة للطعن فى الملكة وبذخها وإسرافها الجنونى وإيثار اتباعها بأحسن الوظائف . واتخذ اعداء

الملكة من هذه القضية مرآة يعكسون عليها كراهيتهم وبغض الشعب لها .

وقد نشرت الكونتيسة دي لاموت فالوا أثناء اقامتها فى لندن، بعد تهريبها من سجن الباستيل، سجلا مفصلا لغراميات الملكة ماري انطوانيت فيه على الاقل ٣٤ اسماً لاشخاص عرفتهم الملكة معرفة جنسية !! مما يصعب سرده الا على لسان شخص عارف بأسرار البلاط الفرنسي قبيل الثورة الفرنسية أو قادر على التلفيق الجهنمي !! .

وفي عام ١٧٩١ كانت سيرة ماري انطوانيت الجنسية ملكاً للخاص والعام في شوارع باريس ونواديها السياسية، فأرادت النوادي السياسية استقدام الكونتيسة دي لاموت فالوا من لندن لتدلي بأقوالها امام محكمة الثورة بوصفها شاهدة، ولكن لوثة من الجنون أصابتها فانتحرت بإلقاء نفسها من النافذة . وأسدل موتها المفاجئ ستاراً على الموضوع .

★★★

وفي أثناء محاكمة ماري انطوانيت بعد الثورة الفرنسية، احتجزت في سجن الكونسييرچي بعد اعدام لويس السادس عشر وحاول احد أعدائها استغلال هذه الفضائح في قضيتها فلم ينجح الا في استدرار العطف عليها بسبب احتقارها إياه ، فهذه الأمور

الخاصة يصعب اثباتها لانها تجرى عادة داخل اربعة جدران وبين قوم مدربين في المحافظة علي المظاهر .

ولم يمكن توجيه اتهام محدد الي ماري انطوانيت فرفع رئيس المحكمة رأسه وقال : المطلوب من المحلفين ان يجيبوا علي سؤال واحد هو : هل هم مقتنعون بأن الملكة السابقة كانت علي صلة بالخارج وانها كانت تعمل علي انتصار جيوش الأعداء وعلي إشعال الفتنة داخل البلاد ؟

وهكذا طرح الإتهام علي وجهه السياسي الذى لا تبرئة منه .

وبعد الخلوة المعهودة للمداولة أجمع المحلفون علي ان الملكة مذنبة .

وصدر الحكم باعدامها فسيقت الي المقصلة ..

قيل وسارت الي الموت رابطة الجأش كما تسير الملكات ..

وعلي الذين ينسبون الثورة الفرنسية ويرجعونها الي كتابات فولتير وروسو وديدرو أن يضيفوا الي اسبابها ذلك العقد الماسي الذي لم تلبسه الملكة ماري انطوانيت أو تلمسه الا في خيال من اختلقوا عليها بالباطل وهللوا يوم حوكمت وأطاحت المقصلة بعنقها الذى لم يلمسه ذلك العقد الماسي المشئوم .



دي بومبادور

«دى بومبادور»
ملكة فرنسا غير المتوجة ..
التسليم بسلطان الجمال !

كانت نبوءة من قارئة الطالع ، ولكن الأم عرفت كيف تعد ابنتها لتصبح ملكة غير متوجة . وكانت الفتاة الجميلة وضاءة المحيا ، الجمال وحده يجتذب القلوب ولكنه لا يحتفظ بها ، ان للاحتفاظ بالقلوب أسرارا ، وقد استطاعت الأم ان تدرب ابنتها على حذقها .

★★★

مدام بومبادور .

مدام لامركيز .

عشيقة لويس الخامس عشر

وملكة فرنسا غير المتوجة !!

لم يكن جمالها ، ولم يكن ذكاؤها فحسب الذى فتح لها أبواب قصر فرساى فاستولت على قلب ملك وحكمت فرنسا من غرفة مخدعها عشرين عاما ، بل كانت انوثتها الصارخة وشهوة التسلط والتملك هى التى عبدت لها الطريق بالورد المعطر لتنزلق عليه

أقدام هذا الملك الفاتر العزيمة الفائر الدم ، فتتلقفه ذراعا مدام بومبادور كأنه طفل كبير ، وتفتح له آفاقا جديدة من المتع .

كانت مدام بومبادور تقول أن الحياة معركة ، وقد كانت حياتها معركة طويلة فى سبيل الطموح ، نزلت الى ميدانها تحمل كل سلاح للمرأة ، لا تعترف بشىء سوى النصر النهائى ، إذ ليس فى شرعة الحرب مكانا لفضيلة من الفضائل سوى ما تقضى به تقاليد المعارك من كر وفر ، ونكوص ووثوب ، وخديعة ووقيعة ، أرادت أن تكون عشيقة للملك ، وأرادت لها أمها أن تكون خليلة للملك ، وأراد لها وصيها أن تكون محظية الملك ، فكان لها ما ارادت وما أرادوا لها ، وعشيقات الملوك فى ذلك العهد كن ملكات غير متوجات ، وهكذا أصبحت هذه المرأة المغامرة ملكة على فرنسا لا ينقصها سوى التاج ! .

نبوءة الأميرة الصغيرة !

عندما جاءت مدام بومبادور إلى الحياة باسم «انطوانيت بواسون» فى ٢٩ ديسمبر عام ١٧٢١ كانت أمها مادلين ديلاموت عشيقة لرجل من رجال المال فى باريس يدعى تورنهيم بعد أن ساقت المتاعب زوجها مسيو بواسون الى النفى فتخلصت بذلك من حياة الكفاف والعوز ، وفتحت الطفلة عينيها لترى أمها محظية لرجل لا تحمل اسمه ولكنها لا تعف عن أن تنتسب إليه ، بل تكن

له شيئا من الوفاء إذ جعل من نفسه وصيا على الطفلة الجميلة ذات الخدود الوردية والشعر الذهبى الكثيف ، فأغدق عليها من ماله وأحاطها بمظاهر الرفاهية وألوان البهرج ، ولعله قد نفذ ببصيرته الى قرارة نفس الأم وهى ترقب جمال طفلتها يتفتح فى براعمه يوما بعد يوم ، وأحس بما يعتلج فى نفس هذه المرأة من رغبة فى أن تجدد شبابها فى شباب ابنتها ، وأن تغزو بهذا الجمال ميادين أخرى غير التى غزتها بين طبقات البرجوازية ، إذ ما أكثر الفاتنات اللاتى فتحت لهن فرساى أبوابها واستولين على قلب الملك ، فرأى مسيو تورنهيم أن يصقل هذا الجمال الموعود بالرعاية ، وهو بحكم مهنته صيرفى تعود رنين الذهب الخالص وبريق الأحجار الكريمة التى يزيدها الصقل صفاء واغراء ، لهذا يسر لانطوانيت الصغيرة سبل التعليم وكان التعليم بعيد المنال فى ذلك العصر عن أبناء الطبقات الوسطى والدنيا ، ولكنه تعليم تحددت أهدافه ومراميه بالقدر الذى يجعل من صبية اليوم امرأة مكتملة الأنوثة متسلحة بشتى وسائل الإغراء ، ولا حرج مادامت من الفنون التى أقرها المجتمع واعترف بها العرف الشائع ، ولم يكن فى هذه التقاليد مع شذوذها ما يجافى الذوق أو الأخلاق العامة فى باريس فى ذلك العصر .

وهكذا نشأت انطوانيت بواسون لتكون محظية تستهوى عقول

الرجال وتستلب عقل الملك بصفة خاصة ، بل أنها ما كانت تجهل هذه الأمنية ، إذ كان خليل أمها يدللها ويدعوها بالأميرة الصغيرة، وكانت أمها توسوس لها في أذنها وتملأ صدرها الصغير بالأحلام الذهبية ، وهى تجدل ضفائرها وتحزم خصرها ليزداد نحولا ، وتختار لها من الثياب ما يبرز انوثتها ، فتبدو الطفلة كأنها امرأة صغيرة أو دمية كبيرة .

وفى ذات يوم وفدت على البيت امرأة تدعى العرافة وكانت انطوانيت على عادتها من المرح ، وقد ارتدت ثوباً فضفاضا ، انذيل من المخمل الأحمر نسج بأسلاك ذهبية وصففت شعرها على هيئة تاج محلى بالزهور الصغيرة ، وراحت تتكسر فى مشيتها كأنها غانية ، وتبعتها العرافة بعين خبيرة وابتسمت لها وربتت على كتفها وتنبأت لانطوانيت – كانت فى التاسعة من عمرها – بأنها سوف تكون عشيقة الملك !!، ولعل كل فتاة مثل هذه الفتاة كانت تطمح فى أن تكون من محظيات القصر فلم تكن هذه نبوءة بالمعنى الصحيح .

راحت الفتاة تطوى مدارج الصبا وأحاط بها المعجبون من الفتيات ممن كانوا أوفر سنا منها ، إذ كانت تنفر من صحبة الفتيات من أندادها وتأنف من ألعاب الصغار ، وكان هؤلاء الفتيان يسترضونها بالهدايا والملق فتستجيب لهم ولا تنفرهم

منها، فلم تكن طفولة انطوانيت بريئة ساذجة ، ولم تكد تتفتح أنوثتها حتى وجدت حولها حاشية من العشاق كل واحد منهم يجذبها الى ناحيته ، ويريدها لنفسه خليلة أو زوجة ، وكان لابد أن تنتهي الجولة الأولى من حياتها بخاتمة ترضى عنها الأم على الأقل ويوافق عليها وصيها ، وإن لم تحقق طموح انطوانيت التى بلغت من عمرها عشرين ربيعا ، لهذا قبلت يد المسيو «دتوال» وهو شاب من أصحاب المال يمت بصلة الى المسيو تورنهيم خليل أمها ، وكان من المقطوع به أن هذا القران كان زواج ضرورة ، فهو وإن لم يرض مطامع انطوانيت فإنه على الأقل رفع مدام دتوال الى طبقة البرجوازية وفتح لها أبواب صالونات باريس ، فضلا عن أن ثراء زوجها قد منحها الكثير من مطالب الرفاهية التى تنشدها وإن كان لا يقاس بحياة البذخ والاسراف التى كان يعيشها النبلاء والامراء ، فما بالنا بالملك نفسه الذي وصل فى اسرافه الى حد السفه .

كان لويس ولا أحد سواه ضالة مدام دتوال وهدفها الذى تنشده وهى واثقة من أن هذه القلعة لن تصمد طويلا أمام فتنتها وإغرائها !!، ألم يكن يدعونها «أكثر الباريسيات باريسية» ! فتبتهج بهذا الوصف ويملأ صدرها زهوا . كان عليها إذن أن تسعى لتلتقى بالملك ولو للحظات قصار ، وهى كفيلة بأن توقعه فى

شباكها ، وطفقت انطوانيت تطارد الملك فى كل مكان يتردد عليه دون أن تسنح لها مناسبة كما تشتهى ، وظلت هذه المطاردة ثلاث سنوات ، حتى تهادت لها أخيرا هذه الفرصة في ذات ليلة من ليالى شتاء عام ١٧٤٥ عندما أقامت بلدية باريس حفلة تنكرية راقصة ابتهاجا بزواج ولى العهد ، وأقبل الملك من ناحية . واقبلت مدام دتوال من ناحية أخرى ، أقبلت ساحرة فاتنة كأنها سندريللا، أقبلت للغزو والفتح والسلب ..

وسقط الفأر فى المصيدة !!

كان طفلا فى الخامسة من عمره ، عندما جلس لويس على العرش فى المكان الذى خلا من جده لويس الرابع عشر الذى كان يقول : «أنا الدولة والدولة أنا» فاستلب الأوصياء سلطان الطفل، والتف الباحثون عن الجاه والنفوذ حول الدوق أرليان ثم حول خلفه الدوق بوربون ، وأقفرت قاعات فرساى وخفتت أضواؤها ، وانقطع الهمس بين الحاشية إذ لم يعد القصر مكانا للمؤامرات والدسائس والفضائح التى يعيش عليها خدم القصور ، والملك الطفل يدرج بخطى وئيدة ، ولا يعرف حتى أكثر الناس تفاؤلا عما إذا كان يقدر لهذا الصبى الهزيل أن يجلس على عرش لويس الرابع عشر، وامتدت أيام الصبى الهزيل ، وجلس على عرش فرنسا فى سن الثالثة عشرة ، وبعد عامين أصبح لويس زوجا ! .

لقد كان الوصى الدوق بوربون يحكم فرنسا ومن وراءه عشيقته المركيزة «دبرى» ، وقد رأت هذه المرأة أن تختار للملك الصبى زوجة لا تسلبها السلطان الذى تتمتع به باسم زوجها الدوق ، فوجدت فى «ماريا لرينسكا» ابنة ملك بولندا المطرود المراد التى إذا ما قدر لها وأصبحت ملكة فرنسا ستكون وفية للذين رفعوها إلى هذه المنزلة ، لقد كانت هذه الأميرة البولندية أكبر من الملك سنا ، وإن لم تكن دميمة الخلقة فكانت على الأقل فاترة جامدة العاطفة منطوية على نفسها .

وكان لويس فى شبابه الأول بليد الحس فاتر العزيمة خائر النفس فارغ الرأس ، وإذا كان قد تعلق بما يبدو أنه فضيلة من الفضائل فذلك لأنه كان فى خوف دائم من عقاب جهنم ذلك الخوف الذى قر فى نفسه بفضل تعاليم مرشده الاسقف فليرى الذى أصبح بعد ذلك وزيره الأول ، فلم يكن لويس رجلا فاضلا بل كانت فضيلته جبنا ، وإن كان حتى ذلك الحين وفيا لزوجته التى أنجبت له ولدين وعددا من البنات فان وفاءه كان ضعفا وعجزاً .

ولم تكن الحاشية لترضى بهذه الحياة الفاترة التى كان يسبح فيها القصر ، ولم تكن سياسة التقشف التى فرضها الكاردينال فليرى لتقهر روح البذخ التى تعود النبلاء ومن لاذ بهم من طفيليات

القصور ، والتى لا تنتعش إلا إذا كان الملك نفسه يحميها ويرعاها كما كانت تجرى الحياة فى فرساى عندما كانت عشيقات الملك يحكمن باسم الملك ، وكانت الدسائس تشغل بال الحاشية، والفضائح وأخبار المغامرات الليلية تصرف الأذهان عن الأحداث الكبرى التى تمر بها البلاد ، فإن ملكا بليد العاطفة وقصرا خلا من الدسائس ليس فردوسا ينشده الانتهازيون والمغامرون ، فكان لابد أن يفعل خدم القصر شيئا ! .

وهكذا أخذت عاصفة خفية تتجمع شيئا فشيئا فوق فرساى لتوقظ الملك الغافى ، فدار الهمس خلف الأبواب ونسجت خيوط مؤامرة كان رأسها الدوق ريشيليو لكى تخرج لويس من القوقعة التى كان يعيش فيها ، ونجحت المؤامرة مرحلة بعد مرحلة ، فأقبل الملك أولا على الطعام حتى أصبح نهما أكولا ، ثم تذوق النبيذ حتى افرط فى الشراب ، وتعود الخروج الى الصيد والقنص ، وأخذت غرائزه الحيوانية تتفتح باحثة عن آفاق جديدة من المتع واللذائذ حتى استسلم فى النهاية الى مروضيه ، ولم يقعده وازع من كرامة عن المغامرات الجريئة سوى ذلك الخوف القديم الذى عشش فى قرارة نفسه والجبن الذى قر فى طبيعته ، وقبل أن يفيق الى نفسه ويستبد به الندم فيسرع الى غرفته باكيا منتحبا كما كانت عادته ، كانت المصيدة قد أعدت له ، إذ غامر أحد خدم

القصر فألقى بين ذراعى سيده بفتاة جميلة من الوصيفات تدعى مدام «مايلى» فسقط الفأر فى المصيدة .

أين كان الكاردينال فليرى وصيه الروحى ؟ وأين كانت الملكة ؟ قيل إن الكاردينال الذى أصبح لا تشغل باله سوى أمور السياسة والمال قد اغمض عينيه وأدعى أنه لم ير شيئا ، بل قيل أن يدا كانت له فى هذه المؤامرة ! اما الملكة فقد رأت كل شىء واعترفت بواقع الأمر بل أنها اعتبرت هذا الواقع تطورا طبيعيا لشخصية لويس ! أى أنها قد اعترفت بفشلها كأنثى فى ارضاء نزوات هذا الشاب الذى بدأت حيوانيته تتفتح وتبحث عما يشبع نهمها .

إن رجلا مثل لويس فى الخامسة والعشرين من عمره فارغ العقل يقضى يومه فى التثاؤب لفى حاجة الى ما يبدد سأمه ، ولم تكن الملكة التى نامت غرائزها النسوية ، والتى كانت تكبر زوجها فى السن بالمرأة التى تملأ فراغ هذا الرجل البارد القلب الثائر الدم .

وهكذا أصبحت مدام مايلى العشيقة الرسمية للملك ، الذى وكأنه اكتشف نفسه فجأة انطلق يعدو فى هذا الميدان الجديد بأسرع مما كان يقدر له مروضوه ! .

وكما أن لويس لم يعد وفيا لزوجته فانه لم يعد وفيا لعشيقته ، بل سرعان ما هبط بالمثل الاخلاقية حتى فى غرامياته الى القاع!

كانت مدام دى مايلى الأخت الكبرى لخمس فتيات من أسرة تدعى «نسلى» اشتهرت بالجمال والذكاء ، وبعد أن استوت مدام مايلى فى مكانها بعض الوقت وخشيت غدر الملك بها أرسلت تستدعى اختها الثانية وكانت نزيلة بأحد الأديرة وقدمتها بنفسها الى الملك لكى تحتل المكانة التى خافت ان تفقدها وتسلبها إياها امرأة غريبة عنها ، واختها أقدر منها على اصطناع النفوذ السياسى التقليدى لعشيقات الملك وهو دور لم تجد مدام مايلى فى نفسها الكفاءة اللازمة للقيام به ، وقد نجحت الأخت فى مهمتها واستولت بالفعل على قلب الملك ، ولكنها كانت من الوفاء لاختها بحيث أنها لم تعمد الى إبعادها من القصر ، بل رضيت بأن تشاركها فى قلب الملك وجسمه ! ولما أحست بالحمل عمل الملك على تزويجها زواجا صوريا الى المركيز فانتميل أحد أحفاد كبير أساقفة باريس! كما تزوجت الأخت الثالثة لمدام مايلى الى الدوق لو راجيز وانضمت الى شقيقتيها فى قصر فرساى للترويح عن هذا الملك ، الذي يبدو أنه لم يكن يستمرىء هذه المتع الجنسية إلا بغمسها فى الدنس .

وبينما كان الشعب يرزح تحت الضرائب الجائرة التي امتصت دمه كان الملك وحاشيته يعيش حياة بذخ واسراف واستهتار دون اعتبار لتقاليد أو عرف ، وكان النبلاء من حوله يتنافسون فى ألوان

من الاباحية الصارخة ، وتدرج الملك فى غرامياته الى اقتناص عشيقاته من بين الطبقات الشعبية مما أثار ثائرة النبلاء لا حرصا على الأخلاق ، بل دفاعا عن طبقتهم التى كانت حتى ذلك الحين وقفا على الملك فى اختيار محظياته ! وتصارع الآباء فى سبيل النفوذ والسلطان عن طريق بناتهم بعد أن منح لويس خليلته مدام مايلى لقب «دوقة شاتورو» وأصبحت الحاكمة بأمرها باسم الملك !.

أرادت الدوقة شاتورو أن تحتذى سيرة «أن سوريل» عشيقة الملك شارل السابع فحفزت الملك المتثائب على أن يلحق بجيوشه المحاربة فى الفلاندرز كى يستثير حماستها بوجوده ، ويكسب لنفسه نصراً قوميا ، فسافر الملك ولحقت به الدوقة فى حاشية كأنها ملكة متوجة تستقبل في كل بلدة تمر بها استقبالا حماسيا من الشعب ! .

ولكن ما أسرع أن ارتد الملك متقهقراً الى مدينة متز بعد أن منيت جيوشه بالهزيمة ، وهناك أصيب بالحمى ولعل المرض قد أيقظ فى نفسه روح الندم لاستهتاره ومباذله فلم يجد تكفيرا لذنوبه إلا أن يصيب جام غضبه على عشيقته التى كانت تعنى به حول سرير مرضه ، فتعمد اهانتها وأمر باقصائها على الفور ، وكانت لهذه الثورة الروحية اثرها فى الشعب الذي هزته توبة مليكه فركع يصلى داعيا للويس بالشفاء .. وعاد لويس إلى

باريس، فكان أول أمر أصدره أن اعاد الدوقة شاتورو الى القصر وأمر بنفى جميع من توسم فيهم العداوة لها ، ولكن انتصارها كان قصير العمر إذ أن الموت عالج الدوقة شاتورو على الأثر وهى بعد فى العشرين من عمرها .

المركيزة دي بومبادور

كان مسيو «دتوال» يحب زوجته حبا جارفا ، ولكنها كانت تقابل عواطفه بفتور وتحفظ ، والحقيقة أن مسيو دتوال لم يكن فارس أحلامها الذى تعشقه امرأة مثل انطوانيت بواسون ، إذ كان هضيم الجسم تعوزه سماحة الوجه كما تعوزه اللباقة وأصول الاتيكيت التى تستهوى امرأة مثل زوجته تعتبر نفسها باريسية أكثر من الباريسيات ، ومع ذلك فكانت من الذوق بحيث أنها لم تكن تبدى نفورا من رجل رفعها إلى مرتبة البرجوازية ، وكانت صالونات قصره بالقرب من غابة سينار ملتقى الطبقات الراقية ، وهكذا اتصلت انطوانيت بالمجتمع الباريسى الذي كان تطمع دائما فى الامتزاج به ، وأهم من هذا كله أن الملك كان يتردد على غابة سينار للصيد والقنص فلم تعد انطوانيت فى حاجة الى افتعال الفرص للقاء الملك الذى كان يمر أمام عتبة بابها تتبعه حاشيته الكثيرة من رجال ونساء ، وكادت تنجح ذات مرة فى لفت أنظار الملك اليها إذ خرجت تقود عربتها وقد ارتدت ثوبا

ورديا وتزينت بطريقة مثيرة خلابة وتعمدت أن تعترض طريق الملك، ولكن مدام شاتورو وكانت متيقظة لها وأحست بالحيلة فأسرعت إلى إبعاد لويس عن طريقها حتى لا تلتقى عينه بها .

والآن وقد خلا مكان الدوقة شاتورو لم تتردد انطوانيت لحظة فى أن تملأ هذا الفراغ ، ونجحت أولا فى أن تجعل الملك يعترف بوجودها ، لم يثبط لويس محاولتها للتقرب اليه ، فدرج على أن يرسل إليها بعض الصيد الملكى الذى جرت التقاليد على أن يوزعه الملك على خاصته والمقربين إليه ، ثم انقضى شهران على وفاة الدوقة شاتورو وبدأت شهية لويس تتفتح لصيد جديد .

وفى ليلة من ليالى فبراير عام ١٧٤٥ أقامت بلدية باريس حفلة تنكرية راقصة بمناسبة زواج ولى العهد بأميرة اسبانية ، واعتزمت انطوانيت علي أن تجعل هذه الليلة معركتها الفاصلة فجاءت الى الحفل فى باهر زينتها ، وأخذت تتحرش بالملك ، حتى إذا اطمأنت الى انه يتبعها بناظريه شقت حلبة الرقص حتى إذا كانت أمام لويس تعمدت إسقاط منديلها عند قدميه ، فما كان من لويس الا أن انحنى والتقط المنديل وقدمه إلى صاحبته كما كان يفعل فرسان القرون الوسطى ! وما كاد يفعل حتى سرى الهمس بأن عشيقة جديدة فى طريقها الى قصر فرساى .

كانت الحاشية أسرع من الملك فى تنفيذ رغبته !، واضطلع

بهذه المهمة أحد أفراد الحاشية ويدعى «بينيه» الذى جعل من ابيه وسيطا بين انطوانيت وسيده ، ولم يكن الأمر يحتاج الى وساطة أحد بل الى تدبير وتنفيذ ، فقد أصبح معروفا منذ تلك الليلة أن مدام دتوال أصبحت خليلة الملك ، ولم تمض أيام حتى شوهدت في طريقها الى فرساى وكان الملك فى انتظارها ، ثم شوهدت مرة ثانية وثالثة ، وبدأ الحرس يألفون رؤية عربتها المقفلة ، ثم انقطعت زيارتها فجأة ، فدار الهمس بأن الملك الذي لم يخلص للدوقة شاتورو قد فترت علاقته سريعا بمدام دتوال ، ولكن الحقيقة أن لويس أصبح أشد كلفا بهذه المرأة التي أعدت نفسها فى إصرار عجيب لكى تكون عشيقة له ، فليس من الهين ان تتخلى عن مكانها على هذا النحو ، ولعلها أرادت أن تجعل من غرام الملك بها فضيحة تتناقلها صالونات باريس ، فشجعت لويس ومن وراءها أمها علي أن يسعى إليها هو ، وفى هذا إرضاء لغرورها ، ولم يقاوم الملك هذا الاغراء ، بل لعله اراد أن يمتحن جرأته وأن يجرب شجاعته فى مغامرة غرامية ، والحقيقة أن لويس بدأ يتخلى نهائيا عما تقضى به تقاليد القصر ، وأصبح لا يهاب العيون المطلعة اليه، ولا همس الهامسين وراء ظهره ، ولم تكن هذه شجاعة منه بل رجوع الى بلادته القديمة .

وفى ذات مساء خرج الملك فى عربة مقفلة اتجهت الى باريس

وانتهت الى منزل فى شارع «بوترانفانت» يقابل قصر الوزارة ، ولم يكن رجال البوليس يجهلون ما يجرى حولهم ، إذ أن مدير الشرطة كان على علم بتنقلات الملك ، وهكذا نقل لويس مسرح غرامياته من القصر الي الشارع . نزل بينيه من العربة وطرق باب منزله ، ثم تبعه الملك ، الذي استقبلته مدام بواسون بتقبيل يديه الكريمتين ، وهى التي جعلت من بيتها عشا لغرام الملك ، وعلى درج السلم وقفت ابنتها وقد مدت ذراعيها لتقود لويس الى مخدعها الذي فاضت منه رائحة العطر ، وجلست الأم تتحدث إلى الخادم بينيه وهى جد فخورة بما قدمه من يد في تدبير هذه المؤامرة الخسيسة ، بينما كان الملك مع ابنتها - وفى غفلة من زوجها - في خلوة داعرة ! وتكررت زيارة الملك الي منزل مدام بواسون ثم انقطعت ، ولعل لويس قد تحركت في نفسه روح الشهامة أو الكرامة ، أو لعله قد أرضى نزواته ، فأراد أن تنتهى مغامرته عند هذا الحد ، ولكن انطوانيت ماكان لها أن تقف في منتصف الطريف فأنها لم تحقق بعد امنيتها التى عاشت لها خمسة عشر عاما ، فكان لابد لها وأن تفعل شيئا حاسماً متذرعة بكل ما فى طوقها من إغراء وما فى نفسها من أنانية ومن قحة ومافى قدرتها من مهارة في نصب الشباك ومن خلفها أم نبذت كل حياء أو خجل ، فسارت انطوانيت للقاء الملك فى القصر نفسه .

عندما علم لويس بأن مدام دتوال في فرساى وأنها تصر على مقابلته لم تثر في نفسه هذه المفاجأة عجبا لأن طبيعته الباردة جعلته يأخذ الأمور ببلادة واسترخاء ، لقد جاءت هذه المرأة بقدميها إلى فرساى لتضرب ضربتها النهائية وقد أعدت كل شيء ودبرت كل شيء ، إنها فى فرساى التى اتسعت من قبلها لمدام مانيتيون والدوقة شاتورو فهى لن تضيق بها ، وهى كذلك لا يصدها صاد عن غايتها ولا تلقى سلاحها فى سهولة ويسر .

فلما دخلت انطوانيت علي الملك ألقت بنفسها على الأرض وتعلقت بقدميه وقد سبحت فى دموعها ! أنها قد جاءت تستجير به وتطلب الحماية من زوجها الذى علم بخيانتها واعتزم قتلها ، انها ضحية غواية الملك ومن الشهامة أن ينتصر لها الملك وأن يفرض عليها حمايته .. لقد كانت بارعة فى تمثيلها ، بارعة فى تصوير عواطفها ، بارعة فى ايقاظ اعتزاز الملك بقوته ولا نقول ايقاظ شهامته ونخوته ، لقد لعبت دورها في براعة وثقة ، وهكذا وقع لويس في الفخ الذي نصبته له ، فأمر علي الفور بأن تبقى مدام دتوال فى القصر وأن يخصص لها مكان تلزمه بعيداً عن العيون!

وفى مساء اليوم نفسه ، الثانى والعشرين من ابريل عام ١٧٤٥ كانت مدام دتوال تتناول طعام العشاء في احدى قاعات

قصر فرساى بين الدوق ريشيليون والدوق لوكسمبرج ، وفى صباح اليوم التالى اخلى لها المخدع الذى كان لعشيقة الملك السابقة الدوقة شاتورو !

كان لويس على أهبة السفر للحاق بجيوشه المحاربة علي حدود فرنسا الشرقية ، فلم تقف مدام دتوال في طريق ما اعتزم عليه وكان في مقدورها أن تفعل حتى لا يتركها لويس فى القصر وهى بعد لم تثبت أقدامها ولم يعترف بها عشيقة رسمية ! فسافر الملك وفى صحبة ولى العهد ، وجاءت المعركة الفاصلة عند فونتنوى التى انتصرت فيها فرنسا ولكن بعد أن بذلت دماء آلاف من رجالها ، بيد أن الشعب الذي كان يبحث عن النصر مهما كلفه الثمن اهتز زهواً لهذا الانتصار والتف حول الملك الذي كأنه كسب هذه المعركة لنفسه ، وفي حومة هذا الحماس عاد لويس الي باريس والى قصر فرساى وكانت مدام دتوال في انتظاره ، ومنذ هذه الساعة اصبح معروفا أن هذه المرأة قد أصبحت عشيقة الملك الرسمية ، وفى حفلة الاستقبال الكبري التى اقيمت فى القصر بهذه المناسبة وحضرتها الملكة وولى العهد والامراء وكبار رجال الدولة قدمت رسميا الي الملك مدام دتوال فتفضل جلالته ومنحها لقب مركيزة بومبادور ، ومنذ هذه اللحظة اختفى اسم مدام دتوال من كتب التاريخ والأدب فلم نعد نسمع إلا عن «المركيزة دى بومبادور» أو

عن «مدام لامركيز» كما أصبح اسمها يتردد فى أغانى ذلك العهد..

لم تكن عشيقة الملك بعد أن اعترف المجتمع الفرنسى بها ومنحها الملك لقب المريكزة بالمرأة التى تدخل القصر من بابه الخلفى أو من وراء ستار ، بل اصبحت السيدة الثانية فى القصر بل السيدة الأولى ، فإن الملكة تخلت لها عن مكانها الطبيعى ، وأصبحت هذه المرأة تحيط نفسها بجميع المظاهر والمراسيم التى تحاط بها الملكة المتوجة ، بل تعينت لها وصيفة من اميرات الأسرة المالكة هى الأميرة كونتى ، وأصبح لها جناح فى القصر له من الخدم والاتباع ما للملكة نفسها ..

حرب مع الملل !

كانت مدام هوسيه خادمتها الخاصة تدون يومياتها وتضمنها الكثير من الملاحظات الصغيرة عن شخصية سيدتها ، كانت تقول أن مدام بومبادور مع صلابة ارادتها سيدة شديدة القلق تفزع من كل ريح تهب وتتصور الدسائس تحاك لها فى الظلام ، كان لابد لها من أن تنام مفتوحة العينين ، لهذا كان الرجل الثانى الذى يجب أن تشترى صداقته قومسير البوليس الذى بث عيونه وارصاده فى كل مكان لكى يتسقطوا لها الأخبار من الصالونات والشوارع ومن دواوين الحكومة ، بل لم تكن هناك من فضيحة

غرامية أو مغامرة ليلية الا وتصل أخبارها الى مدام بومبادور ، بل أن عيونها وجواسيسها كانت تترصد سفراء الدولة الرسميين في خارج فرنسا .

أما لويس فكان غارقا في طوفان من المتع التى كانت مدام بومبادور بارعة فى ابتكارها ، لم يكن جمالها نادر المثال فحسب بل كانت حيويتها الفياضة وجاذبيتها الحيوانية ، كفيلة باشباع نهمه الجنسى ، وكانت اناقتها وافتنانها في ثيابها وفي زينتها تسحران عين الملك فتبدو وكأنها عروس دائمة ، وكانت تصفف شعرها على طريقة الملكات وتحافظ على زينتها اليوم كله ، وكانت تهوى العطور القوية النفاذة التى تتضوع منها كأنها أميرة من الشرق ، وهكذا أصبحت مدام بومبادور بحق أكثر الباريسيات باريسية ، بل تركت وراءها للأجيال تراثا فى عالم الأزياء ينسب اليها ويعرف باسمها ، وفتح لها الملك خزائنه فراحت تغرف منها بلا حساب ولا رقيب عليها .

أصبح لويس اسير هذه المرأة التى ملأت كل فراغ حياته وجعلت نفسها وصية عليه ومنفذة لرغباته ومسحت من جبينه ذلك الملل الذى كان يسيطر عليه من شروق الشمس الى مغيبها فلم تكن تدعه لحظة لينطوى على نفسه أي يتثاءب ، فتعاونت طبيعتها مع تعليمها فى ابتكار شتى وسائل التسلية والاغراء ، كانت تجيد

التمثيل والغناء والرقص ورواية النوادر والفضائح كأنها شهرزاد جديدة ، وكانت إذا أحست الضجر يتسرب الى نفسه تغريه على الانتقال من مكان الى مكان وهى فى صحبته تدبر كل شىء ، وتتبعهما حاشية كبيرة دون اعتبار للنفقات الباهظة التي كانت تتكبدها هذه الرحلات الملكية الدائمة .

ثم ابتكرت مدام بومبادور طريقة جديدة لشغل فراغ الملك وحاشيته، بأن أقامت مسرحاً فى القصر كان رجال الحاشية والوصيفات المثلين والممثلات فى المسرحيات التى كانت تعرض على خشبته، والتى كانت الدوقة تغرى الأدباء على تأليفها، وكانت هى تقوم بالدور الرئيسى فى هذه المسرحيات وكانت تختار شخصية البطلة اختيارا يتناسب معها، وكان الملك يبتهج عندما يرى عشيقته فى دور أفروديت أو ڤينوس إله الحب ، ولم يكن يسمح بحضور هذه المسرحيات أو مشاهد الباليه التى تعرض على هذا المسرح سوى لطائفة خاصة من المقربين .

لقد كانت مدام بومبادور فى حرب مع الملل الذى تخاف أبدا أن يتسرب الى قلب الملك فيزهد فى قربها، فرأت أن تنقل لويس من قصر فرساى بقاعاته الرحبة الفسيحة وحفلاته الرسمية وتقاليده الملكية التى كثيرا ما يتبرم بها الى حيث تكون أقرب اليه، ويكون فيها حرا طليقا من مراسيم القصر، فبدأت فى بناء عدد

من القصور الصغيرة فى كثير من أنحاء فرنسا، لقد كان غرام هذه المرأة بالعمارة لا يقل عن حبها للازياء الفاخرة، فجمعت حولها أشهر مهندسى ذلك العهد وأشهر الفنانين والمصورين والمزخرفين وصانعى الاثاث، وكانت تفرض عليهم ذوقها الخاص الذى لم يكن يرقى الى مرتبة الفن الحقيقى، إلا أنه كان يمثل طبيعتها النسوية المحبة لكل ما هو زاه متألق مبهرج مبتكر مما ليس له شبيه فى قصور الملك ، لقد أنفقت ملايين الجنيهات فى بناء وتجميل قصر التريانون، وقصر شواذى، وكريسى، ومنترو، ولاسل، وفونتمليه ، واولنى ، وسان ريمى ، وبلفيه ...

وعند إفتتاح قصر بلفيه عام ١٧٥٠ أعدت مدام بومبادورو هدية لكل ضيف من ضيوفها وضيوف الملك هى ثوب من قماش نادر قرمزى اللون مبرقش بأسلاك الذهب تكلف الثوب الواحد منه مائة وألفا من الجنيهات الفرنسية، ولم تكن مدام بومبادور تكتفى بالهدايا الفاخرة تقدمها للانصار والاتباع ولشراء الاصدقاء بل كانت تنفق المال جزافا وتمنح الصلات والهبات الطائلة بلا تقدير حتى قيل إنها كانت تلقى بالمال من النافذة دون ان تعده ، ولم تكن مدام بومبادور تكتفى بالجديد من القصور والاثاث فحسب ، بل كان همها أن تفاجئ الملك فى كل مرة يزور فيها قصرا من هذه القصور الخاصة بشئ جديد مبتكر فكانت تعيد زخرفته فى كل

مرة وتجدد اثاثه وتقتنى فيه نادر التحف ، وكان الملك يعجب بكل هذا ويزداد تعلقه بها .

★★★

أين كانت الملكة ؟ وأين كان ولى العهد والاميرات؟ بينما اطلقت يد مدام بومبادور فى كل شئ من شئون الملك الخاصة وشئون الدولة العامة ؟ لقد كانوا جميعا فى فرساى يشاهدون فصول هذه المسرحية دون أن يفعل واحد منهم شيئا، بل دون ان تتكتل العناصر المعادية للدوقة فى شبه حزب من أحزاب المعارضة ، إذ أن بومبادور جمعت حولها الاتباع والحاشية وقربت اليها كل صاحب نفوذ ، بل كانت تعين الوزراء القواد من خاصتها دون اعتبار لكفاءة سوى الولاء لها، لقد أصبحت الملكه كما مهملا فى القصر، وانطوت على نفسها أكثر من ذى قبل، ولكن المركيزة كانت تبدى لها الاحترام الواجب لمقامها فلم تثر بذلك حفيظتها، ولكنها لما لم تستطع ان تكسب صداقة ولى العهد عمدت إلى التشهير بسلوكه الشاذ، اما الاميرات اللاتى كن يتعلمن فى دير «فونتفرولت» فكن اذا ما عدن إلى فرساى عشن فى شبه صومعة بعيدا عن أضواء القصر، وكانت مدام بومبادور تعاملهن كاطفال فاذا بدر منهن ما يدل على عدم الرضا اسرعت وقدمت إليهم بعض الهدايا الصغيرة ، لقد علمتهن ان يحترمنها على انها ضيفة

ابيهن . ولقد كانت النزعة الدينية متسلطة على الأسرة المالكة ، بينما كان الملك نفسه يعيش حياة داعرة لا ضابط لها، حتى ان الدوق اورليان أكبر الأمراء سنا نزع فى أخريات أيامه الى التنسك فالتجأ إلى ديرسنت جنفييف حيث توفر على تأليف بعض الكتب الدينية قبل وفاته، وهكذا كان الشئ ونقيضه يعيشان معا فى قصر فرساى !.

عواصف !!

كانت مدام بومبادور ممثلة بالسليقة و التعليم ، وكانت تقوم بدورها كممثلة ، فهى لم تكن تجهل أن لها أعداء، وأن الشعب يحتقرها، وان الخاصة تمقتها، فهى مهما صنعت لكسب الانصار والاتباع فلن يتملكها الغرور بحيث تتكرامام نفسها بأنها ليست الا عشيقة ومحظية للملك، وكانت هذه الفكرة لا تبرح خيالها، وجعلتها دائمة القلق مع كل مظاهر الفرح التى كانت تحيط نفسها بها، وعندما بدأت تنتشر فى فرنسا بعض الاغانى التى تسخر منها ضاقت بها، وعندما تسربت هذه الاغانى الشعبية إلى باريس أصبحت المركيزة عصبية المزاج فرصدت العيون للبحث عن مؤلفى هذه الأغانى التى صورت مدام بومبادور فى صورة امرأة وضيعة الأصل تحاول ان تحتفظ بنفوذها مهما كلفها الثمن ثم تعرضت هذه الأغانى للملك نفسه! ، فأثارت الدهشة أولا لأن

الجماهير لم تكن تألف حتى هذا التاريخ التعريض بصاحب التاج مهما كانت أخطاؤه، ولكن عندما تضاعفت هذه الأخطاء وبدأ الشعب يحس بوطأة الفقر بسبب إسراف الملك وعشيقته ، فقد لويس عطف الجماهير، وقابل الملك وعشيقته هذه الحملة بالشدة فامتلأت السجون بمن حامت حولهم الشبهات بتأليف هذه الأغانى أو اتهموا بترديدها أو قراءتها أو نشرها، والتى تتعرض لحياة الملك الخاصة أو لمدام بومبادور أو لرجال الحاشية الذين انغمسوا بدورهم في أحط أنواع الرذائل، فكان المارشال ساكس يتعقب كل منافس له فى غرامياته بأقصى أنواع الانتقام، ولم تنج ممثلته التى حاولت الافلات من يده من إلقاء القبض عليها، بل إن السجن قد أمتد الى الكاتب «مارمونتل» الذى عرف بولائه للمركيزة لانه نظم بضعة أبيات من الشعر تعرض فيها للدوق أومام، وكان نصيب الكونت «مورباس» وزير البحرية الطرد من وظيفته لأنه اتهم بنظم أبيات من الشعر دسها تحت طبق المركيزة على مائدة الطعام، حدث كل هذا بينما لم تدخر مدام بومبادور وسعا فى إرضاء كبار الادباء فقربت اليها فولتير ومونتسكيو بل وضعت مؤلفى الانسكلوبيديا الفرنسية الاولى تحت رعايتها .

لقد كان من السهل ان تستثار خواطر الجماهير ضد مدام بومبادور ببث الشائعات الكاذبة التى لا يقبلها المنطق السليم ،

فقد حدث فى عام ١٧٥٠ أن أصدرت الأوامر الى البوليس بجمع الأطفال المشردين من شوارع باريس لإرسالهم الى المستعمرات الفرنسية الجديدة بأمريكا الشمالية ، وقد استغل البوليس هذه الأوامر فألقى القبض على جميع الصغار الذين التقى بهم فى الشوارع أو الحدائق العامة دون تمييز ، وذلك لكى يطالب الأثرياء من الأبناء بدفع دية مناسبة لرد أبنائهم ، كان هذا من فعل البوليس ولمنفعته الخاصة ، ولكن الشائعات انتشرت فى ذلك الحين بين الجماهير بأن هؤلاء الصغار يجمعون ويذبحون لاعداد حمام من دمائهم يسبح فيه الملك العربيد ليعيد إليه شبابه !! ، ومع سخافة هذا الزعم ، ومع أن الدوقة لم يكن لها صلة مباشرة به فإنها لم تسلم من سخط الجماهير .

ووقفت مدام بومبادور أمام العاصفة مرة أخرى عندما حاول معتوه الاعتداء على حياة الملك فى شهر يناير من عام ١٧٥٧ وسرت الشائعة بأن خنجر المعتدى كان مسموما ، وأن حياة لويس أصبحت في خطر ، عند ذلك ارتفعت رؤوس المناهضين لنفوذ الدوقة ، وعملوا على إثارة حفيظة الملك الذى تملكه الوهم والخوف على حياته فأصدر أمره وهو على سرير مرضه - كما فعل من قبل بالدوقة شاتورو - باقصاء مدام بومبادور من القصر فوراً ، وكان من بين المتآمرين الوزير ماشو الذي رفعته الدوقة الى هذا

المنصب ، ولم يكد هذا الخبر ينتشر حتى انفرط عقد الاتباع من حولها وأقفر مخدعها من أصحاب الحاجات ، ولكنها صممت على ألا تطأطيء رأسها للعاصفة فلا تغادر القصر ولو اقتصر وجودها على أن تعمل وصيفة للملكة فحسب ، ولكن لويس ما أن اطمأن على حياته حتى أعاد الدوقة إلى سابق مكانتها وأمر بنفى المتآمرين ضدها بمن فيهم الوزير ماشو .

بومبادور فوق أوربا !

إن طموح مدام بومبادور لم يكن ليقف عند اسوار فرساى أو حدود فرنسا ، فالسياسة فى نظرها ليست الا ميدانا من ميادين اصطناع نفوذ يرضى غرورها ، فهى وقد سيطرت على الملك أصبحت قادرة على توجيه سياسة الدولة إذا كان فى هذا التدخل ما يحقق شهوة من شهوات الحكم والسلطان عندها ، لهذا لا غرابة إذا اشرأبت عنقها وإذا وضعت أنفها فى شئون الدولة الخارجية ، ولعل رجال السياسة أنفسهم قد وجدوا فى هذه المرأة شخصية لها وزنها واعتبارها فى توجيه سياسة فرنسا الخارجية فتقرب إليها سفراء الدول فى باريس وحاولوا كسب صداقتها بالمداهنة والرياء ، وكانت أوربا فى ذلك الحين ميدانا لمعركة كبرى بين بروسيا والنمسا ، وكان على عرش الأولى فردريك الأكبر وعلى عرش الثانية ماريا تريزا ، أما فردريك فكان أكبر شخصية

عسكرية فى عصره وكان فيلسوفا ساخرا كصديقه فولتير ، فلم يكن ينظر إلى مدام بومبادور نظرة كريمة بل كان يسخر من عبثها وصغائرها ويطلق عليها اسم «الفستان رقم واحد» فأثار بذلك ضغينتها ، أما الامبراطورة ماريا تريزا التى كانت تعتبر فردريك عدوها الأول لانتصاره عليها واقتطاعه جانبا من أراضيها فقد رأت فى مدام بومبادور ما يحقق رغبتها فى الانتقام من ملك بروسيا ، فأوفدت إليها وزيرها الأول الكونت كادنتز الذى كان فى ذلك الحين شاباً أنيقاً معسول اللسان ليعقد محالفة بين فرنسا والنمسا ، وهى محالفة ليس لفرنسا مصلحة فيها بل كانت ضد سياستها التقليدية ، ولم تكتف الامبراطورة بذلك بل كتبت رسالة بخط يديها إلى عشيقة لويس دعتها فيها «بالأخت العزيزة» وضمنتها كلمات المديح والاطراء ، فامتلأ رأس مدام بومبادور غروراً واعتبرت نفسها منذ تلك الساعات حليفة «لصديقتها» الامبراطورة ، ولم تجد المركيزة صعوبة فى موافقة لويس الذى أثارت كبرياءه وغروره ضد فردريك ، غزو الإنسان التافه ضد رجل عبقرى ، كما استثارت فيه الوازع الدينى المدفون فى قرارة نفسه إذ أدخلت فى روعه أنه بوقوفه أمام ملك بروتستنتى ملحد وفى تحالفه مع ملكة كاثوليكية إعلاء لشأن الكنيسة التى لها أن تمنحه الغفران لمعاصيه وخطاياه الشخصية !!، وهكذا

اكسبت مدام بومبادور المعركة التى خسرتها فرنسا فى ميدان القتال ! .

رياض الوعل !

كانت مدام بومبادور تعرف جد المعرفة أن الملك لن يكون وفيا لها ، لأن نهمه الجنسى لا يقنع بعشيقة واحدة مهما كانت فاتنة جميلة ، إذ أن هذا الرجل لا يرضى إلا أن يقطف لذاته حيث يجدها ، وكانت المركيزة وهى امرأة ناضجة الأنوثة ناضجة التجربة تعرف كذلك أن جمالها وفتنتها إلى ذبول عاجلاً أو آجلاً ، فعليها إذا أرادت الاحتفاظ بما لها من نفوذ على الملك أن تمد له فى حبال نزواته تحت رعايتها وملاحظتها ، نعم إن غيرتها كانت دائمة اليقظة خشية أن تتسلل امرأة أخرى الى فرساى وتستولى على مكانها ، بيد أنها كانت عظيمة الثقة بنفسها لا تخشى الأنثى التى قد ترضى نزوة طارئة من نزوات الملك ، ولكنها تخشى المرأة ذات الشخصية الطاغية التى قد تسيطر على هذا الرجل الفارغ العقل الفائر الدم ، فتفتق ذكاء مدام بومبادور عن ابتكار ألوان جديدة من المتع تغرق لويس فى طوفانها ، فأهدت اليه قصراً ريفياً - شيدته بأموال لويس - على طريق سان جرمان فى أطراف فرساى باسم «الارمتاج» أو الصومعة ، ولكنه لم يكن صومعة عابد بل عش غرام يتسلل إليه الملك بعيدا عن

أضواء القصر الكبير ، وكانت المركيزة لا تخشى خطراً فى أن تقدم بنفسها الى الملك الفتيات الجميلات وكان يعاونها فى هذه التجارة الآثمة المركيز «ليجاك» ، وهو رجل من ذى قرباها رفعته إلى مراتب الشرف ثم «لأبل» خادم الملك ، وقد نجحت التجربة .

وسرعان ما أقيمت فى أطراف حدائق فرساى الفسيحة بيوت من هذا النوع عرفت «برياض الوعل» لم تكن سوى مواخير ملكية، كان الملك يستقبل فيها محظياته ولا نقول عشيقاته إذ أن كثيرا من هؤلاء الفتيات لم يكن يعرفن حقيقة هذا الدور ، بل إن بعضهن لم يكن يعرفن شخصية الملك نفسه !

تمثال الثلج البديع !

كان جمال مدام بومبادور كعمر الزهر من النوع الذى يتسرب إليه الذبول سريعاً ، ولقد أخذت نضارة وجهها تحيل بعد الأعوام الأولى من حياتها فى القصر ، ولاشك أن السنين الطويلة التى عاشتها في تدبير لتحقيق مطامعها قد امتصت كثيرا من حيويتها وبدا أثرها للعين بعد أن استقرت حياتها واطمأنت نفسها . كان يعيب جمال الدوقة بياض بشرتها وكانت تعالجه بالمساحيق ، وهذا ما عناه الوزير الشاعر مورباس إذ قال :

«إن المركيزة ذات جاذبية وإغراء .

إن ملامحها دقيقة وتقاطيعها رقيقة .
وإن الأزهار تتفتح تحت ذراعها .
ولكنها ويالاأسف زهور بيضاء» .

كانت بشرتها رقيقة شديدة الحساسية عرضة للإلتهاب ، وكانت تبدو فى بعض الأحيان شاحبة كأنها مريضة ، ولكنها كانت تخفى هذا الشحوب بالتجميل ، بيد أنها لم تكن لتركن الى الهدوء والراحة ، وقد آلت على نفسها أن تطلق حول هذا الملك الخامل الحزين دوامة تطن وتأز حوله حتى لا تدعه يعود الى شرنقته ، ولا تدعه ينصرف إلى عشيقة أخرى قد تفتح له آفاقا قصرت عنها المركيزة .

ولم تكن مدام بومبادور امرأة تعتمد على جمالها فحسب بل على جاذبيتها الطاغية حتى فى أيام مرضها وضعفها ، كانت شخصيتها تبدو فى لون جديد براق كلما بدلت ثوبا بثوب ، أو صففت شعرها بطريقة مبتكرة ، وكانت تبدو فى كل ساعة من ساعات اليوم فى لون جديد ، وكانت تبدو فى أضواء الشموع والثريات غيرها فى ضوء النهار ، كانت هذه المرأة تتجدد فى كل ساعة ، لهذا لا عجب فى أنها لم تثر الملل والسأم فى نفس رجل مثل لويس ..

إن عشرين عاما ليست شيئا قليلا ، عشرون عاما حكمت فيها

مدام بومبادور فرنسا من مخدعها ، وليس أمراً هيناً أن تحتفظ بالنفوذ والسلطان خلال هذه الأعوام الطويلة وأن تخرج من المآزق والشباك والدسائس التى تحاك بها - حتى بين صنائعها الذين رفعتهم إلى كرسى الوزارة أو منحتهم الألقاب والرتب - ولا يفت هذا الصراع فى كيانها ، إذ أن الاحتفاظ برجل مثل لويس خلال عشرين عاما لهو فى ذاته صراع يفل عزيمته امرأة أخرى غير مدام بومبادور التى بدأت تشكو مرض الصدر وكان هذا هو سر نحولها وشحوبها ، ولكنها لم تعترف بالمرض فتعتكف ولو إلى حين بعيدا عن الحياة الصاخبة الساهرة التى كانت تعيشها من أجل الملك فتركت الداء يتسلل إلى صدرها رويدا رويدا ، لقد كانت مستعدة دائما للتضحية لكسب إعجاب هذا الرجل الذى بدأ يتبرم بها ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من سحرها ومن تسلطها عليه .

لقد أصبح لويس يتهمها بالبرود ويشبهها بتمثال بديع .. من الثلج ! ولكن مدام بومبادور لم تلمه على قسوته بل حاولت أن تقهر فى نفسها هذا البرود فاستخدمت شتى الحيل ، كانت تأكل الشيكولاتة المعطرة بالعنبر ، وكانت تكثر من تناول الكرفس وتستخدم أنواع العقاقير ، كل ذلك لكى تثبت فى المعركة حتى النهاية ، ومع ذلك فكان لويس يقضى يومه فى مخدعها متمددا

على مقعد طويل يتثاءب ويتمطى ويدور بعينين فارغتين حوله ، بينما كانت مدام بومبادور تقرأ وتكتب وتناقش الوزراء وتروى النوادر لتسلية الملك المتثاءب ، إنها تحس بأنه قد زهد فيها كأنثى ولكنه لا يستطيع عنها غناء كالطفل الذى يحتاج الى من يعتمد عليه ، إذ فى خلال هذه السنين العشرين كان لويس لا يفكر إلا بعقلها ولايدبر أمراً إلا برأيها ..!! .

وفى ١٥ إبريل عام ١٧٦٤ وعندما أحست بدنو أجلها ارتدت أفخر ثيابها الملكية ، وتزينت فى أبهى زينة ، حتى ماتت على تلك الصورة ، ووقف الملك يشيع نعشها ببصره وهو يحمل إلى العربة، والمطر ينهمر بشدة ، فكان كل ما قاله : «لقد اختارت المركيزة لرحلتها الأخيرة أسوأ جو» !! .



كاترين الثانية

«كاترين الثانية»
الجمال الذى حكم روسيا !!

يصفون القيصر بطرس الأكبر بأنه صنع روسيا كما يصنع النجار قطعة من الأثاث ، ويصفون القيصرة كاترين الكبرى التى جاءت بعده بأنها تناولت قطعة الأثاث التى صنعها فتعهدتها بالصقل والتهذيب حتى غدت روعتها فتنة الناظرين ، وقد اشتهرت كاترين هذه بمغامراتها فى السياسة والحرب .. والحب ! .

★★★

اعتلت كاترين الثانية عرش روسيا عقب فترة صاخبة من فترات التاريخ ، ظلت فيها تلك الأمبراطورية المترامية الأطراف ، زهاء أربعين عاما ، ترقص فوق فوهة بركان . فبين السنة التى مات فيها بطرس الأكبر عام ١٧٢٥ ، بطل الشمال ، وتلك التى جلست فيها كاترين على العرش ، ابتليت روسيا بستة حكام من حثالة الامراء والأميرات ، وأحط الاباطرة الذين آل اليهم تاج الأمبراطورية ، فهم ثلاث نساء خليعات مستهترات ، وطفل عمره ١٢ عاما ، ورضيع عمره سنة ، وغر أبله فى العقد الثالث من عمره، كان شغله الشاغل فى البلاط اللعب بعساكر من الدمى

الخشبية ، كما كان يفعل ملك فرنسا الأحمق المأفون ، لويس السادس عشر ، زوج مارى انطوانيت !! .

كان بطرس الأكبر شديد الرغبة فى انتزاع روسيا من آسيا وحضارتها البدائية ، وادخالها فى قلب أوربا ومدنيتها الساحرة الخلابة ، فتنقل بين عواصمها ، واتصل بملوكها ، وتتلمذ كأبسط العمال فى مصانعها وأحواض السفن فى مرافئها ، وأنشأ مدينة بطرسبرج لتكون نافذة تطل منها روسيا على أوربا ، وحلق ذقون القواد والزهاد والقساوسة ، وذبح ابنه الكسس ذبح الشاة ، حتى لا يخلفه فى الملك ويرجع بالبلاد إلى آسيويتها !!، وزوج عدداً من الأميرات من بناته وبنات اخوته لدوقات أوربا وملوكها ، حتى تزيده المصاهرة ارتباطا بمدنيتهم . ولم يدر بخلده أن العرش بعده، سيصبح فريسة لمؤامرات وعصابات أجنبية ، وخيانات داخلية من أشراف الروس الذين اعتنقوا مبادىء أوربا وتقاليدها ورطنوا بلغاتها ، فانقطعت الصلة بينهم وبين الرعية .

خلف بطرس الأكبر على العرش زوجته الثانية كاترين (الأولى)، وهى فى الأصل خادمة من لتوانيا لا حق لها فى الملك!!. ومنها آل العرش بعد سنتين الى ابنها بطرس الثانى ، نجل ذلك القس الكسس الذى ذبحه ابوه بطرس الأكبر بيده ، ومات بطرس الثانى فى الخامسة عشرة من عمره فخلفته الأميرة «آن» بنت

أخى بطرس الأكبر . وسرعان ما قضت نحبها فانتقل التاج الى ابن اخيها جون السادس ، وكان عمره سنة واحدة !. ولم ينقض عام حتى خلع من الملك ، واعتلت العرش اليصابات البنت الصغرى لبطرس الأكبر ، وأخيرا تولى الملك الغر الذى سبقت الاشارة اليه ، بطرس الثالث ، ابن أميرة هولشتاين ، التى كانت يوما ما تطالب بعرش السويد . ومن مساخر القدر أن كاترين فاتنة التاريخ ، كانت زوجة لذلك الأبله ، الى أن قتله رجال حاشيته، فتولت الحكم بعده وتنفست روسيا ، بمجيئها الصعداء .

الأميرة الألمانية

تبدأ قصة الأمبراطورة كاترين الثانية وهى غادة ناهدة هيفاء فى الرابعة عشرة من عمرها ، حلوة القسمات ، متمايلة الأعطاف، تبدو أكبر من سنها جسما وعقلا وعاطفة . لم تكن روسية ولا تمت لروسيا بصلة !. كان أبوها مارشالا فى جيش بروسيا وأمها من أسرة فردريك الأكبر . ولم تكن أمها من ذوات اليسار ، فقد دخلت روسيا وبنتها «صوفيا» لا تملك من الثياب سوى ثلاثة فساتين . وسرعان ما استقلت عن أمها التى ساءت سمعتها فطردتها الحكومة وسرعان ما جذبت انوثتها الفائرة وجمالها الفتان الأنظار والقلوب ، فزوجوها لذلك الأبله الذى آل إليه العرش باسم بطرس الثالث . وكان زواجا غير موفق من البداية .

فى ٢١ أغسطس عام ١٧٤٤ ، قرعت أجراس كنيسة العذراء فى قازان معلنة للشعب الروسى نبأ زواج الأمير بطرس – ولى العهد – بالأميرة الألمانية «صوفيا فون انهالت» بعد أن استبدلت بمذهبها البروتستانتى مذهبه الاورثوذكسى ، وسميت «كاترين الكسيفنا» .

وكانت القيصرة اليزابيث ، ابنة بطرس الأكبر هى التى اختارت الأمير بطرس وليا لعهدها ووارثا لعرشها وأملاكها . كما أنها هى التى اختارت له عروسه الأميرة صوفيا الألمانية ، واختارت لها اسم كاترين . وقد أشرفت على إعداد معدات الزفاف، متمنية أن يسعد العروسان ، وأن ينجبا لعرش القياصرة وليا للعهد بعدهما ، يواصل السير بروسيا نحو المجد والعظمة .

وفى مساء يوم الزفاف التاريخى ، صحبت القيصرة والوصيفات عروس ولى العهد إلى حجرتها ، وقبل أن يتركنها طبعت اليزابيث على جبينها قبلة ملؤها الحنان .

كانت كاترين – كما ذكرنا – شابة جميلة ساحرة . أما ولى العهد فكان فى مقتبل العمر أيضا ، ولكنه قبيح المنظر ، تشوه وجهه آثار الجدرى ، وعيناه الصغيرتان لا تنمان عن أى ذكاء ، فكان يبدو بجانب عروسه الفاتنة اشبه بالقرد الذى أسبغت عليه زينة الأعياد ! .

وانقضى ذلك اليوم التاريخى على أى حال ، وتنفست الأميرة الصغيرة الصعداء ، شاكرة لله أن استجاب لرغباتها وآمالها . فأصبحت بزواجها من ولى العهد ، مرشحة لأن تجلس على عرش روسيا فى الغد القريب أو البعيد ، وينظر إليها الشعب الروسى نظرته الى قياصرته الذين يقدسهم الى حد العبادة ، ويدين لهم بالطاعة العمياء ! .

على أنها منذ اللحظة الأولى ، كانت على يقين من أنها أن استطاعت ترويض نفسها على الرضا بالحياة فى الجو الجديد الذى احاطتها به القيصرة ، وتقبل التحيات التى لا تنتهى من الحاشية الكثيرة العدد فى القصر ، فإنها من ناحية أخرى ، لن تستطيع أن ترضى بهذا الزوج الجلف المشوه الخلقة الذى زفت إليه ، وارتبط مصيرها بمصيره ! .

إنه خلال خطبتهما ، لم يقل لها كلمة واحدة تنبىء عن عطف أو حب أو حنان !.. ثم هو خبيث لئيم سىء المعاشرة .. وحينما يرى القيصرة تحيطها بشىء من الحنان ، لا يملك نفسه من أن يسخر منهما ويضحك استهزاء بهما ، فى سماجة وبرود .

ومضت الفتاة الألمانية فى حياتها الجديدة ، ترقب ما يجرى حولها وتفكر فيما يضمره لها المستقبل . وقد أثبتت في مفكرتها الصغيرة هذه العبارات : «إن قلبى ينبئنى بأننى لن أجد السعادة

فى الزواج . ولكن ما أطمع فيه من مجد وعزه وسلطان يجعلنى احتفظ بالأمل والثقة ، فلابد أن أصبح سيدة روسيا المطاعة ، والقيصرة التى يخضع لها الجميع» ! .

ومرت الأسابيع تتلوها الأسابيع ، وولى العهد ماض فى خطته ، لا يعامل كاترين معاملة الزوج لزوجته ، ولا يعود الى القصر إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، فيلقى بنفسه فى الفراش دون أن ينزع ثيابه وحذاءه ! وكان سكيراً عربيداً ! .

ومرت سبعة أعوام كاملة ، وهو يعيش معها على هذه الحال . يجمعهما قصر واحد ، ولكنهما قلما يلتقيان . وتألمت المسكينة وبكت . وكانت القيصرة تحنو عليها وتحاول التخفيف من آلامها . وقد اتهمتها فى بادىء الأمر بأنها لا تعرف كيف تثير فى قلب زوجها عواطف الحب والهيام . فدافعت كاترين عن نفسها ، وأثبتت لولية نعمتها أن الأمير يهملها ، وأنها ليس أحب اليها من أن تكون زوجة صالحة ، ولكنه هو نفسه لا يريد أن يكون زوجا صالحا !!

وحدث ما لم يكن بد من حدوثه ، فقد تنبه رجال الحاشية الى أن القطيعة تامة بين ولى العهد وزوجته الحسناء ، وأن قلبها الرقيق المتفتح للحب لا يجد قلبا يبادله عواطفه . وكان أكثر أفراد

الحاشية عناية بأمر الأميرة المهملة فتيين صديقين هما : نارشكين وسرج سوليتكوف .

وكان الأخير من أجمل شبان روسيا وأبعدهم جرأة مع النساء. وكان له فى القصر مركز خاص ، بوصفه من اعضاء الأسرة المالكة ، فاغتنم فرصة خروج الأميرة للصيد ذات يوم فى احدى الغابات القريبة من القصر واستطاع بلباقته وخفة ظله أن يدخل معها فى حديث طويل ، انتهى بأن تفاهم قلباهما .

وحينما عادت كاترين الى القصر فى ذلك اليوم ، قضت ليلتها تفكر فى ذلك الحديث ، وتقول لنفسها : ان بطرس ذلك الزوج الغريب الأطوار قد ضن على قلبى بما لابد منه من الحب والحنان، فلماذا لا أبحث عنهما عند سواه !

البحث عن وريث للعرش !

وعهدت القيصرة الى السيدة تشوجوكوف بالسهر على راحة الأميرة كاترين وإدارة شئونها الخاصة ، وقامت هذه السيدة بمهمتها خير قيام .

وفى ذات يوم ، خلت تشوجوكوف الى كاترين ، وشد ما دهشت من الحديث الغريب الذى راحت السيدة تهمس به اليها، ثم ازدادت دهشتها حين فهمت من سياق الحديث أن القيصرة هى التى أوحت به !

لقد قالت لها السيدة تشوجوكوف : «ان الشعب ينتظر منها أن تمنحه وليا للعهد بعد بطرس زوجها . وأن هذا الشعب فى دهشة وأسف وألم لأن ولى العهد المنتظر لم تشرق طلعته ، رغم مضى سبع سنين فى الانتظار» !

وقالت كاترين : «ان بطرس هو السبب» . فحدقت رائدتها فى عينيها وقالت فى حزم : «إذا كان هو لا يريد ، فلماذا لا تريدين أنت ما يريده الشعب وتريده القيصرة ؟. ان هذا لا يكلفك الا أن تختارى من بين رجال الحاشية الكثيرين من تشائين» !!

وذهلت كاترين لهذا التصريح الجرىء ، وسكتت فلم تحر جوابا، ولكن السيدة تشوجوكوف عادت تقول : «ان للضرورة أحكاما لابد من الخضوع لها ، وأن القيصرة لا تمانع فى أن تختارى من أفراد الحاشية ، من تنسين معه صلف ذلك الزوج الأحمق السكير ، على أن يسعد الشعب بولى العهد المنتظر» !

وبقيت كاترين ساكنة ذاهلة ، فسألتها السيدة : «أيعجبك ليون»؟. فلم تجب كاترين . واستطردت الوصيفة فقالت : «إذن يمكنك اختيار سرج» !.

وجاء رئيس التشريفات بعد السيدة تشوجوكوف ، وراح يحدث الأميرة عن وراثة العرش ، وضرورة تحديدها .. وانتهى حديثه بأن عرض على كاترين أن يجىء اليها بالشاب سرج سوليتكوف ، على أن تتخذه فى الحال عشيقا :

– هذا ما امرتنى به مولاتى اليزابيث ، وما علي غير التنفيذ ! وقد قالت لى : ان امرأة ذكية لا ترضى أن تموت بدون أن تترك ابنا يرثها بعد موتها !

إذن ، إنهم يريدون منها أن تصبح خليلة لسرج سوليتكوف : فليكن لهم ما يريدون !

نفذت الأميرة إذن إرادة القيصرة ، وأطلقت لعواطفها العنان ، وألقت بنفسها فى أحضان سوليتكوف الجميل . ولكن زوجها – الذى أهملها وأعرض عنها سبعة أعوام كاملة – شعر حينذاك بالغيرة تأكل صدره ، وأراد أن يعوض ما فاته ، وراح يضايق الأميرة الحائرة ويزعجها ويقسو فى معاملتها ، فاضطرت اليزابيث الى التدخل بين الزوجين لتهدئة غضب الأمير وثورته !

وما مضت عشرة أشهر حتى كانت الأميرة كاترين قد وضعت طفلا ، تقرر أن يطلق عليه اسم «بولس بتروفتش» ومعناها بولس ابن بطرس .

لقد أصبحت كاترين أما ..! ولكنها لم تلمس ابنها ولم تره الا بعد مرور أربعين يوما على مولده . وجعلت الأم تحدق البصر فى طفلها . أهو يشبه أباه ؟ أم يشبه سرج سوليتكوف ؟! كلا إنه يشبه سرج . فهو إذن ابن الغرام المحرم !

وأقيمت معالم الزينة في جميع أنحاء روبسيا . وقرعت أجراس الكنائس : إن وراثة العرش أصبحت مضمونة الى حقبتين . وأهدتها القيصرة مائة ألف روبل . ولكنها أصدرت أمرها بأن يبتعد سرج سوليتكوف عن الأميرة ، بل عن القصر : لقد أصبحت كاترين أما . فمشكلة الوراثة قد حلت الآن فلا داعٍ الى اتخاذ عشيق يحل محل الزوج إذا تمرد !

كانت كاترين فى الثالثة والعشرين من العمر . وكانت قد أحبت سوليتكوف حبا عنيفاً أرادته أن يكون خالصا وفيا، لكن إرادة فوق ارادتها قطعت حبل ذلك الحب فجأة ، فأصدرت اليزابيث مرسوما بتعيين سرج سوليتكوف سفيرا لدى ملك السويد . وسافر الشاب من روسيا دون أن يرى الأميرة .

أما ابنها – وهو ابنه – فيجب أن يعلن أمام الناس أنه ابن الأمير بطرس ، وأنه سيرث العرش بعد أبيه .

حفلات .. ودسائس !!

كان كل شيء يجرى بخلاف المألوف ، فى البلاط الروسى . وعملا بهذه القاعدة ، أرادت الامبراطورة أن تقيم حفلة ساهرة ، فقررت أن يتنكر الرجال فى زى النساء والنساء فى زى الرجال ! وقد امتعض رجال الحاشية من هذا القرار العجيب ، ولكنهم اضطروا الى النزول على رغبة مولاتهم .

وكانت كاترين قد امتنعت عن الاشتراك فى حفلات القصر منذ أن أصبحت أما ، ومنذ أن ابتعد سوليتكوف عن العاصمة ، ولكنها فى ذلك اليوم علمت أنه عاد من السويد لقضاء بضعة أيام عند أهله ، وأنه سيذهب الى تلك الحفلة الساهرة ، فقررت أن تذهب اليها ايضا .

كان منظر المتنكرين يدعو الى الضحك حقا : تصوروا قائدا ذا لحية يتسربل بمعطف امرأة ويضع على رأسه قبعة تعلوها ريشة كبيرة . وتصوروا نبيلا آخر فى السبعين من العمر ، يلبس ثوب قروية وعلى رأسه منديل ، أو نساء البلاط يجرين من مكان الى مكان فى أزياء القواد والنبلاء ..!!

أطلقت القيصرة اليزابيث فى تلك الحفلة الماجنة لغرائزها العنان . فهى امرأة لا تعرف لتلك الغرائز حدا . وقد أرادت أن تكون ابنة اختها كاترين مثلها . ولكنها جعلت مع الأيام تنظر اليها بعين الحسد والغيرة ، لأن كاترين شابة ساحرة ، وهى كهلة بدأت الأخاديد تخط صفحات وجهها ، ولكنها كانت تخفى حسدها وغيرتها خلف قالب من الحنان والعطف : أليست مدينة لكاترين بولى عهد يرث الملك بعد بطرس ؟

وكان المبعوثون السياسيون يغتنمون فرصة الحفلات الساهرة، فى مقر القياصرة ، لإلقاء حبائلهم وحبك دسائسهم . وفى تلك

السهرة التقى اثنان من اولئك الرسل : السير شارلس هانبرى الانجليزى ، والسيدة ليا دى بومون الفرنسية . وكان الأول يلاحق القيصرة بأن تعقد محالفة مع بلاده ضد فرنسا . وكانت الثانية تلاحقها بأن تعقد محالفة مع فرنسا ضد الانجليز . ودعت القيصرة ليا دى بومون الى حجرتها ، وقررت تعيينها قارئة فى القصر ، ثم تطورت العلاقة بين اليزابيث والفرنسية الحسناء تطورا أسفر عن مفاجأة لم تكن القيصرة تنتظرها : فقد اتضح لها أن ليا دى بومون ليست امرأة ، بل هى رجل . وقد اشتهر ذلك الرجل فى التاريخ باسم «شفاليه ديون» وكان يطوف عواصم أوربا فى زى امرأة ، ويقوم بأداء مهمات صعبة لحساب وطنه فرنسا !!

أما كاترين ، فإنها لم تعثر على سوليتكوف فى الحفلة الساهرة ، وقد بحثت عنه عبثا في أركان القصر وزوايا الحديقة . فما الذى حدث ؟

علمت الحقيقة فى اليوم التالى ، إذ أخبرها جواسيسها أن الشاب الجميل قد نسيها ، وأنه لم يعد يفكر فيها ، بل بحث عن السلوى فى أحضان غيرها من النساء .

إذن ، ستبحث هى أيضا عن السلوى فى أحضان غيره من الرجال !

وكتبت كاترين فى مفكرتها ، بعد تلك الحفلة : «إن عزة نفسى

تجعلنى لا أطيق التفكير فى أننى سأكون تعيسة يوما من الأيام، فإذا شعر الإنسان بدنو التعاسة منه ، عليه أن يترفع عنها ويرتفع فوقها ، وليعمل بحيث لا تظل سعادته رهنا للحوادث» !

وهكذا كانت كاترين تظن أنه يكفيها أن تنتقل من رجل الى أخر وأن تختار عشيقا جديدا كلما فقدت عشيقا سابقا ، لكى تضمن لنفسها السعادة فى الحياة .

سياسة وغرام !!

كانت كاترين فى ذلك الوقت تجتاز مرحلة دقيقة من مراحل حياتها ، فزوجها لا يزال كما كان . وعشيقها سوليتكوف قد ابتعد وقطع كل علاقة معها . والقيصرة التى تبذر المال يمينا ويسارا تنسى فى بعض الأحيان أن تدفع لابنة اختها المرتب المقرر لها . وكاترين فى حاجة ملحة الى المال ، لأنها ايضا ، متلافة مبذرة . فمن أين لها المال ؟..

أدرك سير وليامز ، السفير البريطانى ، ما تعانيه من متاعب مادية وعذاب نفسى . ويا لها من فرصة عزم الرجل على اغتنامها بلا تردد !

كاترين تريد مالا ؟.. إن خزانة السفير مفتوحة لها . فلتغترف منها ما تشاء ! عشرة آلاف جنيه .. ثم عشرين ألف جنيه !.. إن هذا الكرم الذى يبدو من السفير لا غرابة فيه . فإنه يفتح له جميع

الأبواب ، ويقرب المسافة بينه وبين الأميرة ، ويرفع بينهما الكلفة الى حد بعيد .

والفرصة سانحة ايضا ليتحدث السفير الى الأميرة عن وجوب عقد محالفة بين روسيا وانجلترا . وحينما يتم التوقيع على المعاهدة، سيقدم لها ما تريد من مال !..

ويندفع السير وليامز فى حديثه مع الأميرة ، فيثير فيها الرغبة فى أن يكون لها قصور ومركبات وضياع .. ثم لماذا لا تفكر فى العرش من الآن ؟.. إن خالتها مسنة ومريضة . والموت لا يرحم أحدا . فإذا ماتت الامبراطورة ، وأصبح بطرس قيصرا بعدها ، فهل يحكم هو ؟ هل تتركه كاترين يحكم أم تلعب في تاريخ روسيا الدور الذى لعبته اليزابيث نفسها ، فتصبح مثل خالتها امبراطورة عظيمة مطاعة ؟ .

إن ما يتحدث عنه السفير يثير فى نفس الأميرة كوامن الأمل والحقد على زوجها وخالتها ، والرغبة فى الوصول بأسرع ما يمكن من الوقت الى أوج العظمة والمجد . وهذا السفير يدرك كوامن صدرها ، فلماذا تخفى عنه أسباب امتعاضها وتعاستها ؟

إنها زوجة ولى العهد ، نعم . ولكن ولى العهد لا يحتل مكانا فى قلبها وبجوارها . إن قلبها فى حاجة الى الحب الذى حرمت منه ..

حاول سير وليامز أن يستغل هذا الضعف لنفسه . ولكن الأميرة أوقفته عند حده . فشعر بأنها لن ترضى به عشيقا ، وعزم منذ تلك اللحظة أن يجيئها بعشيق آخر ، يكون من رجاله الأمناء الأوفياء ..

لماذا لا تلقى الأميرة نظرة على الكونت ستانسلاس بوبيناتوفسكى ، البولونى الشريف ، المطالب بعرش بلاده ، الذي يعد من أجمل شبان عصره ؟ إن بوبيناتوفسكى يقيم فى بلاط القيصرة اليزابيث ، وهو يتمتع بسمعة طيبة ، والجميع يحبونه ويحترمونه ..

وألقى السفير الانجليزى حبائله للصيد ، فكان الصيد موفقا . فقد تواطأ مع ليون ناريشكين وأخته آنا ، على تمهيد السبيل لبوبيناتوفسكى ، وبوبيناتوفسكى صديقه ، بل صنيعته .

ودعا ليون ذات ليلة الأميرة كاترين الى سهرة تحييها أخته في دارها . فذهبت الأميرة مطمئنة الى بيت صديقتها . فإذا بها تجد نفسها وجها لوجه مع بوبيناتوفسكى ، فأدركت أن الدعوة لم تكن غير حيلة عمد اليها الأخ والأخت ، لكى تلتقى الأميرة بالشاب البولونى .

وكانت ساعة من ساعات الغرام قضتها كاترين مع بوبيناتوفسكى فى حماية صديقيها . وعادت الى القصر فى

ساعة متأخرة من الليـل ، فـإذا بها تلتـقى بزوجـها بطـرس ، فى السـلم المؤدى الى حـجـرتهـا ! ودارت بين الاثنـين مـحـاورة عنيفة :

– من أين أنت قادمة يا سيدتى ؟!

– كنت أبحث عنك يا سيدى ، كما يقضى على الواجب !

وتقدم الأمير من زوجته شاهرا سيفه ، لكنها صاحت به :

– مبارزة ؟ إذن ، أنا فى حاجة مثلك الى سيف !

فتراجع الرجل ، وجعل يتمتم : «سوف أنتقم ، سوف أنتقم» !

★★★

وقع لكاترين ، يوم التـقت للمـرة الأولى مع بوبناتوفسكى فى مـوعـد غـرامى ، حـادث أقـرب الى نسـيج الخـيـال منه الى وقـائع الحياة . فقد ضربت لعشيقها الجديد موعدا أمام باب القصر ، وجاء بوبناتوفسكى فى مركبة يجرها حصان واحد ، وكان متنكرا . وخرجت اليه كاترين متنكرة أيضا فى زى خادم من خدم القصر. وانطلقت المركبة بالعاشقين نحو الغابة القريبة . وصادف أن جمح الحصان في الطريق فانقلبت المركبة فى حفرة عميقة . وسقط العاشقان في الوحل ، وأغمى على الأميرة بين ذراعى الشاب الذى استولى عليه قلق شديد .

ونهض الاثنان من تلك الورطة ، وقاد بوبناتوفسكى حبيبته الى

دار القنصل البريطانى القريبة من هناك ، فأضافهما الرجل ورحب بهما .

ووضعت كاترين في تلك السنة طفلة قال فيها الامير بطرس زوجها : «لست أدرى من أين تأتى زوجتى بأطفالها» !!

وكانت الروابط قد توثقت بين بوناتوفسكى ووليامز من ناحية وكاترين وبستوجيف كبير الامناء من ناحية أخرى . فوضع الأربعة خطة ترمى الى سن قانون لوراثة العرش يفتح لكاترين فى المستقبل منفذاً اليه ، ويساعدها على التخلص من زوجها والاستئثار بالحكم . وكان عليهم أن يقاوموا نفوذ نائب كبير الأمناء ، شوفالوف عشيق الامبراطورة اليزابيث ، والذى كان يدفعها بين أحضان فرنسا ، فى حين أن وليامز وأعوانه كانوا يرمون الى أغراض تتفق مع السياسة البريطانية . وفاز شوفالوف فى بادىء الأمر فحمل الامبراطورة على إعلان الحرب على فردريك ملك بروسيا ، وزحف جيش روسى كبير نحو برلين بقيادة المارشال ابراكسين .

وفى ذلك الظرف العصيب ، وقع حادث في لندن جعل اليزابيث تطلب من وليامز مغادرة بطرسبرج ، فانهارت أحلام السفير البريطانى وأصدقائه ، وراحت كاترين تتساءل : هل أحسنت

صنعا فى اتفاقها مع وليامز ، أم كان خيرا لها أن تساير سياسة القيصرة ؟

وحمل الرسل من بروسيا خبر الانتصارات الباهرة التى أحرزها جيش ابراكسين على جيش فردريك . وأقيمت معالم الزينة فى العاصمة الروسية . ولكن الانباء وردت ، فى اثناء الحفلة ، بأن الانتصارات قد تحولت الى هزيمة ، وأن ابراكسين يفر مسرعا أمام الجيوش البروسية الظافرة !

وبينما كان ذلك كله يجرى فى ميدان السياسة والحرب ، كان ولى العهد بطرس يدبر مكيدة لإيقاع غريمه بوبناتوفسكى فى الفخ، وحمله على الاعتراف بأن كاترين عشيقته . وكان للأمير أيضا فى ذلك الوقت عشيقة تدعى اليزابيث فورنستون . فدعا هذه المرأة الجميلة وزوجته وبوبناتوفسكى الى مأدبة . ولكنه بدلا من انزال العقاب بالرجل الذي سرق منه زوجته ، صارحه بأنه يعلم بعلاقته بكاترين ، ولكنه يغض الطرف عنهما ، ويكتفى بالمرأة التى اختارها من ناحيته عشيقة له ، وهى اليزابيث فورنستون . أو بعبارة اخرى ، قال الأمير لزوجته : «خذى عشيقك واتركينى آخذ عشيقتى» !. تلك هى الاخلاق التى كانت سائدة فى ذلك العصر .. وتلك هى حياة أسياد روسيا فى القرن الثامن عشر !

الخدر أم الدير ؟!

كانت الامبراطورة وزوجة ولى العهد ، وكذلك كان ولى العهد والقواد والعظماء ، يتبادلون العشاق والعشيقات ، وكانت السياسة خاضعة فى سيرها لهذا التبادل العجيب . ومع ذلك فقد كانت تلك المرحلة من أروع مراحل التاريخ فى روسيا ، ومن أعظم العهود التي مرت بها !!

نقمت القيصرة على بستوجيف فعزلته من منصبه . وخشيت كاترين أن يكون الرجل قد ترك أوراقا ووثائق تثبت تواطؤها معه ومع بويناتوفسكى ضد سياسة القيصرة . ولكنه أخطرها سرا بأن جميع ما لديه قد أحرق قبل اعتقاله . وظلت كاترين تخابره سرا وهو فى سجنه بوساطة صديقها بويناتوفسكى ، ولكن القيصرة علمت بالأمر . وأرسل الشاب البولونى العاشق فجأة الى السويد، بدون أن يتسنى له أن يقابل عشيقته قبل سفره !

وكتبت كاترين الى أبيه تقول : «إن ملك السويد شارل الثانى عشر يرحب الآن بولدك . ولكننى أعدك بأن أجعل من ستانسلاس ملكا عندما أصبح سيدة روسيا» !

هى الآن وحيدة منعزلة فى بطرسبرج . فقد عاد وليامز الى بلاده . وسجن بستوجيف . وذهب ستانسلاس الى السويد وخلا الجو لخصوم كاترين لكى يخلقوا حولها جوا من العداء والنقمة؛

فهى تراقب من الجميع . والقيصرة تنظر اليها بعين الريبة والشك، وزوجها يكرهها ويضمر لها الشر كل الشر . والاصدقاء القليلون الذين ظلوا على وفائهم لها ، ينقلون اليها انباء ليس من شأنها أن تعيد الطمأنينة الى نفسها . فالامبراطورة تفكر فى ارسالها الى المنفى ، وزوجها يؤثر أن يراها فى مُختلف الدير لا في خدرها ، بل إنه يفضل أن يراها ميتة لكى يتزوج من غريمتها اليزابيث فورنستون !

عمدت كاترين الى المكر والخداع ، ولم تدع لليأس منفذاً الى صدرها . وتظاهرت ذات يوم بأنها مريضة وطلبت الكاهن لزيارتها فى حجرتها . وتوسط الرجل لدى الامبراطورة فدعتها اليزابيث الى حجرتها . وجاء معها بطرس ، وهو يمني النفس بأن يكون هذا لقاءه الأخير لزوجته قبل موتها !!

وكان حديث وكان عتاب . وتمكنت الأميرة الساحرة من تبديد مخاوف الامبراطورة واسترجاع عطفها ، وهذا ما أثار كوامن الحقد فى صدر الأمير زوجها . وعندما غادرت كاترين حجرة اليزابيث ، كانت المياه قد عادت الى مجاريها الأولى بين المرأتين ، ولم يعد أحد يفكر فى إرسال الأميرة إلى المنفى أو الى الدير ! بل إن الامبراطورة أوفدت اليها شوفالوف عشيقها ليقول لها : «إن مولاتى علمت أنك تفكرين فى الابتعاد عن بطرسبرج ، وهى ترجو

أن تبقي هنا» ! وهكذا ، بدل أن تنفى الأميرة جاءها رجاء من الامبراطورة بأن لا تنفى نفسها !

★★★

كان شوفالوف عشيق القيصرة ، ولكن هذا لم يمنعه أن يتخذ لنفسه عشيقة أخرى هى الأميرة كوراكين الغادة الحسناء .

وحدث أن ضابطا من رجال الحرس الامبراطورى يدعى أورلوف غازل الأميرة كوراكين ، فأرسل اليه شوفالوف عصابة من رجاله لتأديبه ، ولكن اورلوف تغلب عليهم ، فأصبح بين عشية وضحاها ، شهيرا محبوبا !..

وأرادت كاترين أن تعرف ذلك الشاب الذي انتقم لها ، بكيفية غير مباشرة وبدون أن يدرى ، من شوفاك المتكبر المتعجرف ، صديق الامبراطورة وعدو بوناتوفسكى .

فعهدت الى احدى وصيفاتها بأن تتصل بالشاب وتمهد له سبيل الوصول الى القصر للقائها . وقامت الوصيفة بالمهمة ، فقصدت ليلا الى بيت أورلوف ، ولم يكن بعيدا عن القصر ، فخرجت معه بعد أن وضعت على عينيه عصابة ، وقالت له إن سيدة عظيمة تنتظره ، ولكنها لا تريد الإفضاء باسمها !

ورضى الشاب وتبعها الى القصر ، حيث كانت كاترين تنتظره فى حجرتها .. وكان لقاء وكان غرام !.. فقد نسيت عشيقها

البعيد، بويناتوفسكى الجميل ، بين ذراعى هذا العشيق الجميل الجديد ، أورلوف !!

وكان لأورلوف إخوة ثلاثة ، جميعهم من ضباط الحرس الامبراطورى . وظل الشاب بضعة اسابيع يزور المرأة فى خدرها خلسة ، ولا يعرف من تلك الحسناء التى وهبته نفسها !!

وفى أثناء هذا ، كان الموت يلج القصر في جناح آخر : فقد فاضت روح القيصرة اليزابيث فى عام ١٧٦٢ ، وقرعت الأجراس حزنا . وخرج موكب الجنازة من باب القصر الكبير ، تتقدمه فرق الجيش وموسيقاه ، ويصطف رجال الحرس على جانبى الطريق ، بقيادة ضباطهم ، وبينهم أورلوف وإخوته .

وأمام النعش ، مضى أفراد الأسرة المالكة وفى طليعتهم ولى العهد بطرس ، وفى مركبتها الرسمية ، مرت زوجة ولى العهد كاترين .

ووقع نظر أورلوف عليها ، فعرف فيها المرأة المجهولة التى أحبته !! وطار فؤاده من الفرح ، وأوشك أن يصيح فى وجوه الناس حوله : هذه زوجة ولى العهد ، هذه قيصرة الغد ، هذه عشيقتى !

ومرت الأيام ، وارتقى بطرس الثالث عرش القياصرة ، وأصبحت كاترين امبراطورة بجانبه . ولكنه ظل يضمر لها الشر

ويعمل للتخلص منها . ووقع سفراء الدول فى حيرة من تقلبات سياسته الجديدة ، وجعلوا يتساءلون : أيزج هذا الرجل ببلاده فى حروب جديدة ؟ أيظل محتفظا بعرشه ؟ أيضع حدا لغرائزه البهيمية أم ينغمس فيها بلا حساب ؟

وهبت على بطرسبرج موجة من المجون وجاء الامبراطور الى قصره بأفواج من النساء والشبان ، راح يؤويهم فى حجراته ويقدم لهم الشراب والطعام ، وشاهدت تلك الحجرات أحط أنواع الخزى والعار والفجور !!..

وأمر الامبراطور بأن يعاد سوليتكوف - عشيق زوجته الأولى - الى العاصمة ، وحاول أن ينتزع منه إقرارا بأن الأمير بولس ولى العهد هو ابنه ! ولكن الرجل رفض الخضوع وتمرد !

ووضعت كاترين فى ذلك الوقت طفلا ثالثا ، هو ثمرة غرامها مع أورلوف !!. وتآمرت مع لفيف من خدم القصر فأخفوا أمر هذا الطفل وأرسلوه الى حيث لم يعلم أحد !..

واتسع الخلاف بين الامبراطور وزوجته ، مما جعل سفير فرنسا يكتب الى حكومته : «لا يدهشنى ، وأنا أعرف الامبراطورة، كاترين ، أن تعمد هذه المرأة الى أساليب العنف لإحداث انقلاب فى روسيا» !

المـؤامـرة !

لم يكن السفير الفرنسى مخطئا فى تقديره ، فقد حدث ما تنبأ به !

يقول المثل الروسى : «إن من أراد أن يأكل العسل . عليه أن يقتل النحل» !

نحن فى الثامن من يوليو عام ١٧٦٢ : وكاترين تنتظر فى شرفة قصرها نتيجة المؤامرة التى دبرتها بالاشتراك مع أورلوف عشيقها وإخوته .

فقد أراد الامبراطور أن يطرد من الخدمة بعض ضباط الحرس ، فأثار أورلوف رفاقه عليه ، واشترى تأييدهم بمائتى ألف روبل سرقها من الجيش ! وأراد بطرس الثالث أن يغير مذهبه الدينى فأثار عليه أورلوف رجال الدين ! وقرر العاشق الجرىء إسقاط الامبراطور ، بعد أن تم له تمهيد السبيل لهذا الانقلاب ، على أن ينادى بكاترين امبراطورة على روسيا .

والمرأة توافق على هذا كله . لقد مضت عليها ثمانية عشر عاما وهى تعانى العذاب مع أولئك الاجلاف !

وجاءت ساعة الانتقام !

دخل إلكسيس أورلوف عليها عند الفجر وقال : «تعالى يا سيدتى . فكل شىء معد للعمل» !

وسألت الامبراطورة أين زوجها . فأجابها أورلوف بأن بطرس الثالث فى بلدة اورانئيون ، وأن إشاعة قد سرت فى العاصمة بأنه اعتقل الامبراطورة فثار الجيش ، وهو ينتظر نزول كاترين من القصر للمناداة بها وإسقاط زوجها !!

وخرجت كاترين . وسارت مع أنصارها الى حيث يريدون ، وانضم الى الموكب رجـــال الحــرس ورجـــال الدين . وأرغم الامبراطور بطرس الثالث على كتابه وثيقة بالتنازل عن العرش ، وأعلن القواد أن كاترين الثانية أصبحت امبراطورة على روسيا من أقصاها الى أقصاها !

وتم الانقلاب بدون قتال يذكر ، ولم تقع غير حوادث متقطعة منفردة ، أصيب فيها بعض الضباط بجراح ..

وذهب جريجوار أورلوف عشيق الامبراطورة ، الى حجرة عشيقته فى مساء ذلك اليوم ، وبينما كانت كاترين منهمكة فى تضميد جرح أصابه فى جنبه ، إذ بالأخ الثانى ، الكسيس أورلوف ، يدخل عليهما صائحا : «لقد قتل الامبراطور ! لم نكن نقصد قتله ، ولكنه تشاجر مع أحد رفاقنا وأسفرت المشاجرة عن مصرعه» !

العشاق يتسابقون !!

مات القيصر فاندفع العشاق يتسابقون الى القيصرة !

فستانسلاس بوبناتوفسكى يفكر فى العودة الى بطرسبرج ،. وجريجوار أورلوف ، وبوتمكين ، وهو عاشق حديث العهد ، يحاول أن يحل فى ذلك القلب محل من تملكوه من قبل !..

وعزمت الامبراطورة أن تضع حدا لهذا التسابق بين عشاقها ، ففكرت فى أن تختار من بينهم زوجا يحل محل الامبراطور الراحل على عرش القياصرة .. ووقع اختيارها فى النهاية على جريجوار أورلوف . فدعت مجلس العرش الى الاجتماع لتبلغه ارادتها وعزمها . ولكنها فوجئت باعتراض أحد الاشراف ، الذى قال لها بصراحة ممزوجة بالحزم : «إن الامبراطورة حرة بأن تصنع ما تريد ، ولكن مدام أورلوف لن تصبح أبدا امبراطورة» !

فعدلت كاترين عن قرارها . ولكنها لم تفترق عن أورلوف . بل إن جميع رجال البلاط صاروا ينظرون الى هذا الرجل نظرهم الى سيد الموقف ، وكان أورلوف لا يخفى علاقته بالقيصرة بل يباهى بها أمام الناس ..

وجمع خصوم القيصرة جموعهم وجعلوا يثيرون القلاقل فى الأقاليم النائية . فقد رفع بوجاتشيف لواء العصيان على ضفاف فولجا ، وادعى بأنه القيصر بطرس القتيل ، قائلا إنه لم يقتل بل فر من جلاديه وعاد الآن لينتقم من زوجته الخائنة !

وعلم ولى العهد بولس الصغير بالخبر ، فقال لمعلمه : «عندما أصبح رجلاً ، سأنتزع من أمى العرش الذى انتزعته من أبى» !

لكن بوجاتشيف وقع فى الأسر وعذب وقتل . وقام غيره بالثورة، وقاد الثوار فى هذه المرة رجل يدعى بوجومولوف ادعى أيضا أنه بطرس الثالث ! فقبضت عليه كاترين وأمرت بأن يجدع أنفه ويرسل الى المنفى فى سيبيريا !..

وساعدها الحظ فأحرزت جيوشها وأساطيلها سلسلة من الانتصارات وطدت دعائم ملكها بالرغم من تلك الثورات والاضطرابات . وقال قائل إن الحظ هو أكثر عشاق كاترين وفاء ، فهو يخدمها كلما ضاقت فى وجهها السبل واعترضت طريقها الصعاب !

ومال قلب القيصرة الى رجل آخر ، غير الرجال السابقين : ذلك هو بوتمكين ، عشيقها المقبل ! وثارت ثورة أورلوف وإخوته ، فتشاجروا مع بوتمكين وضربوه ففقد عينا فى المعركة . لكن هذه الهزيمة لم تحل بينه وبين القيصرة التى فضلته على غيره فيما بعد! وهكذا ظلت الامبراطورة منغمسة فى غمرة الملذات ، فى الوقت الذى كانت فيه تشرف على تسيير دفة الحكم والسياسة بقدرة فائقة وكياسة أثارت إعجاب المؤرخين !

وكانت دائما تعتقد أن عشاقها جميعا يحبونها ويهيمون بها ، ولا تفكر لحظة فى أنهم يطيعون أهواءها طمعا فى الجاه والمال والنفوذ والسلطان !

وقد كانت تتبادل الرسائل مع كبار الكتّاب وفلاسفة العصر ، وتهتم بكل كبيرة وصغيرة من شئون مملكتها الشاسعة ، ولكن ذلك كله لم يكن كافيا لينسيها الملذات التى عاشت لها وانغمست فى غمراتها .

★★★

ولما هجرت أورلوف بعدما شعرت نحوه بالسلوان ، تزوج ابنة عمه .. وبعد حين أخبروها ذات يوم أن زوجة أورلوف ماتت فى سويسرا بداء السل ، فلم تبعث بكلمة عزاء للزوج الذى كان فى وقت من الأوقات مالكا لبها ؛ لقد كانت فى ذلك الحين تتذوق غراما جديدا بين ذراعى لانسكوى الشاب المرهف الاحساس !..

وفى احدى الليالى ، وبينما الامبراطورة مختلية بعشيقها فى احدى حجرات القصر ، إذ بالباب يفتح ، ويدخل منه شبح فى ثوب الحداد و يتقدم نحوهما !

من هو هذا الشبح القادم من حيث لا يدرى أحد ؟ وكيف دخل الى القصر ؟!

لقد فتح الأبواب بمفاتيح يحملها فى جيبه !

هو أورلوف ! إنه يمشى بخطى بطيئة ، وقد ارتسمت على وجهه إمارات الخبل ..

فهم لانسكوى بالانقضاض عليه . لكن كاترين أمسكت بيده ..

وتقدم الرجل وأسند رأسه على كتف القيصرة ، ونظر الى لانسكوى سائلا : «أهذا هو العشيق الجديد ؟ كيف وقعت فى الفخ أيها الأبله» ؟

وانتفض لانسكوى ، فأوقفته كاترين بهذه الكلمات : «دعه ! إنه مجنون» !

وصاح أورلوف : «نعم ، مجنون ! لقد جننت بسببك يا كاترين! فعلت من أجلك كل شيء وأنت الآن تقولين إننى مجنون» !

واخرج أورلوف من القصر . ومات بعد بضعة أيام ، فى نوبة جنون هائلة !

وما مضت أيام أخرى ، حتى كان لانسكوى نفسه يعانى حشرجة الموت على سريره ، والقيصرة بجانبه ..

كوكب هوى !

نقل لانسكوى الى القبر ، وكان الناس يظنون أن الامبراطورة لن تنساه ..

ولكنها نسيته . وأحلت محله الكونت مامونون : والذى

جاءها بهذا العشيق هو بوتمكين نفسه ، أحد عشاقها السابقين الذى لم يبق امامه من سبيل الى ارضائها غير البحث لها عن عشاق !

وأرادت أن تقوم برحلة فى أنحاء مملكتها ، فأعد بوتمكين العدة لتحقيق هذه الرغبة وكانت رحلة رائعة !

تقدم بوتمكين الموكب الامبراطورى . ونشأت المدن والقرى ، بل نبتت من الأرض على طول الطريق . وتحققت فى خلال هذه الرحلة طائفة من المشروعات التى خلدت اسم الامبراطورة الغريبة الأطوار .

وانتهت الرحلة بعد أن زارت القيصرة الأقاليم الواقعة على الحدود ، وعادت الى عاصمة ملكها تعبة منهكة القوى .

وبحثت عن تسلية جديدة مع رهط من الشبان !!

وشعرت بأن العشاق الذين يقع عليهم اختيارها يترددون فى قبول ما يعرض عليهم : فهل يأنفون من معاشرة الامبراطورة ؟!

لقد أدركت كاترين هذه الحقيقة فى النهاية ، وهى أن الشيخوخة قد حلت بها ، فصاحت مرة فى وجه وصيفاتها :

«ظننت أن الامبراطورة تحتفظ بسن الشباب ، وأنها تبقى دائما فى الخامسة عشرة من العمر» !

ومـاتت كـاترين الثـانيـة الملقـبـة بالكبـرى في ١٦ نوفـمـبر عـام ١٧٩٦ ، ولم يكن في حجرتها غير زوبوف عشيقها - وهو الأخير من تلك السلسلة الطويلة .

وعندما دخل ولى العهد بولس ووقع نظره على أمه جثة هامدة، قال لرجال حاشيته :

- أنبشوا قـبـر أبى واسـتـخـرجـوا جـثـتـه وضـعـوا التـاج على جمجمته الصلعاء !

وأمر القيصر الجديد ، بولس الأول ، بأن توضع جثة أبيه بعد استخراجها من القبر ، وجثة أمه فى نعشين يحملان معا فى موكب واحد الى مقرهما الأخير !

وعلى بلاط الضريح ، نقشت هذه الكلمات :

«فرقتهما الحياة فجمعهما الموت» .



ليدى هاملتون

«ليدى هاملتون»

الفاتنة التى أسرت بطل البحار !!

قصة «ايما» ليدى هاملتون ، فيها من الغرائب والمآسى ما يغنى كاتبها عن كل مبالغة أو تأنق فى الأسلوب أو صنعة يستهوى بها القارىء أو يجذب انتباهه .. فالقصة غنية عن كل ذلك ، تبدأ من الحضيض وترتفع إلى السماء ثم تهبط إلى أسفل سافلين .. تبدأ بجوار الكير ثم تنتقل إلى القصور وتنتهى فى السجون.. أولها فقر وضعة ووسَطها عز وجاء وآخرها ذل ومسغبة.

والخير أن نبدأ القصة من البداية .

«أهوى !.. ها هى ذى الأرض تلوح!».

ما إن انبعث بهذه الصيحة صوت ضابط المراقبة على ظهر البارجة «أجا ممنون» فى صباح أحد أيام شهر أغسطس سنة ١٧٩٣ منبها إلى اقتراب البر .. حتى خفقت قلوب رجال السفينة – من ضباط وجنود – وهفت نفوسهم إلى المتع التى كانوا يحلمون بتذوقها فى نابولى ، وأخذ كل منهم يستحث البر أن يخف إلى لقاء السفينة ما دامت سرعتها لم تكن كما كان يشتهى.

وراحت الأحلام تراود رؤوسهم .. أحلام النساء والهوى والخمر!.. عدا ضابط صغير برتبة «كابتن» يدعى «هوراشيو نلسون» اتجهت أحلامه إلى أمور أخرى.. إلى سلطات مملكة «نابولى» وإلى المآرب والتقاليد الرسمية التى كان عليه أن يحتملها مرغماً، إذ كانت «أجا ممنون» تفد على «نابولى» فى زيارة رسمية.

كان الضابط الشاب فى الخامسة والثلاثين من عمره، وقد قضى ثلاثة وعشرين عاما من هذا العمر فى خدمة البحرية البريطانية - إذ كان تعليمه فى صغره متقطعا ، مضطرباً، مما أغرى خالا له كان ضابطا فى البحرية بأن يسعى حتى عينه على البارجة «ريزونايل» - التى كان ضابطا عليها - وهو فى الثانية عشرة من عمره، وأتاح له فرصا للمران والرحلات مكنته من أن يظهر مهارة واستعداداً، فراح يرقى سلم الرتب بسرعة حتى صار ضابطا برتبة «كابتن» وهو فى العشرين من عمره !

وكان نلسون دمث الأخلاق ، رقيقا، استطاع أن يكسب محبة رؤسائه ومرؤوسيه على السواء.. كما كان أنيقا فى ملبسه ومظهره، وقد ظلت هذه الأناقة تلازمه فى مختلف مراحل عمره .. وبعكس زملائه الضباط - لا سيما أقرانه فى العمر - كان عزوفا عن اللهو ، مكبا على الإطلاع والتثقيف .. وفى سنة ١٧٨٧ قدر له أن يوفد فى رحلة على ظهر البارجة «بورياس» إلى جزر الهند

الغربية، حيث التقى بانجليزية شابة توفى عنها زوجها الذى كان طبيبا فى تلك البقاع، مخلفا لها ولدا يتيما حنا عليه الضابط الشاب، فكان حنوه جواز مرور له إلى قلب الأم الأرملة .. وقادتهما علاقة من الود والرزانة – لا الحب المشبوب – إلى الزواج .. فكان «نلسون» زوجاً وفياً ، مخلصا .. ومن هنا ندرك سر عزوفه عن اللهو الذى كان يستهوى زملاءه والبارجة تقترب بهم ، شاقة طريقها خلال مياه خليج «نابولى» فى ذلك الصباح من صيف سنة ١٧٩٣.

وإذ كانت البارجة فى زيارة رسمية، فقد لقي «نلسون» فى انتظاره على الشاطىء «السير وليم هاملتون» الوزير البريطانى لدى بلاط ملك «نابولى».. وارتاح نلسون إلى ترحيب الدبلوماسى العجوز الذى كان إذ ذاك فى أوائل العقد السادس من عمره.. وأحس بكثير من الشرف والتكريم إذ وجده فى استقباله، فقد كان يعرف أن «السير وليم» أخ غير شرعى لجورج الثالث ، ملك انجلترا!.. كما كان يعرف عنه أنه دبلوماسى ناجح. استطاع أن يفوز بثقة البلاط الملكى فى «نابولى» فظل مبعوثا دبلوماسيا لبلاده هناك منذ سنة ١٧٦٤ – أى نحو ثلاثين عاما! – وفوق هذا وذاك كان السير وليم عالما ومؤلفا، وضع كثيرا من الدراسات عن البراكين والزلازل.

على أنه كان قبل كل شيء مضيافا كريما، وقد ارتاح نلسون إلى حفاوته ، فلم يتردد فى أن يقبل دعوته إلى زيارته فى داره .

وفى الصباح التالى قصد نلسون إلى دار الوزير، فوجده متغيبا فى بعض المهام .. لكن الخادم الذى فتح له أنبأه بأن «الليدى هاملتون» ستسعد بأن تستقبله .. وقاده إلى بهو واسع أنيق ، جلس فيه الضابط البحرى الشاب ينتظر، وقد شغله عن الوقت جمال التحف واللوحات التى تناثرت حوله فى كل مكان.

وفجأة انبعثت فى الجو ضحكة ناعمة، ذات رنين عذب، فإذا الضابط يبادر معتدلا فى تحفز وتوتر، كشخص أُنذر بخطر قريب.. ثم جاس بعينيه فى حذر، فإذا فى أحد أركان البهو الواسع، فنان أقام لوحة على حامل، واستغرق فى الرسم.. وأمام اللوحة ، رأى نلسون قواما أملد، ملفوفا فى رشاقة فاتنة ، يعلوه تاج من شعر ذهبى انطلقت خصلاته فى تمرد حبيب.. ثم وجه صبوح، جميل له عينان زرقاوان بعيدتا الأغوار كأنما لا قرار لهما! وفم دقيق جميل له شفتان كالعقيق يوحي منظرهما بحساسية مرهفة ، وعواطف مشبوبة ، وكأنهما تهتفان بدعاء صامت إلى التقبيل .. ثم عنق جميل ، ناصع البياض .. وصدر ناهد، برز فى إغراء وغواية.

وبهت نلسون !.. وظنها فى البداية ابنة السفير أو ضيفته ، ولكنها لم تلبث أن تقدمت ترحب به، فأدرك أنها .. «ليدى هاملتون»!

★★★

هكذا تم أول لقاء بين «هوراشيو» و .. «ايما» !

أما اللقاء الثانى فكان فى مأدبة أقامها السفير فى ذلك المساء تكريما له.. وفيه ألقى «الكابتن» البحرى نظرات مشدودة إلى الشابة الجميلة زوجة السفير الكهل، لا تقوى على أن تتحول عنها.. وقد أذهلته بسماتها الساحرة، وأثمله حديثها ، وأطربه الصوت العذب ذو الجرس المشجى الذى كان ينبعث من فمها الفاتن !

ولم يكن بد من أن يلاحظ «السير وليم» النظرات المشدوهة.. ولكنه لم يعجب لها ، ولم يحنق من إصرارها على التطلع إلى زوجته - بل لعله رأى فيها تحية مرتقبة لجمال «ايما» منذ اعتاد أن يرى فتنتها تسحر الناس ! - وفى غمرة هذا السحر رسم لها الفنان المشهور «جورج رومنى» ثلاثا وعشرين لوحة فى شتى الأوضاع والأشكال - وقد عاش الرسام يؤكد أنه لو قضى العمر كله يرسمها ما استطاع أن يلم بكل نواحى الالهام الفنى فى جمالها الخلاب الخالد !

وفى غمرة هذا السحر أيضا هبط وحى الشعر على «جيته» – شاعر ألمانيا العظيم – فتغنى بفتنة «ايما» الطاغية فى إحدى قصائده الخالدة !.. بل إن هذا السحر تجاوز الرجال إلى النساء، فإذا ملكة نابولى «ماريا كارولينا» تنزل «ايما» من نفسها منزلة خاصة تفوق منزلة الصديقة والأنيسة .. بل تفوق منزلة الأخت !

والتقى كابتن البارجة «أجا ممنون» بعد ذلك بزوجة سفير بلاده فى نابولى مراراً – منذ كانت الزيارة كما ذكرنا رسمية ، ومن ثم توالت خلالها الحفلات والمآدب – وفى كل مرة ، كان الشاب يزداد بها اعجابا.. حتى أنه حين غادرت بارجته مياه نابولى فى نهاية مدة الزيارة ، لم يستطع أن يقاوم رغبة طاغية فى أن يكتب إلى زوجته «فرنسيس» عن «ايما» !!.. فراح يتلمس لذلك الأسباب ، حتى عثر على حجة مقبولة : إذ كان ابن زوجته – من زوجها السابق – فى صحبته ورعايته، فكتب يشيد لها بما لقيه «جوزيا نسيت» من حنو «ليدى هاملتون» التى كانت رائعة فى كرمها ولطفها ، ثم انطلق قلمه يسجل اعجاباً سافراً تجاوز حدود التحفظ والاعتدال ..!

امرأة ذات ماضٍ !

وما أدرك «نلسون» ولا «ايما» إذ ذاك أن القدر قد ربط حياتهما إلى الأبد، منذ أن تعارفا!.. بل ما كانت «ايما» – على

جمالها وتزلف الرجال إليها - لتتصور يوما أن تشرك مع زوجها أحداً فى الوفاء الذى كان يعمر قلبها .. لا لأنها كانت متيمة بذلك الزوج، (فالواقع أن السير وليم كان يكبرها بأكثر من ثلاثين عاما، ولم يكن فى شيخوخته المتزنة الحكيمة ما يأتلف مع شبابها الفائر المتفجر!).. وانما كانت تدين له بولاء لا حد له ، لأنها عرفت له مآثر لم تر مثلها من إنسان .. فقد انتشلها من وهدة سحيقة، فسما بها إلى أرقى مكانة .. وكانت دائما تذكر له هذا الفضل، فلا تملك إذ تستعرض تاريخ حياتها إلا أن تزداد له عرفانا.

كانت ايما قد رأت نور الحياة أول ما رأته - فى سنة ١٧٦٥ - فى بيت عامل فقير من عمال مناجم الفحم فى مقاطعة «تشيشاير» يدعى «هنرى لا يونز» .. وبدا اشراق جمالها - منذ طفولتها - خلف ستار من غبار الفحم الذى كانت تنقله فى عربة يجرها حمار، فتطوف أرجاء بلدة «جريت نيستون» لتتبعه .. ثم قدر لها - وهى فى الثالثة عشرة من عمرها - أن تعمل خادمة .. وتكشفت لعينيها إذ ذاك فتنتها فأثارت فى نفسها طموحاً حفزها على أن تفر إلى لندن، حيث التحقت بالعمل فى أحد المتاجر.. ولكن الحياة خلف منضدة البيع فى المتجر المعتم لم تكن البغية التى اشتهتها.. فقد كانت معتدة بجمالها ، فأرادت أن تسلط عليه الأضواء كيما ينبه بريقه الأنظار.

ولكن الطريق لم تكن سهلة كما ظنت ، بل كانت حافلة بالمزالق .. وانزلقت «ايما» بالفعل !.. وانتهى بها الزلل إلى العمل فى الحانات كسميرة لروادها ، وإلى التسكع فى مشارب «كوفنت جاردن» لتصيد الرجال ..!!

غير أن طموحها لم يكن ليجعلها راضية عن حياتها هذه .. بل انها كانت تنشد رجلا واحداً تؤثره بحبها ، وتنعم بحمايته .. وساق لها القدر هذا الرجل في شخص «تشارلس جريفيل» وكان شابا عابثا من أبناء الطبقة الراقية ، رأى فيها زهرة فى غمرة الوحل فانتشلها فى سنة ١٧٨١ – وهى بعد ، رغم ماضيها الحافل ، لم تتجاوز السادسة عشرة – واتخذها عشيقة خاصة له.

وأحست «ايما» بالطمأنينة والكرامة لأول مرة فى حياتها ، فشاءت أن تضرب بينها وبين ماضيها ستاراً ! فكرست نفسها لجريفيل، واستبدلت باسمها اسم «اميلى هارت»، وعاشت معه معيشة الزوجة العاشقة ، وان لم تربطها به رابطة الزواج الشرعي.

ولكن الحياة التى كان يحياها «جريفيل» كانت تضطره إلى نفقات تفوق موارده .. وزادت رعايته للفتاة من أعبائه .. فقد حنا عليها صادقا ، وراح ينفق على تعليمها الغناء والرقص والتمثيل ،

ليكفل لها مهنة تصونها من ذلك التسكع وراء طلاب اللهو الرخيص.

ورآها عنده الرسام النابغة «رومنى» لأول مرة ، فبهره جمالها وحيويتها، وطغيان سحرها وفتنتها، فراح يحاول جاهداً تسجيل هذه النواحى الفذة فى لوحات خلدت اسمه فى عالم الفن !

وظلت «ايما» فى رعاية «جريفيل» ثلاث سنوات، أخلصت له فيها الود ، وكانت أمينة فعلا على عهده - بل لعلها أحبته حقا وتعلقت به! - وذات يوم، زاره خاله «السير وليم هاملتون» وكان قد عاد إلى انجلترا فى أجازة قصيرة ، فما وقع بصره عليها حتى أحس بالحياة تدب فى القلب الذى أثقلته ثلاث وخمسون سنة من العمر، والذى خاله قد مات حين ماتت - قبل ذلك بعامين - الزوجة التى أورثته ضيعة وثروة طائلة .

وهتف السير وليم بابن أخته : «الآن فهمت سر إلحاحك فى طلب المعونة المالية حتى كدت تستنزف مواردى!».

وأعجب «السير وليم» بعشيقة ابن أخته .. وسحرته الفتاة بما أوتيت من لطف ولباقة وذكاء ، فلم يضن على «جريفيل» بمال !

ولكن ديون جريفيل أخذت تتراكم وتستفحل ، حتى جاء اليوم الذى غدا فيه مهدداً من دائنيه.. بيد أنه لم يحفل إذ ذاك بشىء

قدر ما حفل بفتاته ومستقبلها، إذ أدرك أنه لن يستطيع أن يوفر لها الحياة المطمئنة التى تقيها أدران الوحل !

وكان خاله ملجأه ومستشاره، فكتب إليه يسأله الرأى .. وجاءه الرد صريحاً رغم كل مجاملة : فلقد عرض عليه السير وليم أن يسد له جميع ديونه ، مقابل أن ينزل له عن .. «ايما» !

يبيع عشيقته .. سداداً لديونه !

وألفى «جريفيل» نفسه ينكر على خاله هذا الاقتراح ويستهجنه !.. ولكن إلحاح الدائنين كان يلاحقه فى نذير رهيب .. حتى وجد نفسه موزعا بين عدة عوامل ، خشيته أن ينفذ الدائنون وعيدهم .. واعتزازه بالفتاة .. وثقته بإخلاصها فى حبها له.. ثم رغبته في أن يطمئن على مستقبلها .. وأخيرا حنقه على خاله واستنكاره الثمن الذى أراده للمعونة !

ولكن الدائنين لم يتركوا له فرصة للتفكير ، فاضطر إلى الاسراع فى العمل: عرض اقتراح «السير وليم» على «ايما» .. لكنها استنكرته ، وصاحت به والدموع تفيض من عينيها :

– إذا كنت قد مللتنى وسئمت معاشرتى ، فخير لى أن تطردنى عن أن تبيعنى !

ولكنه مازال بها يشرح لها الموقف ودقائقه، ويزين لها الحل ، حتى خفت ثورتها، ووهنت معارضتها.. فألقت برأسها الجميل على

صدره وهى متعلقة بعنقه، وتشبثت به وكأنها تحتمى من المصير المرتقب .. بينما قال لها «جريفيل» مسريا : «اعتبريها تجربة .. سأرسلك إلى نابولى فى زيارة تنزلين فيها ضيفة على خالى ، فإذا راق لك العيش هناك ، بقيت .. ومن يدرى ؟.. لعل الحالة تتبدل فأسعى بنفسى إلى اللحاق بك لأستردك.. وإذ ذاك ، سأناضل خالى ما وسعنى النضال من أجلك!».

وسافرت إلى نابولى ، حيث تلقاها «السير وليم» ولما تمض سنتان على لقائهما الأول .. ولم تمض أربعة أعوام على وفاة زوجته !.. ولعله لم يرم إلى الاستئثار بالفتاة إشباعاً لعاطفة جامحة أو قلب آبق ، ولكنه كان ذواقا للجمال الفنى ، ينفق عن سعة فى اقتناء التحف.. وقد كانت «ايما» تحفة رائعة أبدعتها الطبيعة!

جمال يغزو البلاط الملكى

ومر شهران ، وثلاثة، وأربعة .. وارتاحت «ايما» إلى الإقامة فى نابولى، فلقد أتاحت لها مكانة «السير وليم» فرصة الظهور فى أرقى المجتمعات ، فإذا بجمالها يتألق، وقد زاده رواء ما وفره لها السفير من حياة ناعمة ورفاهية !.. ثم أرضت أقصى جموح طموحها يوم أتيح لها أن تدعى إلى حفلات البلاط الملكى فى نابولى ، حيث طغت بحسنها وأناقتها وروحها المرحة على كل

الحسان.. حتى لقد مالت إليها «ماريا كارولينا» - الملكة - ثم استحال الميل إلى صداقة وطيدة ! فغدت «ايما» من أقرب الناس إلى قلب الملكة التى كان لها من قوة الشخصية والإرادة ما جعلها تطوى الملك فى أطواء نفوذها .. وتصبح صاحبة الكلمة الحقيقية فى المملكة!

ولمع نجم «ايما» فى سماء مجتمع نابولى حتى غدت محوطة بالمعجبين والهائمين، من الرجال والنساء!.. وأصبحت أثوابها «موضة» تحتذى .. وحفلاتها مناسبات يسارع الكل إليها، ليشهدوا تلك اللوحات الحية والأدوار التى كانت تقوم بتمثيلها لتسلية الضيوف !.. وبلغ من رجاحة عقلها وحضور بديهتها ، وتألق ذكائها ، أن اعتبرتها الملكة بمثابة مستشارتها الخاصة .. تلجأ إليها إذا حزبها أمر، أو أعوزها تدبير.. وتدعوها لمسامرتها كلما أثقلها الضجر من حياة البلاط ، أو برمت بنفاق رجال الحاشية!.. بل لقد بلغ من اعتزاز الملكة بها ، وإيثارها إياها ، أن قالت لها يوما : «إننى لأود أن تكون ثيابنا دائما متماثلة ، حتى نبدو كأختين!!».

وكان طبيعيا أن يدرك الديبلوماسى الانجليزى العجوز مدى أهمية هذه العلاقة بين «ايما» و«ماريا كارولينا».. لذلك لم يتردد طويلا حين فهم من الاشارات العابرة المستترة أن الملكة تسأله أن

يجعل لإيما صفة رسمية حتى تستطيع أن توطد علاقتها بها وأن تنزلها من البلاط المنزلة التى تريدها لها، دون خوف من نقد ناقد أو تعريض ناقم !.. فكان أن فاجأ السير وليم عشيقته ذات يوم من صيف سنة ١٧٩١ - وكان قد اصطحبها إلى انجلترا فى أجازة - فاجأها متسائلا : «ما رأيك يا عزيزتى فى اسمى؟» .. فأجابت «ايما» فى لهجة صادقة : «إنه أعز الأسماء وأكرمها ..».

- فما رأيك فى أن ألحقه باسمك ؟

وشهقت «ايما» مذهولة .. لا لأن الفرق بين عمريهما كان يروعها ، وإنما لأنها لم تكن تحلم بأن يكون لها مثل ذاك الاسم وهى تحمل وراءها ماضيا ذليلا..!

واستطرد سير وليم هاملتون : «إننى لا أعبأ البتة بالأوضاع ما دمت معى.. ولكننى أريد أن أعزز مركزك وأن أرفعك فوق الجميع!».

وفى ٦ سبتمبر من ذلك العام ، عقد زواجهما .

وبهذا الزواج بدأت صفحة جديدة فى حياة ايما .. صفحة «السفيرة» التى تقدر واجب الوفاء للوطن الذى تمثله ، والوفاء للزوج الذى أكرمها وانتشلها من مهاوى الذلة ليرفعها إلى مجالس الملوك !.. كما تقدر مقتضيات مكانتها لدى الملكة التى بدأت تطورات السياسة الأوربية - لا سيما عقب قيام الثورة الفرنسية -

تجعل لملكتها قيمة سياسية و«استراتيجية» كبيرة !.. وهكذا غدت «ايما» همــزة الوصل بين زوجــهــا والملكة .. وبالأحــرى ، بين السلطات البـريطانيـة والرأس الحـاكم فى نابولى!.. وكـثـيـرا مـا اسـتـعـان بـهـا «السـيـر وليم» فى اقناع الملكة بالإقـدام على أمـور تخالف سياسة زوجها الملك «فرديناند»!

وكانت «ايما» رغم كل ماضيها ، صادقة فى ولائها للسير وليم هاملتون أمينة على عهده.. لا يعيبها سوى أنها كانت مسرفة ، شغوفة بالبذخ .. وقد لا يكون هذا عيبا إذا ما تذكرنا أن الملكة نفسها كانت تحملها على أن تجاريها ، لتظهرا معا «كأختين شقيقتين».

وفى تلك الأثناء ، كانت الأحداث تتوالى على المسرح السياسى الدولى فى تعاقب سريع : فقد نشبت الثورة الفرنسية فاهتزت عروش أوربا لانهيار العرش الفرنسى، وبدأت الدول الملكية تتحوط، وتتقارب لتتدبر سلامتها!.. ثم ظهر «نابليون» على المسرح بطموحه المشبوب ، وخططه الجريئة .. فبدأت بريطانيا ترى فى حركاته ما يهدد نفوذها فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وترى فى سياسته ما يهدد امبراطوريتها ، وفى نجاحه ونجاح الثورة ما يهدد الملكية والعرش فيها.

ومن ثم كانت بريطانيا أكثر الدول الملكية إسرافا فى عداء

فرنسا وجمهوريتها ونابليونها !.. وراحت قطع الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض تتحرك قلقة ، فإذا أبت إلى قواعدها حينا ظلت فى رسوها متحفزة !

وهيأ هذا الجو خير الفرص للیدى هاملتون كى تظهر على مسرح السياسة ، مستغلة مركزها فى بلاط نابولى ومكانتها لدى «ماريا كارولينا» حتى ليعزى إليها الفضل فى حصول بريطانيا على كثير من البيانات المهمة والأسرار السياسية الخطيرة التى أحاطت ببلاط نابولى وسياسة ملكها «فرديناند» فى سنة ١٧٩٦.

دموع امرأة .. تسعف بريطانيا !

ولكن أهم أدوار «ايما» على المسرح السياسى لم يبدأ إلا فى سنة ١٧٩٨.

كان «نلسون» إذ ذاك يذرع البحر الأبيض بحثا عن الأسطول الفرنسى الذى أحاط نابليون حركاته بتكتم شديد، وهو يعد عدته لغزو مصر!.. وفى ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام الأخيرة من ربيع ذلك العام ، أوقظ «السير وليم هاملتون» من نومه على مقدم رسول يحمل رسالة خطيرة من نلسون أعرب فيها عن أن الظروف قد جعلت سفنه فى حاجة ماسة إلى أن تأوى إلى مياه نابولى وصقلية – لتتزود بالماء والمؤن – فى طريقها إلى تعقب الأسطول الفرنسى !.. ولما كان «فرديناند» قد عقد معاهدة مع نابليون تعهد

فيها بأن لا يسمح لأكثر من سفينتين من سفن الأسطول البريطاني بدخول أى ميناء تابع لملكة نابولى ، فقد كان لزاما على السفير أن يسعى بكل حيلة إلى الحصول على إذن من الملك لإيواء سفن نلسون فى ميناء نابولى.

ولم يُضع هاملتون وقتا ، بل هرع إلى «فرديناند» الذى بادر بدوره فدعا مجلسه إلى الانعقاد لبحث الأمر.. ولكن الخوف من الفرنسيين كان مسيطراً على المجلس ، فرفض أعضاؤه رجاء نلسون .. وبدا أن لا مفر للقائد البحرى الانجليزى من أن يعود إلى «جبل طارق» إذ أن بارجة القيادة «فانجارد» كانت قد فقدت صاريتها أثناء عاصفة هوجاء ، وبات لابد من اصلاحها .. ولكن العودة إلى «جبل طارق» كانت كفيلة بأن تضيع على نلسون كل أثر للأسطول الفرنسى أو فرصة للعثور عليه.

وإذا كان «هاملتون» قد استسلم فى تلك الظروف لليأس ، فإن «ليدى هاملتون» أبت أن تجاريه، بل أسرعت إلى صديقتها الملكة ، فألقت بنفسها عند قدميها باكية .. وهتفت بين عبراتها : «بحق الحب الذى بيننا، هلا أجبت توسلى ؟.. أنت - وأنت وحدك - التى تستطيع انقاذ الموقف .. وأنت .. وأنت وحدك التى تملك من السلطة ما يخول لها أن تأذن لأسطولنا بدخول الميناء.. فاكتبى

الإذن الآن !.. اننى أتوسل إليك أن تؤدى هذا الصنيع لإيما .. صديقتك !».

وترددت الملكة فى البداية ؛ فقد خشيت عواقب تدخلها فى مسألة خطيرة كهذه ضد إرادة الملك ومستشاريه ! - ولكنها لم تقو على مقاومة توسلات صديقتها الأثيرة الحبيبة .

وسرعان ما كان رسول نلسون ينطلق إليه بأقصى سرعة يحمل الإذن الثمين !!

وخف هاملتون وزوجته إلى الميناء فى ارتقاب وصول نلسون .. وكانت ايما قلقة ، محمومة ، بادية الانفعال وهى تقف على سطح «اللنش» الذى سعى إلى مدخل الميناء ليستقبل «أجا ممنون» .. حتى إذا التقى بها ، رُفع السفير وزوجته إلى سطح البارجة .

وكانت الدماء قد انحسرت عن وجه «ايما» ولهفتها قد تفاقمت .. كانت تعرف أن نلسون قد فقد ذراعه اليمنى فى مغامرة جريئة للاستيلاء على «سانتا كروز» منذ عام .. وأنه أصيب فى عينه اليسرى فى بعض العمليات البحرية فى «كالفى»» قبل ذلك بثلاثة أعوام ، فأخذت قوة إبصار تلك العين تخبو تدريجيا .. وكانت أنباؤه وأخبار انتصاراته تتناهى إليها فتتقبلها فى عناية واهتمام، وفى صدرها شعور خفى لا تفقه كنهه .. فلما اقتربت الساعة

التى تلقاه فيها بعد فراق دام خمس سنوات ، بدأت غريزة الأنوثة تلقي بعض الضياء على ذلك الشعور الخفى الغامض .. وأخذت هالة البطولة التى أحاطت بنلسون تكتسب لونا ورديا بهيجا ، انعكس من أعماق فؤاد «ايما» !

وإذ رأته بنفسه يخف لاستقبالهما .. وتبينت ما فعلته به سنوات الصراع والكفاح والعمل الدائب .. وشاهدت العصابة السوداء التى استقرت على عينه اليسرى ، وكم السترة الذى خلا من الذراع اليمنى وحمل بدلا منها الاشارات القصبية التى تدل على أنه أصبح برتبة «ريراميرال» .. وجف قلبها ، وكأنها قرأت فى لوحة الغيب ما سوف تتطور إليه علاقتها بذلك البطل المرموق .

ولم تكن ثمة حفلات ولا أوقات فراغ فى هذه المرة .. بل إن نلسون لم يجد وقتا لأكثر من أن يستمع من هاملتون إلى تفصيلات الدور الذى أدته زوجته ، ومن أن يشكر «ليدى هاملتون» على الخدمة الجليلة التى أدتها ، وأن يؤكد لها أنه وبريطانيا بأسرها لن ينسيا لها هذه الخدمة .

ومع ذلك .. فإن الدور الذى أدته «ايما» كان ذا اثر عظيم فى حياتها وحياة القائد البحرى ، فقد فتح عينيهما على أمور لم يجدا ثمة داعيا للبحث عن كلمات تعبر عنها .. وأدركت «ايما» بغريزة المرأة ، أنها حين توسلت إلى الملكة لم تكن مدفوعة بحبها لوطنها

فحسب ، وإنما ملبية لنداء قلبها أيضا ، من أجل بطل أعجبت به ! .. فلما رأته الآن على ظهر البارجة ، ولمحت بريق عينه الباقية ، تبينت أن قلبها لم يكن مغاليا .. وأن نلسون لم يكن يتوق إلى أكثر من أن ينتزع الظفر فى المعركة بأسرع ما يمكن ، ثم يلقي بقلبه عند قدميها ! .. كما أدرك نلسون بدوره أنها لم تكن تزمع أن تدع القلب ملقى دون اكتراث .

وحملت النظرات المتبادلة ، والابتسامات ، وضغط الأيدى ، حديثا صامتا بين زوجة السفير والقائد البحرى .. بين «ليدى هاملتون» و«نلسون» .. بين المرأة والرجل !

وبدأت الحسناء الفاتنة تعيش فى فترة من القلق ، والوجد ، والتكلف ! .. ولا سيما منذ انطلاق نلسون فى أعقاب الأسطول الفرنسى إلى المياه المصرية ! .. فقد شرعت الهواجس ترتاد فى غيابه فكر «ايما» وقلبها .. وأخذت تستريب فى أنه يشعر بما دب فى فؤادها نحوه ، وأن فؤاده قد استجاب بدوره لنداء العاطفة .. وكان القلق قاسيا ، لوعها بألوان من العذاب .. كان قلقا مزدوجا: فهى قلقة على العاطفة الوليدة فى أعماقها ، وقلقة على سلامة البطل الذى كان يسمو فى عينيها وخيالها محوطا بهالة كانت تزداد تألقا يوما بعد يوم !

على أنها عانت ، إلى جانب القلق والوجد ، ضرورة «التمثيل»

والتكلف : كان عليها أن تبسط على وجهها قناعا من المرح الذى اعتاده القوم منها ، ومن الابتسام الذى ألفوه مشرقا على أساريرها ، لتخفي ما كان يضنيها من لواعج وشجون ، وهى المضطرة إلى الظهور فى المجتمع وإلى مخالطة علية القوم فى كل حين ..

وكأنما أشفق القدر عليها من وطأة الجوى والضنى، فما لبثت الأنباء أن أقبلت تحمل البشرى بانتصار نلسون فى معركة النيل ، وتحطيمه الأسطول الفرنسى فى «أبى قير» ! واستولت على «ايما» فرحة مزدوجة: فلقد أسعدها أن اطمأنت على سلامة بطلها ، وإلى عودته مظفراً مكللا بالمجد .. وضاعف من سعادتها أن النبأ سرى فى نابولى كطوفان من السرور ، فإذا المدينة بأسرها فرحة ، طروبا ، وقد انطلق أهلها فى الطرقات يرقصون ويغنون .. إذ كان فى انتصار نلسون ضمان لهم من غزو الفرنسيين ، ومن بطش نابليون .

هكذا كانت «ايما» فى أحزانها الماضية وعذابها وحيدة .. أما أفراحها فقد شاركها الناس جميعا رواءها !

بل إن «هاملتون» نفسه لم تحل الشيخوخة بينه وبين الانفعال .. فإذا هو فى ابتهاجه قد تخلى عن قيود الوقار ، حتى بدا كالتلميذ فى يوم نجاحه .. ! وأعمته حاله هذه عن أن يلاحظ ما

اعترى «ايما» من تغير ، جعلها تبدو كالحالة .. بل كالمجنونة ، تضحك لحظة ، وتبكى أخرى ! .. تشرد أنا لتناجى الاحلام وتحاول أن تغوص بنظراتها فى أطواء الغيب ، وتعيش أنا آخر فى المناسبة الراهنة ، فتأمر بالأثواب كى تعد ، وتفكر فى الحفلات والمآدب والسهرات التى تقيمها حين يصل «نلسون» من ميدان نصره .. !

ولم ير هاملتون فى ذلك ما يريب .. بل لم يلاحظ أحد حقيقة التطور الذى أصابها ، اللهم الا .. «ماريا كارولينا» ملكة نابولى ، التى حدست سرها فأشفقت عليها وحنت فى عطف ومواساة !

نشوة العمر !

وجاء اليوم العظيم .. اليوم الثانى والعشرون من شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ ..

كانت نابولى بأسرها تجتاحها حمى هوجاء ، صاخبة .. وكانت الجموع تحتشد على طول الشاطىء ، ترقب «اللنشات» والزوارق تنتشر على صفحة الماء ، مقلة الملك والملكة وكبار أفراد الحاشية والبلاط ، والسفير البريطانى و «زوجته» .. وكانوا جميعا ينطلقون إلى أطراف مياه «نابولى» ليستقبلوا البطل العائد من مياه مصر ..

وكانت «ايما» على استعداد لأن تجود راضية بما بقى من

عمرها ، كى تنفرد بهوراشيو نلسون فى اللحظة الأولى لوصوله ، وكى تكون أول من يملِّي النظر بطلعته .. ولكن قيود الرسميات كانت تحرمها مما صبت إليه !

ولاحظ القوم كيف كانت وجنتا «ليدى هاملتون» متقرحتين أكثر من توردهما المألوف ، فعزوا ذلك إلى تأثرها بنسيم البحر ! وكانت سيطرتها على أعصابها ، وتمالكها جأشها ، يمكنانها من أن تحتفظ بمظهرها كزوجة لسفير الوطن الذى ينتمى إليه البطل .. لكنها فى أعماقها كانت بعيدة عن الجلد والرزانة .. كان قلبها يخفق فى وجيب عنيف متتابع ، حتى لكأنه يوشك أن يخرق جدران صدرها لينطلق فيسبق الركب إلى الرجل القادم .. الرجل الذى أثار فيه تلك العاطفة الغامضة التى أوحت غريزة الأنثى إلى «ايما» أنها .. الحب .. !

وما إن أشرق نلسون بطلعته ، حتى تخلت عن «ايما» كل مواهبها التمثيلية ، وكل قدرتها على التجلد .. ولمعت عيناها ببريق عجيب .. فهتفت وهى تندفع على الرغم منها : «يا إلهى ! .. أهذه حقيقة ؟! »

ولم تكن تعى ما تقول أو تفعل .. بل إنها لم تشعر بأنها تكلمت ، ولا أحست بأنها اندفعت نحو البطل ، فما بلغت البقعة التى كان يقف فيها على سطح بارجته ، حتى كان انفعالها

العاطفى قد بلغ أقصاه ، فإذا بغاشية تنتابها .. وإذا بها تهوى مغمى عليها .. فتتلقاها ذراع «البارون نلسون أوف نيل» - كما أصبح يدعى - وقد برقت عينه «الوحيدة» إذ رأت الدليل الصادق على أن العاطفة التى تحركت فى أعماقه ، كانت تنعكس على فؤاد «ايما» الجميلة .. وأن الهواجس التى انتابته هو الآخر - خشية أن تكون غافلة عن اعجابه - كانت أضغاث أحلام راودته أثناء المعركة !

وكان كلاهما يتوق إلى خلوة بصاحبه ، كى يطلق قلبه «يفضفض» عما يتخمه من انفعالات ! .. ولكن الرسميات كانت تتطلب من كل منهما أن ينكر ذاته ورغبته .. لذلك لم تلبث «ليدى هاملتون» أن تمالكت نفسها بعد أن استردت وعيها ، فوقفت إلى جانب زوجها تؤدى دورها كما كان ينبغى أن يؤدى !

لكن الرسميات كان لابد لها أن تنتهى مهما طالت اجراءاتها .. وحظى «نلسون» و «ايما» باللحظة التى كانا يتوقان إليها فى لهفة وحنين .. وبدلا من أن يندفع كل إلى أحضان الآخر ، كما كان يخال ، ألفيا نفسيهما يسترسلان فى نوبة من الخشوع والرهبة .. تاركين أمر المناجاة للقلبين والروحين .. كل ما قويا على اطلاقه من شفاههما هتافان انسابا فى همس ناعم حنون : «إننى أعبدك ! » .. «وأنا أهواك» !

وعاد الصمت يرين عليهما .. صمت واجم .. فكأنما الهمستان الناعمتان قد أيقظتا عقلى المفتونين ، فتنبها إلى حقيقة الظروف التى تحيط بحبهما ، فما كانت مبادىء الأخلاق ، ولا مبادىء الدين، ولا مبادىء الشرع والقانون ، لتقر هذا الحب أو ترحب به .. كان كل من العاشقين مقيدا بروابط الزواج من آخر غير الرفيق الذى اختاره قلبه أخيرا .. لكن زواج كل منهما كان فى الواقع مجرد قيد لا أكثر ، فقد كانت ايما «زميلة» أو صديقة لسير وليم هاملتون ، أكثر منها زوجة ، ولكن الاحترام والعرفان بالجميل كانا يشدانها إليه .. وكان نلسون لا يحس لزوجته بأى أثر فى حياته ، أكثر من أنها مجرد رمز ، بل قيد يمنعه من أن يحظى بما يهفو إليه قلبه .. قيد لا سبيل إلى الفكاك منه !

غير أن غرامهما كان قويا جامحا ، فلم يلبث أن حطم القيود واجتاح العوائق .. وأحس كل منهما خلال المدة التى بقيها نلسون فى نابولى أن لا قبل لهما بالفراق بعد هذا اللقاء ، بل ان الفراق بدا أمراً مستحيلا .. وككل عاشقين شعرا بأن غرامهما أقوى من القواعد التى اصطلح عليها المجتمع وجعلها إطارا يحصر فى نطاقه كل علاقة بين رجل وامرأة .. ومن ثم شرعا يعدان الخطط للمستقبل ، على أساس التمرد على قيود المجتمع .

وكان نلسون لا يفتأ يتمتم وكل منهما فى أحضان صاحبه : «كم أتمنى أن تكونى إلى جانبى دائما .. يا أعز الناس»

وتجـيب «ايما» نشـوانة : «بل يجب .. لسـوف أبقى إلى جانبك» .

– لشد ما يحزننى أننى لا أستطيع أن أتخذك زوجة ..

– سأقنع بأن أكون زوجتك أمام الله !!

– هو هذا .. إن «فرانسيس» زوجتى أمام المجتمع .. أما أنت فزوجتى أمام الله !!

ثم يستغرق فترة فى التفكير .. ويتمتم فى شرود ، وكأنه فى عالم آخر :

– إننى أقدرها وأحترمها ، ولكنى ما شعرت يوما بأننى وهبتها قلبى ! .. أنت أول من استولى على هذا القلب .

– أتراني أكون آخر من يستولى عليه أيضا !

– بلا شـك .. قطعا .. لقد غدا ملكك ، ولم يعد لى سلطان عليه ..

– رددها مرارا ، فما أمتع أن أسمعها من شفتيك !

وكانت المهرجانات والحفلات الساهرة الصاخبة التى تتابعت فى نابولى بمثابة أفراح شهر العسل لذلك الزواج غير الشرعى الذى ربط بين ايما ونلسون .. وكان القائد البحرى موضع التكريم

في كل حفلة ، في حين كانت «ليدى هاملتون» النجم اللامع الذى لابد منه ليكتمل جمال الاحتفال !

وبدا كأن هذه الأفراح لا تريد أن تنتهى .. وكانت «ايما» تتفنن في الابتكار في كل حفلة ، فظهرت في احداها وقد ارتدت ثوبا ابتدعته ونثرت على رقعته أسماء المعارك التى انتزع فيها نلسون لواء النصر والظفر .. وفى حفلة أخرى أقيمت على سفينة القيادة وكانت هى ضيفة الشرف فيها ، تنكرت فى زى «كليوباترة» الملكة التى عاشت للحب وماتت من أجله !

على أن هذه المباهج كلها ، ولذائذ الغرام التى أقبل العاشقان على ارتشافها فى نهم ، لم تلههما عن واجباتهما الوطنية .. فقد كانت انجلترا فى تلك الأثناء منهمكة فى تكوين حلف أوربى ضد نابليون ، فسعت ليدى هاملتون جاهدة لدى الملكة لتضمن أن يكون لانجلترا مكان الصدارة فى مياه نابولى والمرافىء التابعة لها .. وكان الملك قد فرغ من حشد جيش اعتزم أن يرسله لمناوأة قوات «نابليون» ولكن الرأى لم يستقر على الخطة التى يستغل فيها هذا الجيش ، فاقترح نلسون أن يسير الجيش زاحفا نحو الجبهة الفرنسية فى الشمال .. واستطاعت ليدى هاملتون أن تقنع الملكة ، فمازالت هذه بملكها حتى وافق على الخطة .. وإذ ذاك تحرك الاسطول البريطانى ليقطع خطوط الاتصال الفرنسية .. ووفق

الاسطول فى مهمته .. أما جيش نابولى فتقاعس ، ثم شاعت فيه الفوضى ، مما مكن الفرنسيين من أن يطاردوه .

وهالت هذه الحال معارضى الملك من أنصار الجمهورية فى نابولى فثاروا .. وغدت الاسرة المالكة مهددة بالخطر .. فانقلبت الآية .. وكما توسلت ليدى هاملتون إلى ماريا كارولينا يوما كى تساعد الاسطول البريطانى ، توسلت «ماريا» إلى «ايما» اليوم كى ترد لها الجميل ، فإذا سفن نلسون تنقذ الاسرة المالكة من الثورة، وتنقلها إلى باليرمو التى اتخذت عاصمة مؤقتة للحكم ..

وهناك كان لنلسون وايما النفوذ الأعلى !! وزاد من مكانة القائد البحرى أنه نجح فى أن يفرض - فى آن واحد - حصاراً على مالطة لمقاومة الفرنسيين ، وحصارا آخر على خليج نابولى ضد الثوار الجمهوريين .. وهكذا ركن إلى الحصار بدلا من السعى إلى القتال .. ويقول المؤرخون إنه أراد بذلك أن يجنب أسطوله ورجاله الخسائر .. ويقول الادباء : بل إنه رأى فى سياسة الحصار خير ما يمكنه من البقاء على البر ، لينعم بحب «ايما» ! .. وأيا كانت الحقيقة فإن العاشقين تحررا فى باليرمو من كل تحرج، فأوغلا فى هواهما .. غير مبقيين على شىء ولا مباليين بأحد . على أن «فرديناند» و«ماريا» ملاّ الانتظار ورأيا أن الحصار سياسة تستغرق أمدا طويلا ، فأوفدا «كردينالا» من

الموالين لهما ليستنهض همم المخلصين لهما من أعوانهما .. وألف الكردينال «فابريزيو رفو» جيشا من المتطوعين استطاع به أن يضطر الفرنسيين وأنصارهم من الثوار إلى أن يلوذوا بقلاع نابولى فيعتصموا بها ..

ونجحت ايحاءات «ليدى هاملتون» إلى الملكة ، فبدأ الملك يتوجس خيفة على نفوذه من نجاح «رفو» .. وازداد قلقه حين نمي إليه أن الروح المعنوية لدى متطوعي جيش الكردينال بدأت تتخاذل كلما طال أمر محاصرتهم للقلاع ، مما حمل الكردينال على أن يسعى لعقد صلح مع الفرنسيين .. ومن ثم لجأ الملك إلى نلسون فسأله أن يزحف على نابولى ويستولى على مقاليد الأمور فى يديه..

وتحرك أسطول نلسون ، ومعه على سفينة القيادة كل من «هاملتون» وزوجته ! وفى ٢٤ يونيو ١٧٩٩ وصلوا إلى نابولى فإذا بهم يفاجأون بعلم أبيض يرفرف على القلاع .. فإن «رفو» كان قد وقع صلحا مع كل من الثوار والفرنسيين ! .. لكن نلسون أبى أن يعترف بهذا الصلح ، لا سيما وأنه أدرك أن العدو كان مستعداً قبل ذلك للاستسلام ..

وكان «رفو» قد أمن الجمهوريين على أن يبرحوا البلد بحراً فما كان من نلسون إلا أن فاجأ مراكبهم واعتقل عددا كبيرا

منهم ، وأعدم أحد كبارهم بعد محاكمة عسكرية عقدها على ظهر بارجته !

لكن تصرفات نلسون هذه أثارت ثائرة معارضيه وحاسديه – من مواطنيه الانجليز – فاتخذوا منها مادة لينسجوا الدسائس ضده .. وفى تلك الأثناء عين «اللورد كيبث» قائدا للأسطول البريطانى فى البحر الأبيض ، ولكن نلسون لم يرتح إلى التعاون معه .. بل إنه لم يرض عن بعض خططه فعارضها ، وذهب إلى حد رفض أوامره ، تمسكا بآرائه فى بعض نقاط «التكتيك» البحرى ! .. ومع أن الأحداث التى تلت ذلك أثبتت صحة آراء نلسون إلا أن ذلك لم يكن كافيا لتبرير تمرده على قائده الأعلى .. فحصل على اجازة رأى أن يعود فيها إلى وطنه ليعمل على تصفية الجو بينه وبين رؤسائه وحكومته ، ويبدد عن نفسه أمام الرأى العام البريطانى ما أشاعه عنه المؤتمرون ضده .

وفى تلك الأثناء بلغ سير وليم هاملتون سن السبعين فأعفى من منصبه .. وإذ كان الرجل يحب «ايما» ويمجد نلسون ، لذلك فإنه اشتق من هذا التمجيد وذلك الحب فلسفة سمحت له بأن يرضى عن سفر نلسون معه ومع زوجته برا عبر الدول الأوربية .. أو على الأصح رضي بأن يكون فى ركاب العاشقين ، وأن يجعل من نفسه راعيا ومستشارا لهما !

وكان وداع نابولى لثلاثتهم أليما ، فقد شق على «ماريا كارولينا» أن تحرم من المرأة التى كانت سميرتها وصديقتها المفضلة . وكان أبسط تقدير قدمته لها أن أوحت إلى زوجها فأنعم عليها بوسام «صليب مالطة» - فكانت أول امرأة تنال هذا الوسام! - كما أنعم على نلسون بلقب «دوق برونتى» ..

وكانت الرحلة سلسلة من الاستقبالات وحفلات التكريم ، على طول الطريق .. فى «ڤيينا» و «براج» و «درسدن» و «هامبورج» .. وكانت من أعذب الفترات فى حياة العاشقين .. فقد كان كل منهما منصرفا فيها إلى الآخر ، مستغرقا فى هواه ، لا يكاد يحس لسواه وجودا !

وفى انجلترا ، ازداد العاشقان جرأة واستهتاراً .. حتى لقد عرض نلسون على زوجته «فرانسيس» أن يقيما و «هاملتون» وزوجته فى بيت واحد ! .. وراح يعرض الزوجة الصابرة لأقسى مظاهر الهوان .. بل كان ينصرف عنها ليغمر «ايما» - التى كانت تشاطرهما مقصورتهما فى المسرح ، ومائدتهما فى المآدب - بكل ألوان الشغف والرعاية ..

وضاقت فرانسيس ذرعا واشتدت شكواها .. وأخذ الشجار يدب بينهما ، فكان نلسون يثور ويغادر البيت ليذرع الطرقات طيلة الليل .. حتى يطلع النهار فيسعى إلى دار «هاملتون» ينشد

السلوى! .. وشجع هذا «ايما» على أن تشيع فى كل مكان أن فرانسيس تقف عقبة فى طريق صعود زوجها إلى قمة المجد ..

وتملك القنوط فرانسيس أخيرا ، فهجرت نلسون . ولكنها ظلت تحن إليه ، حتى لقد كتبت له بعد عام تقول :

« .. لقد أعددت لك بيتا دافئاً مريحا ، لو شئت يا زوجى العزيز أن نعيش معا .. وثق أننى لن أشعر بالسعادة إلا يوم يتحقق هذا .. ودعنى أذكر لك ثانية ، أننى لا أملك غير أمنية واحدة فى هذه الحياة : هى أن أرضيك .. فلندفن كل ما حدث فى أعماق النسيان فسرعان ما يصبح حلما زائلا ..»

ولكن نلسون كان يترقب هذه الفرصة ، لينفصل عن زوجته نهائيا ، كى يكرس كل حبه ، وعاطفته لإيما .. وعندما أوحت «ايما» إلى زوجها أن يدعوه للاقامة معهما عقب الانفصال ، لم يتردد فى الاستجابة !

ثمرة الهوى الحرام !

وأترعت كأس نلسون بالسعادة ، حين أنجبت له «ايما» ثمرة غرامهما المحرم : «هوراشيا» .. ابنته الوحيدة ! - وإن كان الخوف من ألسنة المجتمع قد اضطره إلى أن يزعم أنها ليست ابنته وإنما هو قد تبناها ! - وكانت هوراشيا قد ولدت وهو فى الشمال يخوض معركة «كوبنهاجن» .. وزاد انتصاره فى هذه

المعركة من تقدير وطنه له .. ومن شغف ايما به ، فأقامت له حفلة كبيرة غنت فيها ، وعزفت ، وقامت بإحدى رقصات «نابولى» الشعبية العنيفة .

وكانت «ايما» فى غيابه قد شقت طريقها فى البلاط الملكى البريطانى ، واستطاعت أن تظفر بإعجاب ولى العهد .. فحاول البعض أن يتخذوا ذلك وسيلة إلى الإفساد بينها وبين نلسون .. ونجحوا بالفعل فى اشعال غيرته ، فقال لها يوما : «إننى أعرف هدفه .. فهو يبغى أن يتخذك خليلة .. فليصبه الله بالعمى إن هو تطلع اليك ! » .. وانفثأ غضبه بهذه الكلمات فودعها موصيا إياها بأن تحذر الامير .. ثم انطلق إلى البحر ثانية ، ليشن الحملة على «بولونى» إرهابا لنابليون .. ولكن «صلح امين» ما لبث أن عقد ، وآن لنلسون أن يعود إلى الوطن فيخلد إلى الراحة .

وكانت «ايما» فى غيابه قد ابتاعت باسمه منزلا فى «مرتون» تحوطه ضيعة صغيرة .. فعاش فيه العاشقان فى أسعد جو لفهما مند بدء غرامهما .. وكأنما رأى «هاملتون» أن لا مكان له فى حياتهما ، وأنه قد عاش ما فيه الكفاية ، فودع الحياة فى أبريل ١٨٠٢ ، وقد أسند رأسه إلى صدر «ايما» وأمسك بيد نلسون يوصيه خيرا بعزيزته «ايما» !!

تدفعه إلى المجد دفعا!

وبموت هاملتون خلا الجو للعاشقين تماما .. ولكن نابليون عاد يعلن الحرب على انجلترا ، يريد أن يثأر لنفسه .. وأغرت «ليدى هاملتون» بطلها على أن ينفض عنه عزلته ويتطوع لمنازلة غريمه .. وفى ١٣ سبتمبر ١٨٠٣ غادر نلسون عش الهوى فى «مرتون» .. لآخر مرة .. وراح يكتب إليها من عرض البحر يحمد لها تشجيعها، ويصفها بأنها مصدر إلهامه فى سبيل المجد ..

ونشبت معركة «الطرف الأغر» .. التى لقى فيها مصرعه !

وكان قبل انطلاقه قد استسلم للوهم بأن منيته قد حانت ، لدرجة أنه أعد لنفسه التابوت الذى أحب أن يدفن فيه ! .. حتى إذا غادر «قادش» قبيل المعركة ، أحس بهاجس يؤكد له أنه لن يعود إلى «ايما» ، فلما لاحت له سفن العدو ، عكف على كتابة وصية أهاب فيها بالأمة أن ترعى «ايما» لما أدت فى نابولى من خدمات لوطنها .. وأن ترعى أيضا ابنته «المتبناة !» وتسمح لها بأن تحمل اسمه ..

ثم تحول يكتب رسالته الاخيرة إلى المرأة التى تعرف إليها فى نابولى منذ قرابة أحد عشر عاما ، وكان بعد ضابطا مغموراً ، فألهمته الحوافز التى جعلت المجد يدين له ويواليه .. واختتم الرسالة بهذا الدعاء : «ليكلل إله المعارك جهودى بالنجاح ! ..

إننى – على أى الأحوال – سأحرص على أن يبقى اسمى أعز ما تعتزين و«هوراشيا» به .. وأملى فى الله أن يبقي على حياتى حتى تنتهي المعركة فأتم رسالتى ! » .

ولكن الله لم يحقق أمله .. فأصيب قبل أن تنتهى المعركة .

وكانت آلامه فظيعة وهو يحتضر .. حتى جـاد بآخر أنفاسه وهو يقـول لزمـيلـه وصـديقـه «الكابتن هاردى» إنه يتـرك ليـدى هاملتون وهوراشيا «أمانة فى عنق بلادى» .. ثم استطرد يقول : «أعطوا شـعرى وكل مـتاعى لعزيزتى الليـدى هاملتون .. ترى مـا الذى يجـرى للمسكينة إذا علمت بحـالى .. ارع عـزيزتى الليـدى هاملتـون يا هاردى .. الآن أمـوت راضـيـا .. فـقـد أديت واجـبى والحمد لله» .

من القمة إلى الحضيض !

وورثت ليدى هاملتون عن عشيقها ضيعة «مرتون» ومكافأة سنوية قدرها ٥٠٠ جنيه تكريما لذكراه ، كما عهد إليها بأرباح أربعة آلاف جنيه تركها لابنته .. فضلا عن أنها كانت قد ورثت عن زوجها هاملتون دخلا قدره ٨٠٠ جنيه تدفع لها سنويا حتى نهاية عمرها ..

ولكن الاسراف والاغراق فى لعب الميسر لم يبقيا لها شيئاً ، بل أسلماها إلى فقر مدقع ، وإلى ديون أخذت تتراكم عليها ..

فراحت تطرق كل باب عسى أن تقتنع الحكومة بأنها أهل للمعونة، ولكن سعيها باء بالفشل .. وراح الدائنون يطاردونها ويلاحقونها ، ويسدون عليها كل طريق .. حتى انتهت بها مطالباتهم إلى السجن .. بعد أقل من عشر سنوات من وفاة نلسون !!

وهكذا قلب لها الدهر ظهر المجن .. وبعد أن كانت الأثيرة لدى ملكة نابولى غدت حطام امرأة تتعذب خلف القضبان فى غيابة السجن .. حيث قضت عاما كاملا ، تكفيرا عن ديونها !

وفى نهاية العام خرجت من السجن .. شبحا حائلا باهتا لماضٍ متألق ، مشرق ! .. فلم تجد سلوى فى غير الخمر .. بل أرخص أنواع الخمر وأقواها على هدم ما بقى من حياتها ..

وفى مساء ١٤ يناير ١٨١٥ ، كان الليل يشهد فى مدينة «كاليه» الفصل الختامى من مأساة المرأة التى بدأت حياتها بين بائعات الهوى الرخيص ، ثم رفعت رأسها حتى صارت من نديمات الملوك ، وحتى غدت عشيقة القائد الذى كان العالم بأسره يردد اسمه ! .. بل حتى جعلت انجلترا – بلاطا وحكومة وشعبا – تنظر فى رضى وإعجاب إلى أجرأ علاقة آثمة مكشوفة فى تاريخ الهوى الحرام !

ثم انحدرت .. انحدرت حتى دخلت السجن .. وحتى غدت تتسكع على أبواب حانات «كاليه» تحاول أن تجد أعمى ينشد

الهوى عند حطام مهدم .. أو ثمل يجود عليها بكأس من الشراب ولقمة من الخبز !!

وفى ذلك المساء ، كانت الخمر قد أغرقت الذبالة الباقية من مصباح حياتها .. فماتت فى الصباح التالى ، مهدمة ، شريدة ، جائعة .. ثملة !!!



جوزفين

«چوزفين»
حينما يسيطر الحب على قلب الرجل العظيم !!

فى وسع المؤرخ الآن أن يقص حياة چوزفين ، زوجة نابليون ، ويستخلص منها العبر ، بغير أن يتأثر بالمحيط الذى عاشت فيه تلك المرأة المحظوظة . فقد قيلت عنها أشياء كثيرة .. حسنة وسيئة ، والحقيقة أن چوزفين لم تكن امرأة خالية من العيوب . بل العكس ، كانت عيوبها كثيرة ، كميلها الى المرح والملذات ، وطيشها ، وعدم وفائها لزوجها ، وتبذيرها للمال بلا حساب .. الخ . ولكنها بالرغم من ذلك كانت طيبة القلب ، لا ترفض لأحد طلبا .. ولقد دفعت ثمن ضعفها وطيشها غاليا ..!!

وقد تضاربت الآراء والأقوال فى وصف چوزفين وجمالها ، وفى نظرنا أن أقرب الأوصاف الى الحقيقة ما كتبه عنها «كونستان» خادم نابليون الأمين الذى عاش بالقرب منها . يقول كونستان فى مذكراته :

«كانت معتدلة القامة ، متناسقة الأعضاء ، خفيفة الروح ،

شديدة التأثر ، زرقاء العينين ، ساحرة النظرات ، طويلة الشعر ، عذبة الصوت» .

ويضيف كونستان الى هذا قوله : «إنه لم يكن فى وسع رجل أن يقاوم جاذبية هذه المرأة الحسناء الرائعة الجمال» .

نبـوءة

ولدت «مـارى چوزيف روز» فى ٢٣ يونيـو عـام ١٧٦٣ ، فى جزيرة مادانينا من جزر الأنتيل ، وهى التى أطلق عليها الأوربيون اسم «مارتينيك» . وكما أن اسم الجزيرة التى ولدت فيها مارى چوزيف روز قد تغير فيما بعد ، فإن اسم الفتاة ايضا تغير أكثر من مرة مع الأيام .. مارى چوزيف ، ثم مارى روز ، ثم چوزفين . ولكن أهل الجزيرة كانوا ينادونها «يابيت» .

كان أبوها «جسبار تاشر دى لاباجرى» يملك مزرعة فى الجزيرة يدير شئونها وشئون سكانها البيض والسود وكأنه ملك فى دولة صغيرة. وهو سليل أسرة فرنسية نبيلة ، من تلك الأسر الكثيرة التى هاجرت الى العالم الجديد سعيا وراء الرزق والثروة . وقد تزوج جسبار فتاة من أسرة نبيلة مثل أسرته ، هى «روز كلير دى سانوا» ، ولكنه لم يحقق لها السعادة والهناء . فإن جسبار كان غريب الأطوار ، سريع الغضب ، سيىء الخلق ، مما جعل الحياة فى المزرعة مصحوبة بالمتاعب والخلافات ، وزاد الطين بلة

أن هبت عاصفة هوجاء على الجزيرة فخربت المزرعة وأصيبت أسرة لاباجرى بخسائر فادحة .

رزق جسبار وزوجته ابنتهما يابيت . ثم جاءت كاترين ديزيريه بعدها بسنتين ، ثم تبعتها الأخت الثالثة ماري فرانواز أو مانيت ، بعد أربعة أعوام .

ثلاث بنات ! إن هذا كان كافيا لكي يفقد جسبار البقية الباقية فيه من صبر وحلم وحكمة !

عاشت الأخوات الثلاث في أحضان الطبيعة ، وفي رعاية المربية الزنجية ماريون ، بلا تفكير في المستقبل ، وكن يقضين أوقاتهن في اللعب مع أطفال الزنوج من عمال المزرعة ، وفلاحيها .

وعندما بلغت يابيت الخامسة من عمرها ، وقعت حادثة «النبوءة» التي اشتهرت فيما بعد ودونها المؤرخون وعلقوا عليها . ففي ذات اليوم ، وبينما كانت يابيت تسير في الغابة مع مربيتها ماريون ، وقع نظر الطفلة على امرأة زنجية ممزقة الثياب، فما كان منها الا أن أخذت من ماريون قطعة من النقود وأعطتها لتلك المسكينة . فطلبت منها المرأة أن تريها كفها لتقرأ لها المستقبل . وبعد أن تفرست الزنجية في كف يابيت قالت : «الخطوط لا تكذب. سوف تتزوجين قريبا . ولن يكون زواجك

سعيدا . وبعد أن يموت زوجك وتترملين سيتحقق لك كل ما ترغبين فيه ، وستكونين يا ابنتى أكبر من ملكة» !!

أكبر من ملكة ! هذه نبوءة الزنجية التى لم يكن شىء فى ذلك الوقت يبشر بإمكان تحققها ، ولكنها تحققت فيما بعد مع الأيام .

دخلت يابيت أحد الأديرة فى مدينة يورويال . وعندما بلغت الخامسة عشرة من العمر ، ماتت أختها ديزيريه ، فأخرجت يابيت من الدير وأعيدت الى البيت . وأوشكت فى وقت من الأوقات أن تتزوج شابا انجليزيا يدعى وليم . ولو حدث هذا لسافرت الى لندن وأصبحت زوجة ضابط بريطانى خامل . ولكن الزواج لم يتم . وتقدم طالب آخر ، هو كلود ترسيه الفرنسى ، فأحبته ورضيت بأن تتزوجه . ولكن هذا الزواج أيضا لم يتم . وأما ترسيه ، فقد انخرط فى الجندية ، وأصبح ضابطا برتبة «چنرال» واشترك فى مؤامرات ضد نابليون . وعندما جلست يابيت – أى چوزفين – على عرش فرنسا ، ادعى الرجل أنه كان عشيقها فى جزيرة مارتينيك !

وبعد فشل مشروعات الزواج فى الجزيرة ، تقرر أن تسافر يابيت الى فرنسا ، حيث كانت تقيم عمتها مدام رنودان ، التى مهدت السبيل لابنه أخيها لكى تتزوج شابا من أسرة نبيلة معروفة يعرف باسم «الكسندر دى بوهارتيه» .

ففى صيف عام ١٧٧٩ ، سافر جسبار مع ابنته يابيت الى فرنسا . وفى السنة ذاتها ، سافر ايضا الى فرنسا ، من جزيرة كورسيكا ، صبى فى العاشرة من العمر ، يدعى نابليون بونابرت، كان يطمع فى أن يصبح ضابطا فى الجيش الفرنسى .

وكانت يابيت فى السادسة عشرة من العمر .

زواج غير موفق !

عقد الزواج فى ١٣ ديسمبر من تلك السنة ، وكان الكسندر فى التاسعة عشرة من عمره . وأصبحت يابيت «فيكونتس دى بوهارنيه» ولكن مساوىء الزوج الشاب تجلت لها بعد وقت قصير، فقد كان الكسندر طائشا ، لا يعرف الوفاء ولا يدرك واجبات الزواج . وجعل منذ الأسبوع الأول يهمل عروسه الفاتنة . ولم تؤثر فيه نصائح أبيه الكونت ، وصديقة أبيه مدام دى رنودان ، عمة يابيت .

وفى ٣ سبتمبر عام ١٧٨١ ، رزق الزوجان ولدا سمياه «أوچين روز» ولكن مجىء هذا المولود الأول لم يحمل الزوج على تغيير مسلكه ، فظل ينتقل من مكان الى مكان ، ومن عشيقة الى اخرى، مما جعل يابيت تقول فى كثير من المرارة : «منذ زواجنا ، لم أقم أنا وزوجى تحت سقف واحد» !!

وفى عام ١٧٨٢ ، سافر الكسندر الى جزر الانتيل ، موطن

زوجته ولكن برفقة احدى عشيقاته ، تاركا الزوجة المهملة فى باريس ، تنتظر مولودا جديدا .

وفى عام ١٧٨٣ وضعت يابيت طفلة سمتها «هورثانس أوجينى» . ولكن الزوج الطائش لم يعد اليها بعد هذا الحادث السعيد .

وبدأت سلسلة جديدة من المتاعب ؛ فقد وردت أخبار من الانتيل بأن الكسندر يستغرق فى اللهو والملذات .

ثم اختلف مع عشيقته ، فتركته وعادت الى فرنسا . وساءت حالة الزوجة المادية لانقطاع الموارد عنها . وفجأة ، عاد الزوج من الجزر البعيدة ، ولم يبق أمامه غير الفراق ، بعدما بلغ الجفاء بينه وبين يابيت أقصاه . واتهم الكسندر زوجته بالخيانة زورا وبهتانا . وانتهى الأمر بينهما بالفراق التام . ومرض جسبار دى لاباجرى فسافر عائدا الى جزيرته ، حيث ساءت ايضا صحة مدام دى لاباجرى وابنتها الثانية مانيت ، فقررت الزوجة الشابة أن تترك ابنها أوجين فى احدى المدارس وتلحق بأبيها وأمها فى جزيرة مارتينيك .

وفى يوليو عام ١٧٨٨ ، سافرت الأم والفتاة ومكثتا فى الجزيرة سنتين كاملتين . وهناك بلغتهما الأخبار المقلقة عن قيام ثورة فى فرنسا . فرأت يابيت أن عودتها أصبحت

ضرورية . وفى عام ١٧٩٠ ركبت السفينة مع هورثانس .. ونزلت فى ميناء طولون!

وفى ذلك الوقت ، كان الضابط بونابرت فى طولون ايضا ، يخطو الخطوات الأولى نحو المجد .. ونحو تحقيق النبوءة التى ذكرتها الزنجية للفتاة فى الجزيرة الصغيرة : «ستصبحين أكبر من ملكة» !

عشيقة باراس !

عادت يايبت - أو مارى روز - الى فرنسا ، وهى فى السابعة والعشرين ، أى فى السن التى تكتمل فيها صفات المرأة الشابة . وقد ألفت جميع أنواع التبرج والإغواء ، وكشفت أسرار الحياة ، وعرفت كيف يجب أن تسلك المرأة فى مجتمعات باريس للتأثير فى الرجال وحملهم على إجابة مطالبها . وقررت أن تشق لنفسها طريقا فى معترك الحياة ، معتمدة على ما حباها الله من سحر وجمال . وكانت علاقاتها قد انقطعت بزوجها الكسندر ، وإن كان أبوه قد ظل يعطف عليها ويوالى نصحه لها ، مع العمة رنودان .

أما الكسندر ، فقد ألقى بنفسه فى غمار السياسة ، وانتخب عضوا فى مجلس النواب ، ثم رئيسا للجمعية التأسيسية التى وضعت نصوص الدستور عام ١٧٩١ . وعاد الى الجيش . وكان سلوكه قد زاد سوءا ، ومن وقت الى آخر ، كان الرجل يزور

ولديه ، فيلتقى بزوجته السابقة ، ولكن الصلة بينهما لم تلتئم مرة أخرى .

وتلقت مارى روز بحزن شديد خبر وفاة أبيها فى جزيرة مارتينيك ، ثم وفاة اختها مانيت فى العام التالى ، وكانت امها قد سبقتهما الى العالم الآخر ، فأصبحت مارى روز الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة من الأسرة النبيلة الصغيرة .

ومن أظهر دلائل الطيبة عند هذه المرأة العجيبة ، دفاعها عن زوجها السابق الكسندر ، عندما اعتقل بتهمة التآمر على سلامة الجمهورية ، فقد بذلت جهدا عظيما لإخراجه من السجن ، ولكنها فشلت ، وألقى القبض عليها ، هى أيضا ، بناء على وشاية . ومن أغرب المصادفات أنها أرسلت الى المعتقل الذى كان زوجها السابق سجيناً فيه . وفى هذا المعتقل أيضا ، عرفت مارى روز «لازار هوش» الذى أحبها وأحبته ، وهناك أكثر من دليل على علاقاتهما الغرامية .

وتمكنت مارى روز من اثبات براءتها من التهمة الموجهة اليها ، فخرجت من المعتقل . ولكن الكسندر لم يعرف التوبة فى ميدان السياسة كما أنه لم يعرف التوبة فى مضمار الزواج . وقد حوكم وحكم عليه بالإعدام فى عهد الطاغية روبسبيير ، وأعدم مع ٤٥ شخصا من شركائه فى المؤامرات ، ولم تعلم مارى روز بخبر

اعدامه الا بعد أربعة أيام ، عندما سقط روبسبيير عن عرشه . وقد كتب الكسندر الى زوجته السابقة ، قبل موته ، خطابا يودعها فيه ويودع ولده وابنته ، ويعترف بأخطائه الفائقة !

خرجت «مدام بوهارتيه لاباجرى» كما كانت تسمى نفسها ، من سجن «الكارم» فى ١٦ أغسطس عام ١٧٩٤ . وذهبت الى الدار التى تركت فيها ابنها أوجين وابنتها هورتانس مع صديقتها مدام ديلانوا . ووجدت نفسها فى حالة من البؤس تدعو الى اليأس. فإن أملاك زوجها قد صودرت ، ومواردها من الجزر انقطعت ، وليس لها أحد تعتمد عليه من الأهل . وفى هذه الظروف الحرجة ، وجدت مارى روز أمامها رجلين عرضا عليها مساعدتهما المادية والأدبية : لازار هوش ، الذى أحبته فى السجن ، والذى عين قائدا عاما لجيش «الفانديه» . وصديقا قديما يدعى «ايمرى» صاحب مصرف فى مدينة دنكرك . وكانت مساعدة هذين الرجلين قيمة بالنسبة اليها ، لأنها مكنتها من الانفاق على نفسها وعلى ولديها ، ريثما تنجح المساعى التى بذلتها لالغاء أمر مصادرة املاك زوجها التى آلت اليها والى ولديها .

وعرفت مارى روز ، فى صالونات باريس ، معظم اولئك الذين كانوا يديرون شئون فرنسا فى ذلك الوقت ، ومن بينهم بونابرت ، وتاليان وزوجته تيريزا الجميلة ، وباراس ، وغيرهم . وفى عام

١٧٩٥ ، كانت مدام بوهارتيه قد أصبحت عشيقة لأقوى الفرنسيين نفوذا ، وهو باراس، وقد عاشت معه عيشة زوجية ، على مرأى من الجميع ، ولم يكن أحد يجهل نوع العلاقة القائمة بينهما . وقد أجمع الذين دونوا حوادث الثورة الفرنسية الكبرى ، على القول بأن مارى روز خدمت أصدقاءها ومعارفها وأهلها وجميع ذوى الحاجات الذين قصدوها لدى عشيقها باراس ، وكانت كثيرة الإلحاح عليه لقضاء ما تطلبه خدمة للغير !

وعاشت مدام دى بوهارتيه ، بفضل باراس ، عيشة بذخ وترف. ولكن هذا العهد لم يدم طويلا .. فان باراس - وكان قد جاوز الأربعين - جعل يميل الى تيريزا الجميلة ، زوجة صديقه تاليان !. وكانت تيريزا من أحب صديقات مارى روز اليها ، وكأن الاقدار شاءت إلا أن تلقى فى طريق مدام دى بوهارتيه ، فى الوقت الذى أهملها فيه باراس ، رجلا آخر يتولى بالعناية بها ، وهو بونابرت . فقد عرفته مارى روز فى نهاية السنة التى فتر فيها شعور باراس نحوها .

ويغلب على الظن أن التعارف قد تم بين القائد الشاب والكونتسة الجميلة ، فى صالونات باراس وتاليان . ولم تعر المرأة التفاتا فى بادىء الأمر الى الضابط بونابرت ، الفقير ، الذى لا يعرفه غير القليلين من المشتغلين بالشئون السياسية والحربية .

ولكن حدث فيما بعد أن عهد اليه صديقه باراس ، وهو حاكم فرنسا الفعلى ، بإعادة النظام الى باريس ، على أثر فتنة قامت بها بعض العناصر المشاغبة ، فنجح القائد فى مهمته نجاحا فائقا، وأصبح بين يوم وليلة من أشهر قواد فرنسا على الإطلاق . فقد أنقذ الجمهورية من الانهيار ، وتطلعت اليه الأنظار من جميع أنحاء فرنسا ، وأدركت مارى روز أن هذا الرجل سيلعب دوراً كبيراً فى المستقبل ، فعولت على مصادقته !.

وفطن باراس الى ذلك فمهد السبيل للاثنين كى يجتمعا فى داره ..

وحدث بعد إحدى السهرات ، أن عرض الضابط بونابرت على مارى روز وابنتها مرافقتهما الى بيتهما . وعندما ودعهما عائدا فى آخر الليل ، ألحت مارى روز أن يزورها قريبا . فقبل ونفذ وعده . ومنذ ذلك الوقت، ارتبط مصير القائد الذي سيصبح امبراطورا ، بمصير المرأة التى جاءت مثله من جزيرة نائية ! فقد واصل بونابرت زياراته ، وأحب تلك المرأة حبا جما ، لم تبادله مارى روز بمثله . ولكنها شجعته على المضى فى مغامراته ، رغبة منها فى أن يستقر بها الحال ، وأملا فى أن يصبح هذا القائد العام المحظوظ زوجها فى المستقبل !

وعاشرها بونابرت معاشرة الزوج لزوجته ، وهو الذى أطلق

عليها اسم «چوزفين» بدلا من مارى روز أو يابيت ! ومنذ ذلك العهد بدأ تاريخ الرسائل الغرامية الفريدة ، التى كان يكتبها إليها من باريس ومن البلدان التى غزاها بجيوشه : «انني أصحو من نومى وصورتك أمام ناظرى .. أنت يامن لا مثيل لها بين النساء .. لقد تركت على شفتى أثرا من نار تحرقنى .. إن فمى ، وقلبى ، وكل شىء فى يلتهب !.. أبعث إليك بألف قبلة ، ولكن أرجو ألا تقبلينى أنت ، لأن قبلاتك تجعل دمى يغلى فى عروقى» !

مدام الجنرال بونابرت

كان يسميها «چوزفين» فى خلوته بها .. ثم اطلق عليها هذا الاسم علنا أمام الناس . وكانت تسميه «بونابرت» باسم اسرته . وظلت تناديه بهذا الاسم حتى بعد ارتقائه العرش ووضع تاج الملك على رأسه ورأسها .

الجنرال يقيم فى دار فخمة بشارع كابوسين . وچوزفين تقيم فى بيتها المتواضع بشارع شانترين . ولكن بونابرت لا يمكث فى بيته غير الوقت اللازم لقضاء أعماله ، لأن مركز قيادته هناك ، ثم يفلت مسرعا الى بيت عشيقته. وهو غيور شديد الغيرة ، لا يطيق أن يرمق أحد من معارفه أو أصدقائه تلك المرأة التى احبها ، بابتسامة أو نظرة ود. وإذا حالت أشغاله الكثيرة دون زيارة چوزفين

يومـا واحداً ، فإنه يبعث اليهـا بإحدى تلك الرسـائل الملتهبة ، المفعمة وجدا وهياما ..

وقـد ذهـب بعـض المؤرخين الى ادعـاء أن بونابرت لم يكن يحب جـوزفين حبـا خـالصـا من الأغـراض . ولكن هذا الادعـاء كاذب . فلم يكن هـناك شيء واحد يدفع القائد الى احضان امرأة تكبـره سنا ، ولهـا ولدان من زوج سـابق ، ولا تتمـتع بسـمـعة خالية من الشوائب ، غير الحب الأعمى الذى لا يحسب حسابا لغير العاطفة .

تطورت العلاقـات بين الرجل والمرأة تطورا سـريعـا ، فـجـعل بونابرت يفكر فى تدعيم هذه العلاقـات وربطهـا برباط الزوجية . وساعده باراس فى ذلك ، أملا منه فى أن يتخلص نهائيا من المرأة التى كانت من قبل عشيقته . ولكن جوزفين كانت تتردد متسائلة : هل الحكمة تقتضى أن تتخذ بونابرت زوجا ، أو تبقيه عشيقا ؟!

إنه فى السادسة والعشرين ، وهى فى الثالثة والثلاثين .. أفلا يجمل بها إذن أن تفكر طويلا قبل الإقدام على الخطوة النهائية ، والارتباط بعهد لا انفصام له ؟

غير أن باراس كان يبدد مخاوفها قائلا : «لا تخشى شيئا .. فلكل حالة من الحالات علاجها . وسنتخذ لكل احتمال عدته» !

وكانت جوزفين من ناحية أخرى تكثر من الوقوف أمام المرآة ،

وإمعان النظر فى ملامح وجهها ، فتدرك أن الوقت قد حان لوضع حد لحياتها المضطربة ، فترد قائلة لنفسها : «يجب أن اتزوج اليوم .. قبل أن يفوت الوقت» !

ولم يكن هناك غير رجل واحد من أصدقائها لا يوافق على هذا الزواج ، وهو الاستاذ راجيدو كاتب العقود ، الذى كان يرى أن الزوج رجل عسكرى لا أمل له فى الوصول الى حالة من الثراء والوجاهة تكفل لزوجته عيشا رغدا !!..

وفى ٨ مارس عام ١٧٩٦ ، كتب عقد الزواج وانتهى الأمر ، وأصبحت مارى روز دى لاباجرى ، كونتس دى بوهارنيه ، تدعى «مدام الجنرال بونابرت» ! ودون فى العقد أن الزوجة ولدت فى ٢٣ يونيو عام ١٧٦٨ ، وأن الزوج ولد فى ٢٤ يونيو عام ١٧٦٧ ، أى أن نابليون أكبر من چوزفين بسنة واحدة ، فى حين أنها فى الواقع أكبر منه بسبع سنوات .

ولم يدم «شهر العسل» غير يومين وليلة !.. فإن بونابرت ترك زوجته للانطلاق على رأس جيشه الى ايطاليا ، حيث احرز انتصاراته الخالدة الأولى . وبدأت چوزفين تتساءل إذا كانت قد احسنت صنعا بعقد هذا الزواج أم أخطأت . ولم يكن فى وسعها أن تدرك ، وهى العصفور الصغير الذى جاء من الجزر الأمريكية البعيدة، الى أى طبقة من طبقات الجو يستطيع

النسر أن يحلق ! وكل ما شعرت به ، امام انطلاق زوجها فى طريق المجد والشهرة، هو أن الرجل الذى تزوجته قد ابتعد عنها بعد الزواج بيومين !

وبدأت مرحلة من مراحل القلق والاضطراب ، وهى مرحلة ندرك أسبابها إذا تعمقنا فى دراسة طباع المرأة وعقليتها وميلها الى الزهو .

من ايطاليا ، كتب بونابرت الى زوجته سلسلة من تلك الرسائل الغرامية التى أشرنا إليها والتى تعد من روائع هذا النوع من المراسلة ، وكان يبعث اليها رسالة كل ثلاثة أيام ، مع رسول خاص ، أو مع زميل من زملائه ، أو جندى من جنوده العائدين الى الوطن . أما هى ، فلم تكن ترد على رسائله بانتظام ، بل إنها لم ترد عليها إلا نادراً ، وبكلمات مقتضبة عادية . وكان بعد كل معركة ، وبعد كل نصر ، يزداد شوقا اليها ويعدها بانه سيرسل فى طلبها لكى توافيه الى ايطاليا . غير أن هذه الفكرة لم تعجبها، بل بعثت الخوف الى نفسها .. فالسفر بعيد شاق ، وما الداعى الى اللحاق ببونابرت ؟ ألأنه زوجها ؟

كتب اليها عشرات الرسائل .. وهذا ما جاء فى بعضها :

«كل لحظة تطيل الشقة بينى وبينك . وكل لحظة تفقدنى بعض القوة على احتمال البعاد ..

لم يمر بى يوم واحد لم أشعر فيه بأننى أحبك .. ولم تمر ليلة واحدة لم أضمك فيها بين ذراعى ..

إن رسالتك الأخيرة باردة كالصداقة . فاننى لم أجد فيها النار التى تشعل النظرات ، والتى خيل الى فى وقت من الأوقات اننى رأيتها فى عينيك ..

تعالى .. تعالى .. إن مجرد التفكير فى أنك ستجيئين الىّ يملؤنى فرحا .. إن حبى يزداد مع الأيام ، وإذا كان الفراق يشفى الإنسان من الحب الضعيف ، فانه يزيد الحب القوى اشتعالا» .

ولكن ، أين كانت چوزفين ، وماذا كانت تصنع ، بينما كان زوجها يخوض غمار المعارك ويكتب إليها هذه الرسائل الغرامية ، ويلح عليها باللحاق به الى ميلانو !

كانت تتنقل من ناد الى ناد ، ومن مجتمع الى مجتمع ، وتصغى بارتياح وسرور الى ما يغدقه عليها الناس من آيات المديح والثناء . فهى زوجة البطل الذى رفع سمعة فرنسا واعاد الى الجيش تقاليده المجيدة . وهى المرأة التى بدأ الناس يتزلفون اليها لأنها زوجة ذلك القائد العظيم ..

وتتابعت الرسائل :

«ستصلين قريبا الى هنا .. سأضمك الى قلبى .. سأقبلك .. تعالى ! طيرى فى الحال !

إنه يوم سعيد ، ذلك اليوم الذى تجتازين فيه جبال الألب فى طريقك الىّ . ان مجيئك هو أعظم مكافأة اتمناها لما أحرزته من انتصارات وتحملته من متاعب» !

لكنها لا تريد أن تسافر .. لا تريد أن تلحق به . ولكى تضع حدا لإلحاحه ، وتنتحل عذراً لترددها وامتناعها ، عمدت الى حيلة فيها ما فيها من مكر وكذب وخداع . فقد ادعت أنها تنتظر حادثا سعيداً ، وأن السفر يتعبها .. وكيف تسافر وهى تحمل فى أحشائها ثمرة حب الرجل الذى يلح عليها بالسفر ؟

صدق نابليون أن زوجته حامل . وطار فرحا لهذا النبأ السار ، فقد كانت امنيته أن يكون له ولد يشبه أمه چوزفين !

فكتب يقول :

«أصحيح ما قيل لى ؟ أصحيح هذا ؟ إذن ، اعمدى الى الراحة .. ستلدين ولدا جميلا مثل امه ، يحبك مثل ابيه» !

لم تكن چوزفين حاملا ، بل كانت منغمسة فى حب أثيم ، مع ضابط يدعى شارل هيبوليت ، لم يكن فيه شيء من الصفات التى يمتاز بها بونابرت . وكل ما يعرف عنه ، أنه يغشى المجتمعات ويروى النوادر والنكات للنساء الجميلات .

غير انها لم تستطع تجنب السفر الى النهاية ، وعلى الخصوص بعد أن علمت أن بونابرت أدرك أنها ليست حاملا ،

وبعد ما بلغها من أنباء غضبه وثورته . وقد تدخل باراس ، صديقها السابق فى الأمر ، واقنعها بوجوب الرحيل للحاق بزوجها ، فسافرت فى ٢٥ يونيو عام ١٧٩٦ ومعها جوزيف بونابرت ، أخو نابليون ، وجونو ، وخادمها ، وكلبها ، وعشيقها شارل هيبوليت !.

نزلت فى قصر سربيلونى بميلانو ، وكان زوجها يقاتل فى مانتوا ، فغادر الميدان للقاء زوجته وقضاء ساعات معها . ورفضت أن تذهب الى ابعد من ميلانو ، فتركها نابليون فى قصرها وعاد الى جيشه ، حيث قاده الى معارك جديدة وانتصارات جديدة .

وليس هناك ما يثبت أن بونابرت علم بعلاقة شارل هيبوليت بزوجته . ولكنه تضايق من تردد هذا الضابط عليها ، ومن إلحاحها المستمر بوجوب مساعدته وتسهيل اعماله . واخيرا ، أقدم شارل على ارتكاب سرقة فى إدارج تموين الجيش !، فقبض عليه . وكل ما استطاعت چوزفين أن تصنعه هو أن تنقذه من الاعدام وتعيده الى باريس .

وبعد قضاء أسابيع فى مدن ايطاليا ، عادت چوزفين الى العاصمة ، وعاد اليها بونابرت ايضا ولكن من طريق آخر . والتقى الزوجان فى باريس ، حيث اقاما فى بيت چوزفين بشارع شانترين .

المرأة كثيرة الحيلة !

بدأ نابليون يظهر عدم ارتياحه لسلوك زوجته ، ويؤنبها على عدم الإصغاء الى نصائحه ، وارشاداته ، والخضوع لأوامره ، ولكن الظروف لم تترك له الوقت الكافى لمحاولة إصلاح العيوب التى لمسها فيها .. ففى شهر مايو عام ١٧٩٨ ، سافر على رأس حملة فرنسية الى مصر تاركا چوزفين مرة اخرى ، وحدها فريسة لميولها وغرائزها ..

وعادت المرأة الى سابق سيرتها . وعاد اليها شارل هيبوليت مسترحما قائلا إن معاملة بونابرت له ألقته فى أحضان البؤس والفاقة . فساعدته چوزفين ، وحملت باراس على التدخل لإعادته الى الجيش ، ثم جعل الشاب يتردد عليها فى قصر ماليزون الذى اشترته واقامت فيه ، وما مرت اسابيع حتى كانت علاقتها قد عادت الى ماكانت عليه من قبل، مع الضابط المهرج !

أما بونابرت ، فانه لم يكثر من الكتابة اليها من مصر ، كما كان يفعل وهو فى ايطاليا . ولم تكن الرسائل القليلة التى كتبها اليها مفعمة بعبارات الحب وعواطف الهيام كسابقاتها . ذلك لأن القائد لم يعد فى وفائه واخلاصه ذلك الزوج المتيم الذى عرفته چوزفين . فقد ادرك أن عيوب زوجته لا سبيل الى اصلاحها ، وانها لا تقابل حبه بمثله – علاوة على انه وجد فى مصر من ينسيه

البعاد ! فقد علق بونابرت بحب «بولين» زوجة الضابط فوريس ، المعروفة باسم «بليلوت» ونقلها الى قصره بالأزبكية ، حيث عاش معها على مرأى من رجال الجيش .

ثم إن الأنباء التى وصلته من فرنسا عن سلوك زوجته ، وانغماسها فى الضلال ، وعدم وفائها له ، جعلته يفكر فى طلاقها وهو فى مصر ، ومن غرائب المصادفات ، أن بعض اصدقاء چوزفين فى فرنسا ، اشاروا عليها أيضا بأن تطلب الطلاق ، لأن زوجها يخونها فى مصر . وقد راقت لها الفكرة فى بادىء الأمر ، وأوشكت أن تعقد اتفاقا مع شارل هيبوليت على أن تتزوجه بعد طلاقها ! اما بونابرت ، فقد فكر فى اتخاذ بولين فوريس زوجة له ، بعد طلاقها من زوجها !

غير أن هذه المشروعات كلها لم تنفذ ، لا من هذا الجانب ولا من ذاك . ولو نفذت لأصبحت بولين فوريس امبراطورة فرنسا ، ولأصبحت چوزفين مدام هيبوليت !

ولكن ، كيف يمكن أن يتم هذا ، والزنجية الأمريكية قد تنبأت للفتاة الصغيرة يابيت ، فى جزيرة المارتينيك بأنها ستصبح «أكبر من ملكة» !

★★★

فى احدى ليالى أكتوبر عام ١٧٩٩ ، دعيت چوزفين لتناول

العشاء عند باراس ، وشكت اليه انقطاع الأخبار عن زوجها ، وأنه لم يكتب لها منذ سبعة شهور ، فقال باراس :

– تريدين أخبارا عن زوجك ؟ لقد تلقينا منذ لحظة نبأ عودته الى فرنسا . فقد وصل الى ميناء فريجوس أمس الأول .. وبعد يومين سيصل الى باريس !

واستولى القلق على چوزفين .. إنها تجهل الأسباب الحقيقية التى حملت نابليون على العودة فجأة الى فرنسا ، ولم تدرك أن انهزام الجيوش الفرنسية فى ألمانيا ، وتعقد الأزمة الداخلية ، وعدم استقرار الحكم فى باريس ، كل ذلك يثير اهتمام القائد ، ويستحثه على العودة الى العاصمة لمعالجة الحالة . ولهذا فقد اعتقدت أن زوجها لم يترك مصر خلسة ، ولم يرجع مسرعا الى فرنسا ، إلا لكى يقتص منها ويعاقبها على طيشها وعدم وفائها !

وارادت أن تقطع الطريق وأن تسرع الى لقائه قبل أن يصل الى باريس . فاصطحبت معها ابنتها هورثانس وانطلقت الى فريجوس . ولكنها ، عندما وصلت الى ليون ، علمت أن نابليون سلك الى باريس طريقا غير الذى سلكته . فعادت على اعقابها ووصلت الى باريس بعد أن كان نابليون قد وصل اليها !

أما نابليون ، فانه اعتقد عندما نزل من مركبته ولم يجد زوجته فى انتظاره ، أنها غائبة فى مكان ما مع أحد عشاقها ، لأنه كان

قد استوثق من صحة الأخبار التى وردت اليه عنها وعن علاقاتها الاثيمة بغيره من الرجال ، ولأنه بدأ يشعر بأنه لم يعد يحبها .

ورفض أن يقابلها ، وأعرب لاصدقائه عن رغبته فى طلب الطلاق . ولكن رتانسى وأوجينى بكيا امامه . وكولو ، أحد اصدقائه الأوفياء ، قاوم فكرة الطلاق قائلا : إن الوقت غير مناسب لتنفيذها ، وأن الرجل الذى يرى المستقبل الباهر الذى ينتظره ، والذى جاء من مصر ليقطف فى باريس ثمرة انتصاراته فى الحروب ، لا يقدم على عمل قد يؤثر فى سمعته ..

لكن بونابرت كان عنيدا .. فقد رضى بأن يؤجل طلب الطلاق ، على شرط أن تظل زوجته بعيدة عنه لانه لا يريد أن يراها . غير أن المرأة كثيرة الحيلة .. فقد أخذت چوزفين ابنيها الى بونابرت ، وظلت تطرق بابه وتبكى مع ولديها ، حتى رق قلب الرجل وفتح الباب !

عفا بونابرت عن چوزفين !

وحصر فكره فى الأهداف السياسية التى جاء يسعى اليها . وراح يمهد السبيل لاحداث الانقلاب المعروف بانقلاب «١٨ برومير» ونجحت خطته وخطة أعوانه ، وعلى رأسهم أخوه لوسيان بونابرت .

واصبح القائد الشاب «القنصل الأول» مع زميليه سييايس وبوكو .

وقال لزوجته وهو ينبئها بما حدث :

– غدا سننام فى قصر لكسمبورج !

قصر لكسمبورج ؟ إن چوزفين تعرفه ، لأن صديقها باراس كان يدعوها اليه . والإقامة فى قصر لكسمبورج معناها الظهور بمظهر الملكات !

إنها الخطوات الأخيرة نحو العرش !

چوزفين نجم السعادة !

فى ١٩ فبراير عام ١٨٠٠ ، انتقل بونابرت ، القنصل الأول ، الى قصر لكسمبورج مع زوجته چوزفين وولديها . ومنذ ذلك اليوم جعل بونابرت يقسو عليها ويضايقها ، ويراقبها ، لكى تنفذ بدقة وامعان كل ما يمليه عليها . وطرأ على چوزفين تغيير تام ، كأن الانقلاب السياسى قد أحدث فى نفسها ايضا انقلابا خلقيا وعاطفيا . فقد حرصت منذ انتقالها الى لكسمبورج على تحقيق رغبات زوجها بلا تردد . واحاطت نفسها بالحاشية التى اختارتها، وانصرفت الى أعمال الاحسان ، والى العناية بالشئون الخاصة والعامة على الوجه الذى اشار به نابليون . وحسنت علاقاتها

بأسرة زوجها التى لم تكن تحبها ، وفكرت فى أن تجد بين إخوة نابليون زوجاً لابنتها هورتانس ، وقد بلغت السابعة عشرة من العمر .

وأشرفت چوزفين على اعداد ردهات القصر للإقامة ، كما أعدت قصر تويلرى ، مقر ملوك فرنسا ، للانتقال اليه مع نابليون والقنصلين سيايس ودوكو .

ولعبت چوزفين الدور الذى أملاه عليها زوجها على أحسن وجه. وعادت العلاقات الودية بينهما ، شيئا فشيئا ، الى ما كانت عليه من قبل ، ونسى نابليون أو تناسى ، لأغراض سياسية ، اخطاء زوجته الماضية .

وفى ٢٤ ديسمبر عام ١٨٠٠ ، وقع حادث الاعتداء على نابليون، المعروف بحادث «الجهاز الجهنمى» والذى نجا منه القنصل الأول بأعجوبة . وعندما جلس مع زوجته فى مقصورته الخاصة ، بدار الأوبرا، بعد وقوع الحادث بدقائق ، مال على چوزفين ، وهمس فى أذنها : «أنت نجمى السعيد» !

كان نابليون يعتقد أن چوزفين جلبت له الحظ وظل على اعتقاده هذا، حتى بعد أن طلقها وتزوج مارى لويز النمساوية .

وفى ٤ يناير عام ١٨٠٢ ، احتفل بزواج هورتانس دى

بوهارتيه ، ابنة چوزفين من زوجها الأول ، والكولونيل لويس بونابرت ، شقيق نابليون . ولم يكن هذا الزواج موفقا .. فقد عاش لويس وهورتانس فى شقاق دائم . ولكن الأقدار شاءت أن يصبح أحد ابنائهما ، لويس نابليون ، امبراطورا على فرنسا باسم نابليون الثالث عام ١٨٥٩ .

ومما جعل نابليون يسدل نهائيا ستار النسيان على الماضي ، عودة السلام الى فرنسا ، فقد انتهت الحروب جميعها فى عهد القنصلية ، وانصرف نابليون الى انجاز أعمال الاصلاح الداخلى التى كان يفكر فيها ، وكان يقول : «إن هذا كله بفضل چوزفين نجم السعادة» .

★★★

اراد نابليون أن يكون له «بيت ريفى» يقضى فيه ساعات الراحة والهدوء . فوقع اختيار چوزفين على قصر ماليزون ، وابتاعه نابليون نزولا على رغبتها ، فانصرفت على اعداده بكل ما أوتيت من ذوق سليم. وكان القنصل الأول وزوجته يقضيان جزءا من الأسبوع فى ذلك المقر الهادىء ، بين أحضان الطبيعة ، ووسط الأشجار والأزهار ، ويدعوان اصدقاءهما لينزلوا ضيوفا عليهما فى ماليزون .

وطلب سكان «كلو» من القنصل الاول ان يقيم من وقت إلى

آخر فى القصر المعروف باسم بلدتهم، والذى كان من قبل مقرا للملوك فرنسا، فأجابهم نابليون إلى طلبهم وعهد إلى جوزفين ايضا باعداد هذا القصر كما اعدت قصر ماليزون.

وفي القصرين، كان القنصل وزوجته جوزفين يعيشان عيشة عائلية، وحولهما الاصدقاء والاوفياء. غير أن قصر سان كلو، كان مخصصا لمعظم الحفلات الرسمية، والمآدب التى يحييها القنصل عملا بالتقاليد ومقتضيات المنصب. اما ماليزون فانه كان يعد فى نظر نابليون وجوزفين «البيت» الذى يعيشان فيه بوصفهما زوجين، لا قنصلا وزوجة قنصل.

وقد انفقت جوزفين اموالا طائلة لتوسيع املاكها حول قصر ماليزون.. وقد اعدت فيها الحدائق الغناء ، وجلبت الازهار النادرة من جميع أنحاء العالم، والطيور المغردة من الشرق والغرب، فحولت القصر إلى جنة يكتنفها جو من الجمال والسحر.

وكان نابليون يدعو أصدقاءه إلى الصيد فى غابات ماليزون...

ولكن عاطفة الحب لم ترجع فى صدره إلى سابق عنفها، فى حين ان هذه العاطفة، التى كانت ضعيفة عند جوزفين، جعلت شيئا فشيئا تتحول إلى أتون متأجج..

هذه أحكام القدر.. حب يموت فى صدر، وحب يحيا فى صدر آخر..

كان نابليون عاشقا، وكانت چوزفين صديقة له. وها هو ذا نابليون يتحول إلى صديق، وچوزفين تنقلب عاشقة مغرمة!

وفى تلك الفترة من الزمن، لم يكتب نابليون لزوجته رسائل غرامية كالتى بعث بها من قبل، عندما ابتعد عنها اياما أو شهورا.

ولكن چوزفين ارسلت اليه، فى نوفمبر ١٨٠٣، خطابا يعد كخطابات نابليون، آية من آيات المراسلة الغرامية بين حبيبين!

واذا دل هذا الخطاب على شئ، فإنما يدل على أن الخوف قد خالج قلب المرأة، وانها ادركت اخطاءها السابقة، وخشيت ان تكون توبتها قد جاءت بعد الأوان!

لقد عرفت چوزفين العذاب، والبكاء... وكان عذابها وبكاؤها يغذيان فيها خوفها من المستقبل: انها لم تحسن الاحتفاظ بقلب زوجها المفعم حبا، فهل تستطيع الآن ان تحتفظ بهذا القلب وقد أصبح خاليا من الحب؟!

واحدة بواحدة!!

كانت چوزفين تتألم لانها شعرت بالغيرة، كما تألم زوجها من قبل عندما عضته الغيرة بأنيابها. ولكن الزوجة الغيور لم يكن فى وسعها ان تثور فى وجه الزوج. ذلك لان اتفاقا تم بين الاثنين على ان يمنحها عفوه، وينسى مافات، على شرط ألا تحاسبه هى فى المستقبل، على ما يبدو منه فى مضمار الوفاء الزوجى «واحدة

بواحدة!» . على هذا الأساس نسى نابليون الماضى. ولكنه اراد ان يحتفظ لنفسه بالحرية التامة فى علاقاته مع النساء!

انها لشروط قاسية. وقد تحتملها الزوجة فى بادئ الأمر صاغرة، ولكنها تثور مع الايام اذا ما توالت الخيانات من الزوج.

ولم تكن خيانات نابليون القنصل ، ثم نابليون الامبراطور قليلة تافهة !

فقد أحب بولين فوريس فى مصر، واحب جيوزيبا جراسينى فى ايطاليا، واحب لورجونو، زوجة صديقه الجنرال جونو، فى ماليزون، واحب مدام دى ريموزا، وصيفة زوجته، فى بلچيكا، واحب الممثلة مدموازيل جورج فى باريس، وبعد هذه الممثلة احب اثنتين من زميلاتها.. مدموازيل بورجوان، ومدموازيل دوشنوا. ولم يهمل نساء القصر من وصيفات وغيرهن، كمدام دوشاتل، ومدام دى فورى، ومدموازيل نجروا، ومدموازيل لاكوست، واليونور دونويل، التى رزق منها بابن عرف فيما بعد باسم «الكونت ليون» وجاء بعد اليونور رهط آخر من النساء الجميلات: كارلوتا جازينى، مدموازيل جيبو، ومدام بالابرا، التى رزق منها بابن آخر، ومدام بارال، ومدام ماتيس، واخيرا مارى فالفسكا البولونية، وهى أشهر عشيقاته، وأم ابنه الثالث غير الشرعى...

هؤلاء هن عشيقات نابليون، وهناك غيرهن ممن لم نذكرهن

لقلة شأنهم. وهذه العلاقات الأثيمة بين الرجل السائر فى طريق المجد، ونساء تناولهن فى طريقه حسب الظروف والاحوال، جعلته يفكر فى امر كان ومازال يشغل باله .. ان چوزفين لم تلد، وليس الذنب ذنبه هو، مادام قد رزق ابناء من عشيقاته، فالذنب اذن ذنبها .

يجب ان تلد له چوزفين ابنا يحمل اسمه بلا وجل ولا عيب، ويرث مجده من بعده...

وشعرت چوزفين بما يخامر صدر زوجها من سلوك ومخاوف ومشاعر . وتضاعفت فى صدرها الغيرة القاتلة ، وراحت تتساءل اذا كان نابليون سيعود إلى فكرته السابقة ، فيطلقها ليتزوج غيرها من النساء اللواتى حملن منه وولدن ابناء!

وشعرت ايضا بأنه يسعى إلى الملك، ويطمع فى ان يرث ملوك فرنسا ويضع تاجهم على رأسه. وأدركت ان هذا – اذا تم – سيكون الضربة القاضية عليها، لأن زوجها الملك سيسلك جميع الطرق لحصر وراثة العرش فى سلالته، أى فى ابنائه .. وهى لم تنجب له ابناء !..

وعندما اتضح لها من اعماله انه منصرف إلى تحقيق هذا المطمع، وبلوغ هذا الهدف، بكت بكاء مرا، وألقت بنفسها على

قدميه صائحة: «بونابرت! أرجوك! لا تجلس على العرش! لا تجعل نفسك ملكا!»

فالملك اذن كان يخيفها والعرش كان يبعث الرعب فى نفسها، ولكن، الا يجب ان تتحقق نبوءة الزنجية فى جزيرة مارتينيك، فتصبح چوزفين «اكثر من ملكة؟».

ففى ١٨ مايو ١٨٠٤، عقد مجلس الشيوخ جلسته التاريخية، ونادى بنابليون بونابرت امبراطورا على الفرنسيين، باسم نابليون الاول...

وتحققت النبوءة ...!

وفى مساء ذلك اليوم ، اختلت الأم بولديها، وراح الثلاثة يفكرون فيما وصلوا اليه: چوزفين امبراطورة فرنسا، وهورثانس صاحبة سمو، وأوچين أمير إمبراطورى بلقب فارس عظيم!!

الإمبراطورة المتوجة!!

بعد أن قضى الامر، خشيت چوزفين ان يقرر نابليون، قبل الاحتفال بتتويجه، إبعادها عن العرش واتخاذ زوجة أخرى تتوج معه امبراطورة. ولكن مخاوفها تبددت عندما قال لها زوجها:

– سيجئ البابا بيوس السابع إلى باريس، ليتوجنى وليتوجك فاستعدى لهذه الحفلة !

وعندما وصل البابا إلى العاصمة، كشفت له چوزفين عن سر

كتمته فى صدرها، وهو ان زواجها بنابليون لم يكن زواجا دينيا، وأنها ما رضيت بالارتباط فقط بعقد مدنى، الا لأن الظروف قد ارغمتها على ذلك. فهدأ بيوس السابع روعها، وعهد إلى الكردينال فيش، عم نابليون، بأن يبارك الزواج ويربطه بالرابطة الدينية. فتم ذلك فى حفلة عائلية لم يحضرها غير بضعة اشخاص من أقارب الزوجين.

واطمأنت چوزفين! بأن نابليون لن يطلقها بعد الآن، ما دام الزواج المدنى قد أصبح دينيا، وغير قابل للنقض! واحتفلَ بتتويج الامبراطور والامبراطورة فى كنيسة نوتردام، وأراد نابليون فى تلك الحفلة، ان يثبت للعالم انه لم يرث التاج عن احد، ولم يأخذه من يد أحد، بل اكتسبه بحد السيف، فلم يوافق على ان يتوجه البابا ويتوج معه الامبراطورة، بل تناول التاج بيده ووضعه على رأسه، ثم تناول التاج الثانى، المعد لچوزفين، ووضعه بيده على رأس زوجته. وكان البابا يرأس الاحتفال بوصفه شاهدا فقط. ثم نهض وألقى كلمه بارك بها التتويج والتاجين والمتوجين!

وتوالت الحفلات والاستقبالات فى جميع انحاء فرنسا..

وبعد شهرين، سافر نابليون إلى ايطاليا، ليتوج نفسه ملكا عليها، ويضع على رأسه تاجا ثانيا، هو تاج ملوك لومبارديا التاريخى. ولم تتوج چوزفين معه فى ميلانو. ولكنها بكت عندما

أعلن نابليون تعيين ابنها اوچين نائبا للملك فى ايطاليا، وحاكما عاما لهذه البلاد باسم الامبراطور الملك.

وعاد الزوجان المتوجان إلى فرنسا..

وعاد نابليون إلى إهمال چوزفين الزوجة، والتلهى بالنساء الحائمات حوله. ولكن چوزفين، بعد أن اطمأنت على ارتباط زوجها بالعقد الدينى، كانت تقول: «ليذهب إلى حيث يريد، مادمت واثقة انه سيعود إلى!».

★★★

جلست چوزفين التى اصبحت «اكثر من ملكة» خمس سنوات على العرش. ولكن هذه السنوات الخمس كانت كافية لجعل اسم الامبراطورة الجميلة يتلألأ بين ألمع اسماء الملكات. فقد رفع نابليون مجد فرنسا إلى أوجه. وكانت چوزفين جديرة بالمنصب الذى شغلته والذى ملأته بصورة تدعو إلى الإعجاب...

كان عمرها عندما توجت ٤١ سنة. وعندما طلقها نابليون ٤٦ سنة!

أحاطها زوجها بجميع مظاهر الابهة والعظمة، ومقتضيات الملك وبذخه. وفتح لها اعتمادات مالية كبيرة لشراء كل ما ترغب فيه من ثياب وحلى وغير ذلك مما تحتاج اليه امرأة، بل امبراطورة متوجة!..

كانت نفقاتها ٣٦٠ ألف فرنك فى السنة، فرفعها الامبراطور إلى ٤٥٠ ألفا فى السنة التالية. ولكن هذا المبلغ لم يكفها. فقد كانت مسرفة إلى ابعد حدود الاسراف. وإذا كانت جوزفين لم تحسب للمال حسابا وهى فقيرة، فهل تتعب نفسها فى حساب مثل هذا وهى امبراطورة فرنسا؟

قابلت جوزفين ملوكا وملكات، وامراء واميرات، ولم تخل يوما واحدا بواجب المكانة السامية التى رفعها زوجها اليها. ولم يأخذ عليها نابليون خروجها قيد أنملة عن الخطة التى رسمها لها والطريق الذى فتحه امامها. ولكنه ظل يأخذ عليها عقمها. فهو يريد وارثا للعرش من بعده . فهل تعطيه جوزفين ما يريد ؟

خمس سنوات انقضت، وجوزفين لم تشعر فيها يوما واحدا براحة البال التامة . فالمجد، والإكرام، والثناء، وحرق البخور أمامها كل ذلك لم يبدد مخاوفها، ولم يهدئ روعها.

ووقع فى النهاية ما كان مرتقبا، فقد أوفد اليها الامبراطور ثعلبا من ثعالب السياسة فى عهده، وهو جوزيف فوشيه مدير البوليس، ليعرض عليها التنازل من تلقاء نفسها عن رابطة الزواج، وقضاء بقية حياتها فى قصر ماليزون، وترك الحرية للامبراطور فى ان يتخذ زوجة غيرها، تنجب له ولدا يرث عرشه، لان الأمة الفرنسية بأسرها ترغب فى ألا يظل العرش بلا ولى عهد!

لكن چوزفين رفضت إجابة هذا الطلب.. وافهمت الامبراطور انها لن تطلب الطلاق من تلقاء نفسها، لأن فى هذا شؤما عليه وعليها. وانها تخضع لارادته اذا اراد هو ان يطلقها وينزع التاج عن رأسها.

وجاء عام ١٨٠٩ ونابليون فى أوج مجده. بعد معركة واجرام. وچوزفين تودع التاج الوداع الأخير!

الطلاق !!

فى اكتوبر ١٨٠٩، تلقت چوزفين من الامبراطور الرسالة المقتضبة الآتية:

«صديقتى .. أنا مسافر بعد ساعة . سأصل إلى فرنتينبلو فى ٢٦ أو ٢٧. يمكنك ان تذهبى إلى هناك مع بعض وصيفاتك».

وصل الامبراطور إلى القصر فى صباح يوم ٢٦ اكتوبر. فلم يجد چوزفين التى وصلت عند الساعة السادسة مساء . كان نابليون مقطب الجبين، فعاتبها على تأخيرها.. ثم سكت. وعلى المائدة لم يفه بكلمة واحدة. ومكث فى فونتينبلو خمسة عشر يوما تجنب خلالها الاجتماع بزوجته، وكان يخرج مع اخته بولين. ثم عادت الاسرة المالكة إلى باريس، فركب نابليون حصانه، كيلا يجلس مع زوجته فى مركبة واحدة. وادرك الجميع انه وطد العزم

على الطلاق وفجأة قال لها بلهجة عنيفة قاسية إنه يريد قطع كل صلة بها..

فأجابت چوزفين انها طوع امره!

وبكت. ولكن الامبراطور قال لها بصوت ثابت:

– لا تحاولى التأثير فى بدموعك. انى احبك. ولكن السياسة لا قلب لها ، السياسة لها رأس تفكر به فقط! وارسل نابليون فى طلب اوچين من ايطاليا ليكون بالقرب من أمه فى هذا الظرف العصيب.

وفى احدى الليالى اختلى الامبراطور بزوجته، ولم يعلم احد ما دار بينهما من حديث. ولكن نابليون فتح فجأة باب الحجرة التى تمت الخلوة فيها، ونادى بوسيه، من رجال القصر، الذى دخل الحجرة فوجد چوزفين مستلقية على سريرها، تجهش بالبكاء وتتمتم قائلة: «لن أعيش بعد هذا اليوم!»

وقال نابليون لبوسيه:

– لقد ضغطت قلبى.. واصبح الطلاق أمرا لا مفر منه!

وطلب اليه ان يعنى بها.

وعاد اوچين من ايطاليا، واسرع مع اخته إلى حيث كانت چوزفين تنتظر رجوع ابنها. وامتزجت دموع الثلاثة مرة اخرى، ولكنها كانت فى هذه المرة دموع حزن لا دموع فرح!

وفى ١٥ ديسمبر، أعلن الطلاق المدنى فى الساعة التاسعة مساء، فى قاعة العرش بقصر التويلرى، امام اعضاء الاسرة جميعا، ورجال القصر والحاشية المدنية والعسكرية.

وخطب نابليون قائلا إنه يقدم على هذا العمل مضطرا وبالرغم منه. وخطبت چوزفين قائلة انها تخضع لارادة الامبراطور وتحرص على سعادته وهنائه.

وذهبت چوزفين للإقامة فى قصر ماليزون «البيت الريفى» كما كانت تسميه، والذى عرفت فيه، من ناحيتها، ذلك الهناء وتلك السعادة.

وبالرغم من كل ما حدث، لم ينقطع نابليون عن زيارة زوجته السابقة، ولم تنقطع چوزفين عن الذهاب إلى قصور الامبراطور الأخرى، إجابة لدعوته!

ولكنها لزمت العزلة التامة فى ماليزون عندما علمت ان امبراطور النمسا قد وافق على اعطاء ابنته مارى لويز زوجة لنابليون الأول!

سقوط وانهيار العرش!!

فى ٢٧ فبراير ١٨١٠، أعلن نابليون فى مجلس الشيوخ عزمه على الزواج بمارى لويز ابنة امبراطور النمسا فابتعدت چوزفين ولجأت إلى قصر نافار الذى وضعه الامبراطور تحت تصرفها.

وفى ٢ ابريل، سمعت الامبراطورة السابقة قصف المدافع، وعلمت ان نابليون يحتفل فى تلك الساعة بزواجه فى كنيسة نوتردام بباريس.. فلم تستطع ان تمنع نفسها من البكاء..

ولكنها تذرعت بالصبر، وراحت تنتقل من مكان إلى مكان، محاولة ان تجد السلوى والعزاء...

وفى السنة التالية، قصفت المدافع ايضا معلنة مولد ولى العهد، الذى منحه ابوه لقب ملك روما، نكاية بالبابا الذى رفض الموافقة على طلاقه.

وفى أبريل ١٨١٣، حمل نابليون ابنه الصغير إلى چوزفين لكى تراه!

فأخذته على ركبتها، وقبلته بلهفة، وقالت والدموع تنهمر من عينيها:

– ايها الطفل العزيز! سوف تعلم يوما من الايام كم كلفتنى من عذاب!

وقالت للامبراطور:

– يا صاحب الجلالة ، اننى سعيدة جدا!

ودارت الايام دورتها، ودارت معها عجلة الحظ!.. فهل أفل نجم نابليون لانه افترق عن «نجمه السعيد» كما كان يسمى زوجته؟

عاد الجيش الفرنسى فى سنة ١٨١٢ من روسيا، وتوالت عليه

الهزائم فى المانيا، ودخلت جيوش الحلفاء ارض فرنسا سنة ١٨١٤، وعندما عادت چوزفين من رحلاتها، ومن قصر نافار البعيد، إلى ماليزون «البيت الريفى» كانت الامبراطورية تتمايل وكان العرش ينهار!

وقالت الامبراطورة السابقة، عندما بلغتها اخبار الهزيمة وسقوط باريس وفرار الامبراطور:

– «لماذا رضيت بتركه؟ لو بقيت معه لشاركته الآن عذاب المنفى!»

سقطت باريس فى ٣١ مارس ١٨١٤. وفى ١٣ ابريل حاول الامبراطور ان ينتحر بالسم، وقال للجنرال كولنكور: «قل لچوزفين اننى فكرت فيها قبل ان أفارق الحياة!»

وعندما لجأ نابليون إلى جزيرة البا، كتبت اليه چوزفين تشجعه، وتأسف لان القوة القاهرة تمنعها من اللحاق به فى منفاه.

أما زوجته الثانية، مارى لويز، فقد تخلت عنه وعادت إلى أهلها! ولكن نابليون لم يكن قد علم بعد بما فعلت الامبراطورة الثانية، وكان لايزال يعتقد انها وفية له أمينة على عهده!

وبعد دخول الحلفاء إلى باريس، اتصل اسكندر امبراطور روسيا بالامبراطورة المطلقة فى ماليزون، وعرض عليها خدماته

بإلحاح. فطلبت منه چوزفين السماح لها بالبقاء فى قصرها، ومعاملة ابنها وابنتها معاملة مشبعة بروح التسامح، فوافقها الامبراطور على ما طلبت. وقد عاب بعض المؤرخين على چوزفين اتصالها بالذين هزموا نابليون، ولكن ألم يكن هذا خيرا لها وأوفى من الارتماء فى احضان أسرة بوربون، التى عادت فيما بعد إلى فرنسا، واسترجعت عرشها الذى اغتصبه نابليون؟

لقد ادركت چوزفين ان زوجها خسر كل شئ، فأرادت أن تضمن البقاء لولديها، وان تمنع عنهما انتقام البوربون وانصار الملكية!

ومن سخريات القدر، ألا تعيش چوزفين، لترى بعينيها عودة نابليون من جزيرة ألبا، ومحاولته استرجاع عرشه، وهزيمته فى واترلو، واستسلامه للانجليز، وارساله سجينا إلى جزيرة سانت ايلين..

فقد ماتت قبل ان يغادر الامبراطور جزيرة البا، وعندما بلغه الخبر حزن وبكى..!

وبعد عودته إلى فرنسا، فى خلال «الايام المائة» التى انتهت بهزيمة واترلو، كان يسأل جميع الذين احاطوا بها يوم وفاتها، عن المرض الذى شكت منه، وعن ساعاتها الاخيرة.

وقد سأل مرة الطبيب الذى عالجها:

– هل بقيت بجانبها طول مرضها؟
– نعم يا صاحب الجلالة!
– وما هو سبب موتها؟
– الحزن وخيبة الأمل يا صاحب الجلالة !
– اى حزن، وأية خيبة؟
– الحزن مما حدث.. من حالتك انت يا صاحب الجلالة!
– آه! .. كانت اذن تتحدث عنى؟
– كثيرا ، كثيرا جدا..
– يا للمرأة الطيبة! .. لقد كانت تحبنى!
وبعد ان فقد الامبراطور كل شئ، ذهب إلى ماليزون للمرة الأخيرة، وودع ذكرى زوجته، ثم ابتعد إلى حيث ينتظره النفى والموت...
وقبل ان يسلم نفسه للانجليز ، قال لرفاقه:
– لو كانت جوزفين باقية على قيد الحياة، لتألمت كثيرا.. لم نتشاجر فى حياتنا إلا على مسألة واحدة: ديونها الكثيرة!.. ان قلب جوزفين أطيب قلب عرفته!



سارة برنار

«سارة برنار»
الفاتنة الأسطورة

حامت حولها الشبهات .. وطوقتها الريب، واتهمت بأنها استطاعت أن تفتن ألباب الكثيرين من عظماء الرجال فى عصرها، وتستهوى قلوبهم .. وكان من بينهم قيصر روسيا ونابليون الثالث، والبابا بيوس التاسع، وأن كثيرين ممن أعرضت عنهم آثروا الموت انتحارا وفضلوه على الحياة بعيدا عنها، معرضة عنهم .

وقد تألفت طوائف من النساء فى شبه جماعات فى كل مكان كانت تحل به سارة برنار لحماية الازواج والأبناء والإخوة من عبث هذه المرأة الطاغية اللعوب ، ومن فتنتها وسحرها الآسر !!

ومن المرجح ألا تتكشف حقيقة المبررات لكل هذه الاتهامات التى انصبت على رأس هذه المرأة من كل صوب، ولكن الذى لا ريب فيه ولا جدال البتة أن سارة برنار الممثلة الفرنسية التى تألق فنها وازدهر خلال خمسة وسبعين عاما على المسارح الفرنسية كانت حقيقة وبلا أدنى شك امرأة ذات حسن خلاب ، وفتنة طاغية، وجاذبية قاهرة ، وجمال ساحر، إلى جانب عبقريتها الطبيعية .

وسيظل اسم سارة برنار مقرونا على مر الدهور بعبقرية

التمثيل، وبهجة المسارح لدى رواد المسارح فى جميع أنحاء العالم.

فمن هى تلك المرأة التى يعدونها كليوباترة الفرنسية ؟!

وأى العناصر استطاعت أن تتآلف وتندمج وتتفاعل ، ثم تخرج فى النهاية مثل هذه المرأة العجيبة ؟

ليس من السهل الرجوع إلى ماضى سارة برنار ، فإنها كانت تحف نفسها بما تخترعه مخيلتها، وقد قال أحد مديرى المسارح الباريسية فى هذا الشأن قولته المشهورة : «سارة برنار تغير أسلافها كما تغير ثيابها ، أو كما تغير أرواحها التى تبدو فيها خلال أدوارها » !!

من هى سارة برنار ؟

كثيرا ما دار فى أندية باريس ، وفى صحف أوروبا ، جدل طويل حول المكان الذى ولدت فيه سارة برنار ، فهناك من يقول إنها فرنسية أو ألمانية أو هولندية أو مجرية أو امريكية ، أو حتى مغربية من بلاد الجزائر ! وكانت سبع مدن أو ثمان منتشرة فى ارجاء أوروبا ، تدعى كل منها لنفسها شرف انجاب هذه الممثلة ! مثلها مثل شاعر الاغريق هوميروس، الذى تنازعت شرف مولده فيها مدن كثيرة من مدن اليونان، وعندما زارت امريكا أول مرة فى سنة ١٨٨٠ ذهب عدد من الامريكيين ممن يحملون اسم برنار

يدعى كل منهم أنه أبوها ، وأصر أحدهم، وكان من سكان فيلادلفيا، على دعواه وطالب بضمها إليه !

فكيف اختلف الناس وتجادلوا ، ثلاثين عاما طوالا حول مولد سارة برنار ، بل حول أبوتها، مع أن سجلات الحكومة تثبت أنها «ولدت فى باريس فى ٣ أكتوبر سنة ١٨٤٤ لوالد فرنسى، اسمه ادوارد برنار ؟ ذلك أن أبويها لم يكونا زوجين ، بل كانا عشيقين، التقيا فى زاوية من زوايا الحى اللاتينى، ولبثا معا أمدا قصيرا !

كانت أمها، جولى فان هارد ، امرأة هولندية لا دين لها ، لأن أباها كان مسيحيا وأمها يهودية ، فاختلفا أينصران ابناءهما أم يهودانهم ، فحلا الخلاف بتركهم يشبون بغير دين .. ومات الوالد عن ست بنات فقيرات، فسعت جولى تكسب رزقها بيديها ، وهاجرت وهى فى الرابعة عشرة من هولندا إلى ألمانيا ، تعمل فى متاجر ازياء النساء، وهناك تعرفت بقنصل فرنسى أخذها معه فى عودته إلى باريس، فلما رغب عنها تركها فتاة فقيرة وحيدة ، لا تكاد تتكلم الفرنسية، ولاتجد عملا يعصمها من التشرد فى طرقات باريس، فآوت إلى الحى اللاتينى، ترقص فى ملاهيه وحاناته، ثم تنصرف آخر الليل مع أحد هؤلاء الطلاب الذين جاءوا إلى باريس يطلبون العلم حينا، ويلتمسون العبث حينا .. ثم توثقت العلاقات

بينها وبين واحد منهم، اسمه «ادوارد برنار» جاء من ريف فرنسا يدرس الحقوق فى جامعة باريس، فأقامت معه أكثر مما أقامت مع سواه ، ثم افترقا ، فعاد هو إلى الريف يزاول المحاماة، وبقيت هى فى باريس ، مع طفلة وضعتها ، واتخذت لها اسم سارة برنار .. واقر ادوارد برنار هذه التسمية ، واخذ يمد الطفلة وأمها بشئ من المال، ولما مات أوصى لسارة ببعض ثروته ، ومع هذا فقد ظلت الأم تقول فى سخرية واستهتار، إنها هى نفسها لاتدرى من هو برنار الذى نسبت إليه ابنتها : أهو هذا الشاب الريفى الذى كان يدرس الحقوق فى باريس؟ أم هو بحار فرنسى عرفته بضع ليال خاطفة لاهية ؟!

وكان مولد سارة فاتحة حظ أقبل على أمها ، فاتخذها الجراح الفرنسى «البارون لارى» خليلة يغدق عليها المال والهدايا ، ونقلها من غرف الطلبة، وفنادق البحارة ، إلى بيت مؤثث أنيق، وأخذ يصطحبها فى رحلاته إلى أرجاء أوروبا ، حيث يدعى لإجراء العلميات الجراحية الخطيرة ، ولم تستطع الأم فى هذه الحياة المترفة اللذيذة أن تحتمل ابنتها طويلا ، فألقت بها إلى خادمة فى الريف تكفلها وتربيها ، لقاء أجر واظبت على دفعة حينا، ثم تزوجت الخادمة وانتقلت إلى باريس ومعها الطفلة فى سنتها الرابعة، واقامت مع زوجها فى غرفة واحدة ، جعلت فى ركن منها

فراش الطفلة . وفصلته بستار عن فراشهما ، ولم تطق الطفلة البقاء فى هذه الغرفة الضيقة المعتمة، فى حضانة خادمة تعيش من غسل ملابس الناس، فألقت بنفسها من النافذة فهوت على الأرض جريحة ، وأعيدت إلى بيت أمها حيث بقيت عليلة هزيلة سنتين متصلتين .

ولم تستطع الأم ، وهى في حياتها المبتذلة هذه ، أن تحيا وابنتها فى بيت واحدة ، فألقت بها إلى دير من أديرة الراهبات .. وبين الضحكات الصاخبة ، والكؤوس المترعة التى تتبادلها الأم مع عشاقها ، كانت تقول لهم :

– تصوروا أننى سأكون أما لراهبة تقية ورعة ؟!

فيرد عليها عشاقها :

– إذن فافعلى ما تشائين.. فستكفر ابنتك عن كل ما تأتين من الخطايا والآثام !

ولكن أيمكن أن تكون سارة راهبة؟ كلا ! فقد عجزت راهبات الدير عن اصلاح هذه الطفلة اللاهية اللعوب ، وغسلنها بالماء المقدس ليخرجن الشيطان من قلبها ، فلم يجد هذا نفعا ، فهى تغرى بنات الدير بأن يتسلقن اسواره ، ويهبطن إلى المزارع المجاورة ، يعبثن مع صبيان الفلاحين ، وهى تستلقى أحيانا على الأرض ، وتسبل جفنيها وتجمد اطرافها ، كأنها قد فارقت الحياة،

فإذا أسرعت إليها الراهبات فتحت عينيها ، وهى تضحك منهن هازئة ، وإذا وضعوا عليها رقابة شديدة ، انتظرت حتى يقترب الظلام، فتصعد إلى سطح الدير، حيث تتبادل القبلات عن بعد مع أحد الشبان، فلم يكن بد من أن تعيد راهبات الدير هذه البنت إلى أمها ، حتى لا تفسد اخلاق من فى الدير من فتيات ناشئات .

عادت البنت إلى أمها بعد ثلاث سنوات ، فوجدتها امرأة ناضجة فى السادسة والثلاثين ، تقيم في سكن فاخر بأرقي أحياء باريس ، ويتردد عليها نفر من علية المجتمع الفرنسى، فهذا الچنرال «دى بوله» الذى استولدها بنتا أخرى، وهذا الموسيقى «روسينى» مؤلف «اوبرا حلاق اشبيلية» وهذا الدوق «دى مورنى» أخو الامبراطور نابليون الثالث ، الذى أمضى السنوات الأخيرة من حياته فى رفقتها .. فكيف توفق الأم بين حياتها وسط هؤلاء العشاق والرفاق الممتازين ، وبين أمومتها لهذه البنت التى بلغت خمسة عشر عاما؟ وماذا تفعل بها وهى لا تملك شيئا يغرى أحدا بزواجها ولا تدرى شيئا تكسب منه رزقها ، وهى تسعل سعالا حادا كأنها مصابة بداء الرئة ، وقد اسود ما حول عينيها لشدة ما تعانى من فقر الدم وهزال البدن ؟

وأراد الدوق دى مورنى أن يخلو له بيت عشيقته ، فاقترح عليها أن ترسل ابنتها إلى معهد من معاهد التمثيل، ولعله كان

يبدو عليها ، ولا تزال فى هذه السن، أنها تصلح لفن التمثيل ، ففى عينها بريق مع وضاء ، وعلى شفتيها تعبير حى بليغ ، وبين سمات الوجه وأعطاف القوام تجاوب واتساق ، يبدو فيهما ما يضطرم فى نفسها من خلجات الشعور.. وفوق هذا كله فإن فى صوتها نبرة واضحة منغمة ، تستلفت الأذن إلى أدائها الواضح الرقيق .

وعلى كره من الفتاة ذهب بها الدوق إلى «الكونسرفتوار» الذى يعد خريجاته للانضمام إلى «الكوميدى فرانسيز» أكبر المسارح الفرنسية جميعا ، ولم يكن دخول هذا المعهد يسيرا ، لولا وساطة الدوق شقيق الامبراطور ، فاكتفوا بقصيدة ألقتها بصوتها المتهدج الرنان ، وإذا كان كل فنان موهوب ينجذب إلى فنه منذ طفولته بشعور خفى وقوة قاهرة ، فإن سارة برنار تشذ عن القاعدة، فإنها اقبلت على معهد التمثيل مكرهة مرغمة، وأخذت تدرس فن التمثيل فى ضيق وشقة، ولم تبد منها أول الأمر براعة ملحوظة، ولولا رعاية الدوق ، عشيق أمها - لما أتمت دراستها، ولأوصد فى وجهها باب «الكوميدى فرانسيز» .

دخلت سارة هذا المسرح العظيم، وكل ممثل فرنسى يعتقد أنه إذا دخل «الكوميدى فرانسيز» فقد قطع نصف الطريق إلى المجد والشهرة، فكان حريا بسارة أن تزهو بهذا النجاح الذى لا

تستأهله، وأن تحرص أشد الحرص على وظيفتها فى هذا المسرح، ولكن سارة لم تفعل ، وفى نزوة من نزوات غضبها وشراستها، ألقت بنفسها إلى عرض الطريق.

ففى كل سنة يحتفل «الكوميدى فرانسين» بذكرى ميلاد «موليير» فيوضع تمثال الشاعر وسط المسرح، ويدخل الممثلون والممثلات مثنى، فيضعون عليه سعف النخيل ، ثم يصطفون جميعا حوله ويستمعون إلى قصيدة من شعر موليير يلقيها أحد أفراد الفرقة البارزين، وجاءت سارة تشترك فى هذه الحفلة ومعها أختها الصغيرة «ريچينا» التى لم تتجاوز تسع سنوات، وبينما كانتا تنزلان درج المسرح، وأمامهما مدام «ناتالى» إحدى الممثلات المشهورات، داست الطفلة على ذيل ثوبها الفضفاض.. فالتفتت إليها الممثلة ودفعتها بيدها دفعة قوية إلى الحائط ، فلم يلبث الدم أن سال على جبهتها .

لم تتمالك سارة نفسها ، فصاحت فى وجه الممثلة الكبيرة، ووصفتها بأنها وحش قذر، وفى سورة غضبها صفعتها مرتين على وجهها !!

وساد المسرح ضجيج واضطراب ، وتأخر بدء الحفل بضع دقائق، وفى اليوم التالى أرسل مدير المسرح إلى سارة يطلب إليها أن تعتذر إلى الممثلة الكبيرة أمام زملائها، على أن ينظر فى أمرها

بعد ذلك، فإما أن تدفع غرما معينا ، وإما أن تقدم استقالتها ، ولكن سارة، حتى عندما كانت فتاة فقيرة مبتدئة ، لم تكن تفهم معنى الاعتذار ، فذهبت إلى مدير المسرح وقالت له : «إننى سأعفيك من اختيار العقوبة التى توقعها على ، فقد قررت أن أترك مسرحك، واظنك ستطلب منى العقد الذى بينى وبينك ، فدونك هو.. » وأخرجته من حقيبتها ومزقته ، وألقت بقصاصاته فى وجهه .. ثم تركته فى دهشته وذهوله ، وولت خارجة !

امبراطور يثور .. وأمير يعشق

وعادت سارة إلى حيث بدأت ، فتاة فقيرة تحيا على حساب أمها، شرسة لا يقبل أى مسرح استخدامها، ولكنها قد بلغت التاسعة عشرة ، وبدا فيها نضج الأنوثة والفتنة ، ثم هى تعيش فى بيت تحرر من الأخلاق والتقاليد ، فلماذا لا تسير سيرة أمها ، ولماذا لا يكون حظها من الحياة كحظ أمها ؟ ووجدت من أمها رضا وتحبيذا ، فكانت تدفع لها عن سخاء ما تنفقه على زينتها وملابسها ، وكانت تهش لها كلما ظفرت بصيد جديد سمين ! ..

وهكذا بدأت سيرتها الغرامية فأعرضت عن حياة المسارح، وقبلت على حياة الرجال، وكأنما كانت تقول لنفسها : لقد اخفقت سارة «الممثلة» ولكن ستنجح سارة «المرأة» .. وأقبل عليها الرجال ففتحت لهم صدرها، ولكنها كانت تستقبلهم فى غير فرح وبهجة،

ثم تودعهم فى غير أسف وندم، فقد تبينتهم رجالا بلا عاطفة ولا إحساس ، فلم يعنها من أمرهم إلا ليال لاهية تمضيها ، وهدايا سخية تتلقاها .

وفى ذات يوم انبأت أمها أنها حامل ، فما كان من الأم التى حملت ثلاث مرات سفاحا إلا أن استشاطت غضبا ، وطردت ابنتها من بيتها !! واتخذت سارة لنفسها مسكنا مستقلا، استقبلت فيه أسعد حدث فى حياتها ، وهو مولد ابنها «موريس» .

ابن من «موريس» هذا ، أهو ابن واحد من هؤلاء العشاق الذين كانت تبذل لهم نفسها بلا تحفظ أو اهتمام ؟ لا ،إنه سليل أمير من أعرق الأسر المالكة فى أوروبا ، ارتبط بسارة بصلة أقرب إلى الزواج منها إلى الهوى ..

أقام الامبراطور نابليون الثالث حفلة فى قصر «التويلرى» تحية لأمير أجنبى كان يزور فرنسا، وكانت سارة برنار قبل أن تترك الكوميدى فرانسيز - إحدى الممثلات اللاتى دعين لاحياء هذه الحفلة ، وكان عليها أن تلقى قصيدة من الشعر، فإن صوتها المتهدج الرنان ، واداءها الفنى المتدفق ، كانا يكسبان الشعر من المعانى أكثر مما فيه ..

وظهرت سارة على المسرح، وانحنت أمام الامبراطور

والامبراطورة، ثم بدأت تلقى القصيدة فإذا بها قصيدة «الأشعة والظلال» لفيكتور هوجو، وهى تبدأ هكذا.

«كم من بحارة وكم من جنود

« قد أبعدوهم ، فرحين ، إلى أقصى الارجاء

« ثم اختفوا فى الآفاق المجدبة الرهيبة»

واهتز نابليون الثالث فى مقعدة غاضبا، وأدرك الضيوف ماجاش به صدر الامبراطور، وأخذ بعضهم ينظر إلى بعض ، مندهشين متحيرين ، فقد كان فيكتور هوجو خصما لدودا للامبراطور ، وكتب عنه رسالة لاذعة مريرة ، اسمها «نابليون الصغير» ، ومنذ تولى نابليون العرش فى سنة ١٨٥٢ ترك هوجو أرض فرنسا، واعتصم بالمنفى ، حيث أقام ثمانية عشر عاما، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد أن نزل نابليون عن العرش، وأعلنت الجمهورية الفرنسية فى سنة ١٨٧٠ ، فالقاء إحدى قصائده فى قصر التويلرى، أمام الامبراطور وضيوفه ، كان جرما ، يبلغ حد العيب والاهانة !

فلما انتهت سارة من إلقاء القصيدة لم يصفق الامبراطور ، وكذلك لم يصفق أحد من الضيوف ، فظنت سارة – وهى عندئذ دون العشرين من عمرها ، ولا تكاد تعرف شيئا من أمور السياسة – أن هذا لأنها اختارت قصيدة حزينة ،

فارادت أن تختم الحفل بقصيدة مرحة بهيجة .. وبدأ صوتها العذب الرنان ينشد :

«عندما بدأ الطفل الجميل ..»

مطلع قصيدة «أوراق الخريف» لفيكتور هوجو أيضا ، وعندئذ اعتقد الامبراطور أن هذه الفتاة ، تريد عن قصد منها ، أو عن ايعاز إليها، أن تعرض به أمام ضيفه وحاشيته ، فهب واقفا وأخذ الامبراطورة فى ذراعه ، وغادرا المسرح ومن ورائهما الضيوف ، بينما وقفت سارة مشدوهة الذهن ، معقودة اللسان تواجه مسرحا خاليا !!

وأسرع مدير الفرقة إليها يسبها ويشتمها ، فبادلته سارة السب، وهم بها يريد أن يؤذيها ، فصاحت غاضبة متألمة، وعندئذ انطلق من أقصى القاعة صوت حازم يقول :

– دع الصبية يا هذا .

ونظرت سارة إلى الصائح ، فإذا هو شاب وسيم وجيه، كان آخر من انصرف وراء الامبراطور، وصاح به مدير الفرقة :

– ما شأنك وهذه ؟ .. ومن أنت ؟

– أنا الامير هنرى دى لين .. ولن أسمح بأن تهان امرأة أمامى .. ولا سيما إذا كانت فتاة جميلة، وديعة ، كهذه الفتاة.

وأوقف لقب «دى لين» مدير الفرقة عند حده ، فهو لقب أسرة

من أعرق أسر بلچيكا ، وصحب الأمير سارة عند انصرافها حتى بيتها ، والتقيا فى اليوم التالى وفى اليوم الذى تلاه، وفي كل يوم وكل ليلة ، شهورا تلو شهور ، ونشأ بين القلبين الشابين حب خالص عنيف، كانت ثمرته هذا الطفل الجميل «موريس» .

كانت سارة تحب «دى لين» حبا خالصا جارفا ، وكان هو يبادلها مثل حبها وهواها ، فقر رأيه على أن يتزوجها ، وكان قرارا خطيرا ، إذ كيف يتزوج أمير من أمراء أسرة «دى لين» العريقة المجيدة ، من فتاة ذات ماض حافل بالنقاط السوداء ، وتعمل ممثلة مغمورة لا اسم لها ولا مال ، وتنحدر من أسرة مجهولة بعضها يهودى وبعضها بغير دين ؟ ولكنه يحبها وتحبه ، فليمض ما يريد ، على شرط أن تترك التمثيل، وكان شرطا يسيرا، فهى لا تحب التمثيل، ولم تصب فيه نجاحا ما .

وسافر الأمير إلى بلچيكا وفاتح أسرته فيما اراد .. ولو أن سربا من الطائرات ، قبل أن تخترع الطائرة بخمسين سنة، ألقى أثقال القنابل على بلچيكا فى تلك الليلة، لكان أهون على أسرة «دى لين» من هذا الأمر الذى اعتزمه ابنها الأمير هنرى !!

وخف ابن عمه «الچنرال دى لين» إلى باريس ، وذهب إلى سارة برنار ، وقد حسب أنه سيلقى امرأة لعوبا هلوكا ، تفتن الرجال عن رشدهم وتغشى بصائرهم ، فإذا به يلقى فتاة صغيرة

غريرة ، وادعة هزيلة ، تتحدث إليها فى رفق وهدوء ، وأبان لها ما وراء هذا الزواج من ضرر يصيب الشاب الذى تحبه، فسيفقد لقبه، ومنصبه ، وميراثه .

ولم تشأ سارة أن يطول الصراع بين عاطفتها وضميرها، فهرعت إلى مسرح «الاوديون» تطلب عملا بأى أجر وأى شرط، وبذلك تتحلل من وعدها للأمير «دى لين» .. فلما عاد إلى باريس وجدها قد عادت إلى التمثيل ، وأبت أن تبوح له بأنها فعلت ذلك مؤثرة أن تضحى بقلبها وعاطفتها على أن يضحى هو بأسرته ولقبه .. وتركته يتهمها كيف يشاء ، ويقطع ما بينه وبينها من الصلات، محتفظة له فى قلبها، وفى ابنها موريس ، بأخلص الحب وأجمل الذكرى !

وطوت سارة بهذا صفحة المرأة العاشقة ، وفتحت من جديد صفحة الممثلة الموهوبة .

نحن الآن فى مسرح «الاوديون» ثانى مسارح فرنسا بعد «الكوميدى فرانسيز» والشعب الفرنسى لا يريد أن يسمع شيئا إلا شعر فيكتور هوجو، ولا أن يرى شيئا إلا مسرحيات فيكتور هوجو، والامبراطور نابليون ، عدو هوجو اللدود، لا يزال على عرشه ، ولكن الحزب الجمهورى قد خضد كثيرا من شوكته وأرغمه على أن يسمح بتمثيل قصص هوجو على مسارح باريس،

فالكوميدى فرانسيز يقدم قصة «هيرتانى» ، أما الاوديون فيقدم قصة لألكسندر دوماس، والاديبان هما عبقريتا الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر، إلا أن نفى هوجو أظهره فى مظهر الوطنى الشهيد ، فمكانته لدى الشعب الفرنسى من مكانه دوماس .

ويرفع الستار فى مسرح الاوديون ، ويبدأ الممثلون يؤدون قصة «دوماس» فتنطلق الأصوات المدوية من أرجاء المسرح : نريد هوجو .. نريد هوجو .

ويرفع الممثلون أصواتهم قدر ما يستطيعون ، لعلها تغطى على هذه الضجة الصاخبة ، ولكن الجمهور لا يزال يهتف باسم هوجو .. ودوماس حاضر يتمشى جيئة وذهابا ، والعرق يتصبب من جبينه ، والدهشة تتملك أعصابه ، إنه يحب هوجو ويجله ، ويتمنى عودته إلى فرنسا، ولكن الأمر ليس بيده ، وهو يحب أن يسمع الناس تهتف باسم زميله هوجو ، ولكنه يكره أن ينقلب هذا الهتاف إلى هتاف بسقوط دوماس البرئ !

وتشفق سارة برنار على الأديب الكبير فى هذه الساعة الحرجة ، فتقول له : هون عليك يا أستاذى .. فسألقى عليهم درسا قاسيا .

ويسدل الستار ، وتصعد سارة إلى المسرح ، ويتعالى الهتاف

بحياة هوجو وسقوط دوماس ، فتبتسم ، ثم تقول فى نبراتها القوية الواضحة :

« إنكم تريدون أن تدافعوا عن العدالة ، فهل لى أن اسألكم : أين عدالتكم أنتم ، حين تلقون على الكسندر دوماس مسئولية نفى فيكتور هوجو ؟»

ونفذت العبارة البسيطة ، المنطقية ، إلى أذهان الناس ، فلم تلبث أن انطلقت أكفهم تصفق لسارة ، واستقروا فى أماكنهم هادئين ، ورفع الستار مرة أخرى عن قصة دوماس .

وأقبل دوماس يقبل سارة ويقول : «سأكتب لك يا بنيتى قصة خاصة ... فإنى مدين لك دينا لا أنساه» .

ذكرى عظيمة من رجل عظيم

وانتهت الحرب بين فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ وعادت فرنسا تضمد جراحها ، وتقيم ما تهدم من بنائها ، وحشد كل فرنسى وكل فرنسية قواه ، كل فى ناحيته ، ليستعيد وطنه مجده الغابر ، فآلت سارة برنار على نفسها ، أن تجعل المسرح الفرنسى سيد مسارح الدنيا ، وأن تتبوأ هى عرش هذا المسرح الرفيع ، وقد عاد إلى فرنسا - بعد أن زال عرش نابليون الثالث وأعلنت الجمهورية - شاعرها العظيم فيكتور هوجو، فأشار عليه صحبه أن يعهد بتمثيل مسرحياته إلى هذه الفنانة الموهوبة ، التى «تنشد الشعر

كما يغرد البلبل، أو كما تصفر الريح ، أو كما يهدر الموج أو كما يكتب هوجو شعره ! » .

وكان نصرا لسارة أن تظفر بثقة شاعر فرنسا الكبير، وأعظم شخصية في فرنسا في تلك الأيام ، ولكنه كان نصرا تستأهله ، فبعد أن شهدها هوجو على المسرح تلقت منه في اليوم التالي هذه الرسالة :

« سيدتي ..

« كنت عظيمة وكنت فاتنة ، لقد حركتني أنا نفسي – أنا المجاهد القديم العجوز .. وفي إحدى اللحظات ، عندما كان الشعب الذي أثرت كمين نفسه، يصفق لك تحية وإجلالا، بكيت.. والدمعة التي اسلتها من عيني هي دمعتك أنت ، فاسمحي لي أن أقدمها لك .. » .

«فيكتور هوجو»

وكانت مع الرسالة علبة فيها سلسلة من الذهب تعلقت بها قطعة من ألماس على شكل دمعة، واحتفظت سارة بهذه الماسة حتى يوم مماتها، ذكرى عظيمة ، من رجل عظيم ، وبعد أربع وخمسين عاما، عندما كانت تمثل وهي في السابعة والسبعين، كانت تضع على صدرها هذه الماسة التي تمثل دمعة من دموع أحد الخالدين ، سارة برنار ، وفيكتور هوجو .

★★★

سارة برنار الآن فى قمة مجدها ، لا تستقر فى فرنسا إلا ريثما تتأهب لرحلة تطوف فيها أرجاء أوروبا وأنحاء أمريكا، تشهد الجماهير ، وتجمع الأموال ، وتتلقى الاوسمة والهدايا .. ولكن ما من امرأة بلغت مبلغ سارة من المجد والصيت إلا وتعرضت فى حياتها للمحن والمآسى وكأن القدر يريد أن يسلبها من الرضا والسعادة بقدر ما منحها من المجد والاسم ..

وكانت مأساة سارة برنار نزوة حب طائش مجنون.

كان يقيم فى باريس دون جوان يونانى، اسمه چاك دالاما ، يعمل موظفا فى المفوضية اليونانية ، وكان شابا فى الثالثة والثلاثين ، جميلا كأنه أبولو اله الاغريق ، شرقى السمات ، خمرى اللون ، طويل الاهداب ، أسود العينين ، وكان من هذا الطراز الذى تنفذ نظراته وكلماته إلى أعماق المرأة أول ما يلقاها ، حتى إذا صرعها بحرارته الدافقة، انصرف عنها فى إعراض وازدراء ! .. كان دون جوان مثاليا ، فطلقت سيدتان من سيدات المجتمع الفرنسى إذ وقعتا فى هواه ، وانتحرت سيدة ثالثة إذ هجرها وسلاها ! فلما استفاضت أنباء مغامراته وغرامياته ، طلبت الحكومة الفرنسية إلى حكومة اليونان ، أن تبعده عن باريس ، فنقلته إلى روسيا .

ولقيته سارة برنار ، ودار بينهما حديث قصير ، سألته : ألا

يحب أحدا ؟ قال : لا ! .. سألته : ألم تحب من قبل ؟ قال : لا ! .. ثم سألها : ألا تودين أن تحبى مرة فى حياتك .. لتعلمى ما إذا كان الحب ممتعا أم مؤلما ؟وأدرك «دالاما» بغريزته ، أنه قد نفذ إلى قلب سيدة المسرح الفرنسى، بل سيدة فرنسا الأولى، فقال :

– كنت أود أن ابقى فى باريس ، ولكنى ذاهب إلى بطرسبورج وأنت تطوفين ارجاء الدنيا ، فلماذا لا تأتين إلى هناك ؟

إنه أول رجل يقول لها «تعالى إلى» .. أما جميع الرجال فقد جاءوا هم إليها ، إنه طراز جديد من الرجال لم تلق مثله من قبل ، وإنه الطراز الذى يصرع قلب المرأة أحيانا!

وماهى إلا أسابيع حتى كانت سارة برنار تشد رحالها إلى روسيا فى أثر هذا الشاب اليونانى الفاتن .. وفى بطرسبورج يعتزل دالاما وظيفته فى السلك السياسى ، ويعمل مع سارة ممثلا وعاشقا ، ثم تعقد عليه زواجها .لا شك فى أن سارة لم تتبين نقيصة «دالاما» الكبرى إلا بعد أن نفذ سهم الحب إلى قلبها ، وعندئذ عرفت أنه مدمن «مورفين» لا يكاد يفيق إلا إذا سرى هذا السم فى دمه ، وقد حاولت سارة أن تنقذه من هذا الوبال ، فأبرزته فى مسرحها وهيأت له الأدوار الكبرى ، رغم اعتراض مؤلفيها أحيانا وسخرية ممثليها أحيانا ، فلم يجد هذا نفعا ، فقد بلغ منه الداء حدا لا شفاء معه ،إذ كان يحقن نفسه بنفسه سبع

مـرات فى اليـوم ، وكـان يهب من نومـه فى غسق الليل ، ويدخل مخدع زوجتـه يهينهـا ويهددها حينا ، ويتوسل إليها ويبكى عند قدميها حينا .. ومرت بسارة ليال رهيبة مخيفة ، فلم تر بدا من أن تقبر حبها وقلبها ، وتفصل ما بينها وبين زوجها العشيق !

وبعد سبع سنوات خر دالاما مريضا ، فقيرا ، وحيدا ، شأنه شأن هذا الطراز من الرجال الذى يعيش على قلوب النساء ، ولم يجد حوله واحدة من هؤلاء اللاتى ترامين عند قدميه أيام فتوته وشبابه .. فأرسل إلى سارة برنار ، فأقبلت تراه وآلمها أن يقضى حياته هكذا .. فذهبت به إلى مصحة يستشفى ، وأخذت تزوره كل يوم ، حتى إذا استعاد صحته قليلا ، لم تبال كلام الناس شيئا ، فأظهرته أمامها فى إحدى مسرحياتها وظلت تتعهده وترعاه بعطفها ومالها ، حتى قضى نحبه صريع هذا المخدر السام !!

وفى ذات يوم من أيام سنة ١٨٨٧ جاء يزورها فى المسرح زائر غريب ، واستقبلته فعرفته ، إنه الأمير هنرى دى لين ! الذى لم تشهده منذ عشرين سنة، والذى بلغ الآن خمسين سنة أرسلت فى شعره خيوط بيضاء ورسمت على وجهه تجاعيد حزينة .

جاء يقول لها : إنها كانت على حق حين آثرت التمثيل على الزواج ، فما كان فى وسعه أن يهيئ لها فى بيته من المجد ما حققته على المسرح !

وأرادت أن تذكر له الحقيقة ، ولكن كبرياءها منعتها من أن تمن عليه بتضحيتها ، ولما رأى فى اليوم التالى ابنهما موريس ، صارحه بحقيقة صلته به ، وعرض عليه أن يتبناه ، ويورثه لقبه وماله ، فأبى الابن قائلا :

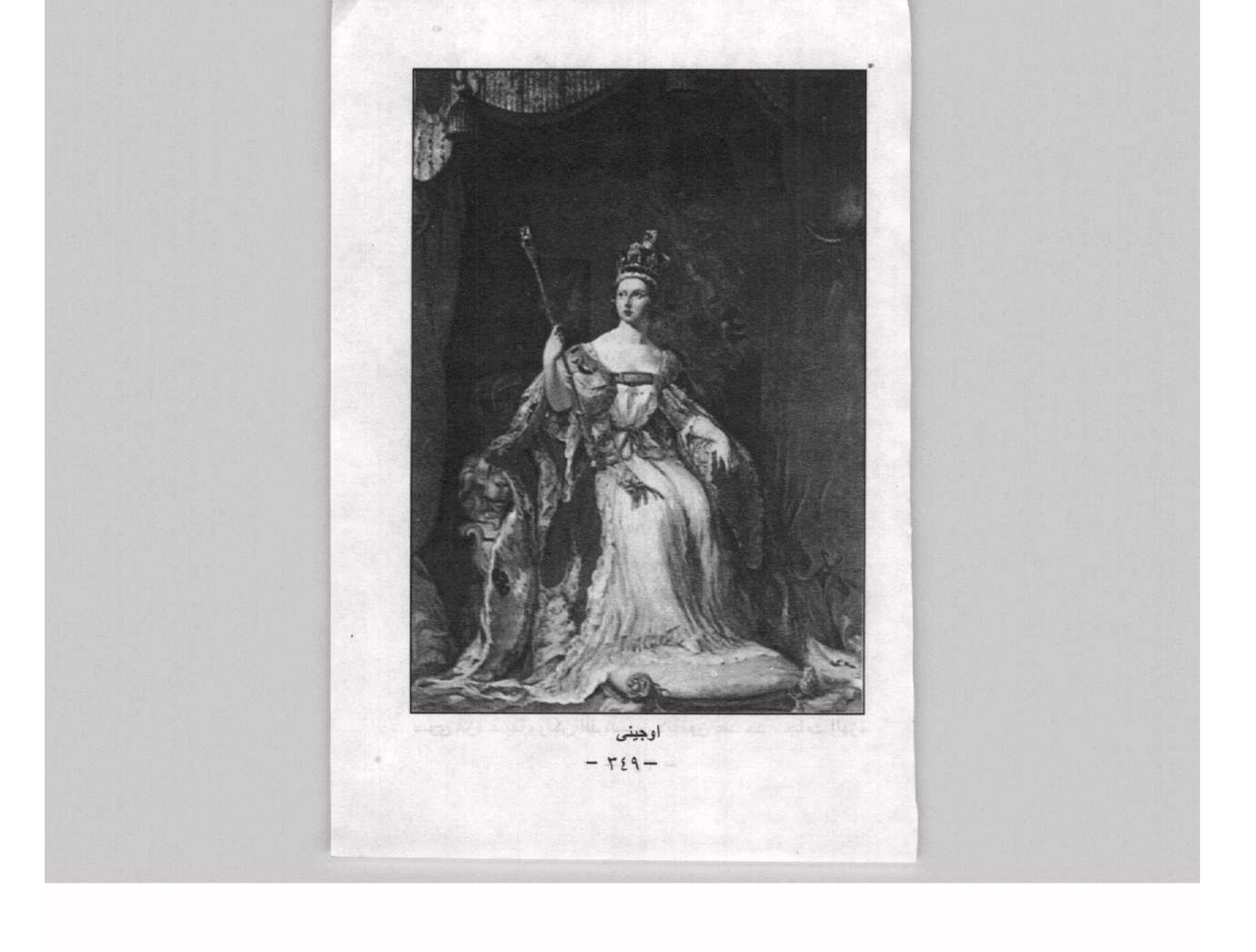
إن أمى وحدها لها الفضل على ، سهرت على فى أيام فقرها ، واسعدتنى فى أيام مجدها ، فلن انتسب إلا إليها .

ولما اراد الأمير أن يعود إلى بلچيكا ذهب موريس يودعه ، وكانت المحطة مزدحمة بالناس فطلب إلى بعض موظفيها أن يهيئوا له مكانا يستريح فيه، فسألوه من أنت ، فقال : أنا الأمير هنرى دى لين، فقالوا : عليك أن تنتظر هنا كما ينتظر سائر الناس! فقال لهم موريس : ارجوكم أن تهيئوا لنا محلا، فأنا ابن سارة برنار ! ..

وعندئذ قاموا جميعا يفسحون له الطريق ويهيئون له المكان !

فقال الأمير : الآن عرفت أنك على حق فى أن تفخر باسم أمك لا باسم أبيك !

★★★



اوجينى

«أوجينى»
الإمبراطورة اللعوب !

لقد أصاب روشفور كول فى قوله : «كل شىء ممكن فى فرنسا» !!

والحقيقة انك لن تجد بلدا حدث فيه من المتناقضات كالذى حدث فى فرنسا : الملكية والامبراطورية والجمهورية، وهى تتخبط بين هوان مذل أو ثورة دامية، سواء كانت فى حكم الفالوى أو البوربون أو بونابرت . من فرساى ولويس الرابع عشر إلى ماليزون وكامبينى فى الامبراطورية الاولى والثانية، الافكار ذاتها والآراء ذاتها والاخلاق هى هى تحت أردية مختلفة !

بلغت أسرة البوربون سنة ١٦٨٥ قمة مجدها . وكانت فرنسا تئن تحت نير الاستبداد . مائة وخمسون ألف ثرى ينعمون بثروة البلاد بين المرح واللهو ، و خمسة وعشرون مليونا يكدون لإشباع جوعهم، يطلب الشعب القوت فلا يجده ويجيبهم الاشراف : «كلوا عشباً !» والملك يقول : «الدولة أنا» !!

جاء ميرابو فقال : «ان المملكة على أسوأ حال ولايصلحها سوى هزة عنيفة» ولكن الفرنسيين لايقفون عند حد . جاءت الهزة

العنيفة فأطاحت بالعرش وعملت المقصلة عملها الفظيع فى ساحة الكونكورد !

كانت الامبراطورية ، وكان المجد مطمح انظار الجميع : ريفولى ، استرلتز ، وثرلو. ثم جاءت الامبراطورية الاولى بمجدها وانتصاراتها وتاجها وصولجانها ، ثم اختفت وكأنها حلم . عاد آل البوربون إلى منازلهم وهبت العاصفة فانكشفت عن الجمهورية فى مجد جديد وانتصارات جديدة . ثم انقلبت الجمهورية إلى الامبراطورية ثانية ، فاتجهت الانظار إلى مجد سلمى . تولاها نابليون الثالث وعمل على افتتاح عصر جديد وبناء امبراطورية قوامها السلام.

رأى الباريسيون فى ما ازدانت به شوارع مدينتهم من معالم الزينة ومظاهر السرور ما شرح صدورهم . رأوا إمبراطورهم وإلى جانبه فتاة حسناء فتساءل الناس من تكون هذه التى تجلس جلسة جلال ، وتركب ركوب الفارس فى غير خوف ولا وجل ؟!

تلك أوجينى دى مونتيو كونتيسة «تيبا» . ولدت فى اسبانيا سنة ١٨٢٦ فى اقليم غرناطة . كان والدها من كبار أعيان اسبانيا ورثت عنه كرم المحتدم ونبالة الطبع . هناك عرفها الكاتب الامريكى الشهير واشنطن أرفنج وكتب عنها الفصول الطوال منذ

كانت فتاة إلى أن بهرت العالم بزخرفها وأبهتها حين أصبحت امبراطورة فرنسا .

تلقت أوجينى علومها فى تولون ثم فى بريستول، وتخرجت تجيد الحديث بالاسبانية والانجليزية والفرنسية.

بارعة الجمال ، شديدة الذكاء ، سريعة الخاطر ، فلا غرابة أن أصبحت زهرة الربيع فى لندن وباريس ومدريد !

سيدة القصر !!

فى أحد أيام شهر نوفمبر من عام ١٨٥٢ ، دعيت العائلة إلى حفل فى مدينة فوتينبلو يحضره الامبراطور نابليون الثالث ورجال الدولة ووجهاؤها .

وفوجئ الحاضرون بفارسة رائعة الجمال تتهادى فوق جوادها الرشيق بمهارة استولت على انظار الحضور واستحوذت على اعجابهم. ومن مقصورته الذهبية همس الامبراطور إلى مستشاريه بأن يأتيه بمعلومات ضافية عن هذه الفارسة الحسناء .

ولاحظت الحاشية ان اهتمام نابليون بهذه الفارسة الفاتنة آخذ يزداد يوما بعد يوم .. وتحول التفكير فيها إلى تعارف بينهما .. ثم إلى لقاءات سامرة وحفلات ساهرة .. ثم اشتعلت جذوة الحب فى قلبيهما ، فتم زواجهما التاريخى فى شهر يناير من عام ١٨٥٣ فى حفل اسطورى رائع لم تشهد فرنسا مثيلا له من قبل ..

وأصبحت أوجينى امبراطورة تتربع على عرش فرنسا وتقيم فى قصر الحكم وهو «قصر التويلرى» الشهير !

وها هى ذى سيدة القصر الجديدة تحيط نفسها بمظاهر الارستقراطية المترفة التى عرف بها البلاط الفرنسى ، وتحولت مراسم الفنانين العظام إلى خلايا دائبة النشاط والتفاعل والانفعال تستلهم سحر الفتنة فى شخصية الإمبراطورة الحسناء..

.. وأفاق الشعب الفرنسى من هذه المفاجأة المبهرة المتعجلة ..

وتضاربت المشاعر نحو الامبراطورة فالبعض يحبذ هذا الزواج لأن الامبراطور قد تزوج امرأة أحبها .. وهذا يكفى . أما البعض الآخر – وهم العقلانيون وفلاسفة السياسة – فيرى أن الواجب كان يفرض على الامبراطور أن يختار زواجا سياسيا يقوى به مركز فرنسا بين جيرانها.

وتنبهت أوجينى إلى ضعف مكانتها بين بيوت الحكم العريقة فى أوروبا .. وكان عليها أن تتصرف .. وهى لا تملك إلا أسلحتها الانثوية وشراكها الناعمة .

★★★

ومهما اختلفت الآراء حول بطلتنا الحسناء ، فقد تربعت على عرش الامبراطورية إلى جانب نابليون الثالث .. وأثبتت الأيام أنها

جديرة بأن تحيل المعارضين والحاسدين إلى مسحورين بجمالها يهتفون بجاذبيتها وشخصيتها الفذة الرائعة ..

ونظرت الفاتنة أوجينى حولها .. فأحست بالأعاصير والغيوم تملأ أفق الحياة السياسية وتكاد تعم أوروبا كلها .. فأعدت نفسها لمجابهة كل ما توقعته من متاعب وعقبات .. وكما نعلم فقد كان العداء مستحكما بين فرنسا وانجلترا ، فأقدمت أوجينى على خطوة جريئة وجعلت نابليون يمحو كل اثر لهذا العداء التقليدى القديم، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيقيم تحالفا بين الدولتين ..!! وبذلك تغيرت موازين القوى فى أوروبا كلها .. ولكى توطد عرى الصداقة بينهما ، قامت عام ١٨٥٥ بزيارة انجلترا مع الامبراطور، ضيوفا على الملكة فيكتوريا التى بالغت وزوجها «ألبرت» فى الاحتفاء بهما .. واقاما لهما احتفالات اسطورية تحدث عنها العالم أجمع آنذاك .. ولم تمض مدة وجيزة ، حتى ردت فيكتوريا لهما الزيارة فى باريس .. لتزداد الصداقة رسوخاً عند الشعبين الانجليزى والفرنسى .. وبالفعل ، كان العالم وقتها لا حديث له إلا عن اعداء الأمس الألداء وكيف أصبحوا اليوم أوفى الأصدقاء!! ويشاء القدر أن تكون هذه الصداقة المتينة بين الامبراطورة أوجينى والملكة فيكتوريا بمثابة حصن الامان لأوجينى عندما دارت الدائرة عليها كما سنرى بعد قليل ..!!

نعود إلى فاتنة القصر الفرنسى .. فنرى انها قد ثبتت قدميها راسخة على عرش الامبراطورية فى يوم ١٦ مارس ١٨٥٦، اذ وضعت ابنا اطلق عليه لقب «الأمير الامبراطورى»، كما لقب كذلك «ابن فرنسا». وبالرغم من الشعبية التى حظيت بها فى المجتمع الفرنسى، إلا أن جمالها وهيمنتها قد جعلاها موضع حسد، فصارت نهبا للطامعين فى الحكم والحاقدين على القصر والمتربصين بالأسرة الحاكمة !

وأتت هذه الاحقاد ثمارها المسمومة .. فقامت فى البلاد حركات مناهضة للامبراطورة الحسناء وزوجها المفتون بجمالها..

السطوة .. والنفوذ!!

وحدث ان كانا يستقلان عربتهما الامبراطورية فى طريقهما إلى دار الأوبرا فى ليلة من ليالى شهر يناير من عام ١٨٥٨ ، ففوجئا بهجوم عليهما بالمفرقعات الحارقة .. إذ ألقيت على عربتهما ثلاث قنابل بقصد اغتيالهما، ولكنها انفجرت تحت المركبة وذهبت بأرواح عدد من الحراس وأفراد الحاشية .. وقد وقف الامبراطور فى البرلمان فى اليوم التالى يقول : «أشكر الله الذى منح الامبراطورة ومنحنى حمايته ورعايته ، وإن كنت فى حزن شديد لأن المؤامرة التى قصد بها اغتيال اثنين ، انتهت بازهاق أرواح كثيرة من الابرياء!!

ان هذه الوسائل الوضيعة تدل على ضعف وحقارة مدبريها ، ولو راجعوا التاريخ لوجدوا أن الجريمة لا تفيد مرتكبيها ، فلا من قتلوا قيصر، ولا من ذبحوا هنرى الرابع أفادوا شيئا .. إن الله يميت العادلين والصالحين .. ولكنه لا ينصر الأشرار والظالمين .. لذلك أرى فى هذه الاعتداءات شيئا خفيا يزعج حاضرنا ومستقبلنا .. ان سلامتى هى سلامة الشعب والامبراطورية .. فلنواجه المستقبل بالثقة والاتحاد لما فيه مصلحة الوطن وهيبة فرنسا بين شعوب أوروبا والعالم المتحضر»..

.... ومرت الأيام ، وقد صهرت التجارب والأزمات وجدان الفاتنة الرقيقة الصامدة .. ولكنها قوت من جلدها وعزيمتها ، وفتحت عينيها على خفايا القصور وخبايا مراكز القوى المتصارعة من وراء الستار! فزادت أوجينى من سطوتها ونفوذها .. واستأثرت بالأمر والنهى فى كل ما يتعلق بشئون البلاد .. وبالتالى، ضعف شأن الامبراطور .. وكان من الواضح أنه اسلم لزوجته القياد والقيادة وصار ينفذ ماتمليه عليه مسلوب الارادة!!

وتألقت الفاتنة .. واعادت إلى الاذهان شهرة مدام دى بومبادور فى عهد لويس الخامس عشر، ومارى انطوانيت فى عهد لويس السادس عشر ، وجوزفين فى عهد نابليون بونابرت . وها هى ذى تفوق الجميع سلطة وسلطانا .. وأصبحت مصدر الالهام

العبقرى لكل المبتكرات والمستحدثات الباريسية فى عالم الجمال والاناقة!!

.... وأعادت اللعبة القديمة : الترف والبذخ والسفه والاستمتاع بمباهج الحياة حتى سكرت وفاض الكأس ..

اليوم الموعود!

ولندع الامواج الهادرة فى بحار السياسة واشتعال الحروب .. لنعيش أياما هادئة هانئة وادعة هائمة ولنسهر مع الساهرين والسامرين على شاطىء قناة السويس .. وعلى ضفاف النيل الخالد!

قناة السويس .. اسماعيل باشا خديو مصر، قصور البذاخة المترفة .. حفلات القنال الاسطورية .. الاغراق فى الهيام بالتظاهر والتحضر والتجمل .. والغرق فى الديون وارهاق الشعب المصرى الصابر الكادح الصامد الذى يعيش فى ظلمات القاع .. ولا يدرى ماذا يدور فى ليالى التأنق والتبرج والسهرات السكرى والمتع الحمراء العابثة!

هكذا كانت الاحتفالات .. احتفاء بافتتاح قناة السويس فى ١٦ نوفمبر من عام ١٨٦٩ ، عندما دعى نابليون الثالث وزوجته الفاتنة الامبراطورة أوجينى إلى هذه الاحتفالات التى تحدثت عنها كتب التاريخ، ووصفتها بأنها فاقت فى بذخها ليالى ألف ليلة وليلة

الشهيرة .. ولبت الامبراطورة دعوة الخديو .. وتخلف الامبراطور فلم يحضر الاحتفال لانشغاله بالأزمات والتقلبات والزلازل السياسية المروعة ..

وقبل أن نواصل مسيرتنا فى ركب حسناء باريس ومضيفها الخديو الذى كان يحكم مصر ويحلم بأن تكون عاصمتها قطعة من باريس ، أقول إن حفر قناة السويس ماهو إلا قصة طويلة ذات شئون وشجون وعثرات وطفرات .. أما كيف حصل «دى ليسبس» على امتياز شق القناة بين البحرين الأبيض والأحمر ، فذلك يرجع إلى العلاقة الخاصة بين مصر وفرنسا ، والصداقة الخاصة جدا بين سعيد باشا والمسيو دى ليسبس .. وليس هذا مجالا لسرد الوقائع والتفاصيل .. ولكنى أريد بذلك أن أصل إلى أن أوجينى عندما تعد العدة لحضور افتتاح القناة ، فانما تأتى إلى أرض لها فيها أوثق الروابط وأرسخ الوشائج ، فكأنها تحضر لتبارك أحد الانجازات الفرنسية على أرض صديقة .. وها هو ذا اسماعيل باشا يجنى ثمار العلاقات الخاصة لوالده سعيد باشا .. وفى غمرة التعاطف والعلاقات الحميمة والانبهار الهائم بالجمال الذى يحرك الوجدان ويطلق الغرائز .. بالغ اسماعيل فى الكرم والحفاوة التى جاوزت كل الحدود حتى فاقت الخيال!!

وكأن حسناء فرنسا قد بدأت بنصب شباكها حول صيدها قبل

أن تلقاه .. انها فاتنة فرنسا بل وأوروبا كلها .. وستكون رئيسة للحفل المرتقب .. نجمة القمة بين جميع الملوك والامراء والنبلاء والفنانين والمفكرين واقطاب الارستقراطية والرومانسية .. ولشيء فى نفسها .. عزمت على أن تجعل من الحفل مهرجانا للعواطف الدافئة .

من أجل ذلك ، نراها وقد أتت قبل موعد الاحتفال بثلاثة أسابيع .. وحدها بدون زوجها الذى أرهقته وانهكت قواه واحاطته بكل ألوان العقد والمشاغل والمشاكل والهموم..

فكان موعد الاحتفال - كما ذكرنا - يوم ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ .. ولكنها حضرت لزيارة خاصة جداً فى الاسبوع الثالث من شهر اكتوبر .. فالوقت كاف لأن يحلق العصفور كما يهوى فى أجواء الشاعرية بين الاستار الوردية فى قاعات المرمر بقصر الجزيرة الفخم الذى خصصه لها اسماعيل ، وكل يغنى على ليلاه ويهدف إلى غاياته ومرماه ! لنرقب تتمة الحديث - على استحياء - وكيف ينصهر الوجدان وتشتعل العواطف بين حرارة الترحيب واللقاءات الساخنة على أرض مصر السمحة الطيبة !

إنها أوجينى .. غادة باريس .. وفاتنة أوروبا كلها .. أتت إلى مصر وهى فى قمة جمالها وجاذبيتها وسلطانها .. كانت فى الثالثة والأربعين .. ولكنها تبدو فتاة حسناء فى ذروة شبابها

وأناقتها وكأنها لم تبلغ الثلاثين من عمرها! أتت فى هذه الزيارة الخاصة قبل موعد مهرجان القناة، وقبل أن يتوالى حضور الضيوف الكبار وينشغل عنها اسماعيل المحب الولهان الباحث عن اللهو والمتعة ، الحالم دائماً بأجواء الرومانسية والارستقراطية الفرنسية .. ان ارضاء الامبراطورة يعنى رضاها عنه .. وهذا الرضا الامبراطورى من غادة فرنسا يعنى بالنسبة لحاكم مصر الشىء الكثير ، وهو الذى عرف فى التاريخ بأنه أراد أن يجعل مصر قطعة من فرنسا، وأن يجعل من القاهرة جزءا من باريس..!

وهكذا التقت الرغبات والنزوات : هى الباحثة عن دائرة الضوء والتألق .. ليشع بريق اللآلئ من تاج الإمبراطورية فوق جبينها .. وهو المطبوع على حب التظاهر والبذخ والتأنق والتجمل والمغامرات العابثة، وقد وجد كل منهما فى الآخر مجالا مناسبا لطموحاته وأهدافه ونزواته..!

ليالي ألف ليلة!!

بين أسباب الترف وأجواء الشاعرية . عاشت أوجينى برفقة الخديو المتيم أياما وليالى أسطورية لاتنسى ولا تمحى من ذاكرة التاريخ .. فكانت رغبات الامبراطورية بمثابة أوامر يسهر حاكم مصر والشعب كله فى العمل على تحقيقها دون ابطاء.

وشهد الشعب المصرى كيف استعاد الخديو سهرات ألف ليلة

وليلة من جديد عام ١٨٦٩ على ضفاف النيل وهضبة الأهرام وقصر الجزيرة المترف الحالم .. كما أن أبا الهول الصامت القابع فى شموخ منذ آلاف السنين، قد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صخرية ساخرة.

واستبد بها الشوق لإحياء أمجاد كليوباترة .. فاشارت على اسماعيل أن يقضيا بعضا من لياليهما الشاعرية بين الآثار الفرعونية فى الاقصر .. وحرصت الامبراطورة فى هذه المرة على أن يصحبها رسامو البلاط الفرنسى، ليسجلوا لها اللوحات المتحفية وهى بين أمجاد الفراعنة .. وأقام لها رفيقها الولهان مجلسا من المخمل والحرير والأرائك الذهبية وسط معبد الاقصر .. وكم حلمت باطياف حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترة .. وهى ترنو نشوانه إلى آثار التاريخ السحيق .. سكرى برحيق التدليل والكرم الملكى المثير!!

عادت الامبراطورة من رحلة الجنوب وقد أصبح اسماعيل من أقرب الاقربين اليها وبذلك تحقق حلمه الكبير .. لقد حان يوم المهرجان ، فرحل الخديو إلى الاسكندرية ، واستقل يخته الملكى «المحروسة» إلى مدينة بورسعيد ليكون فى استقبال الملوك والامراء والقادة والنبلاء .ضيوف الحفل المنتظر ، وتوالى قدوم الوفود رفيعة المستوى من انحاء العالم .. وكانت عينا اسماعيل تتركز

على سفينة مقبلة تتهادى لترسو على الشاطىء فى أبهة وخيلاء .. انها اليخت الامبراطورى الفخم «إيجل» يقل رئيسة الاحتفال فاتنة المهرجان .. الامبراطورة أوجينى ، يحف بها حرس الشرف والحاشية والوصيفات فى أبهى حلل وأجمل مظهر واكمل زينة!

وشهد شاطىء القناة حفلا اسطوريا لم يشهد التاريخ - آنذاك - مثيلا له .. ولا يتسع مجالنا على هذه الصفحات لسرد وقائعه التى فاقت كل ما يتخيله الحالمون والشعراء والرومانسيون!

ولم يسع أوجينى إلا أن هتفت بين الجموع : «بالله! . لم أر فى حياتى أجمل ولا أروع من هذا الحفل الشرقى العظيم!».

وتزلزل القصر الفرنسي!!

انتهى الحفل الذى بهر انظار الضيوف واعاد إلى مخيلتهم اجواء البذخ فى قصور ألف ليلة وحسن شهر زاد وسفه شهريار .. ولكن أوجينى أبحرت فى القناة جنوبا إلى مدينة الاسماعيلية، حيث القصر الذى خصصه اسماعيل لتقضى فيه بقية الزيارة الخاصة جدا .. تلك التى بدأتها قبل الاحتفال بثلاثة أسابيع!

وبذلك أسدل الستار على ليالى الدفء والجمال فى الاسماعيلية .. وعادت الامبراطورة بعد أن فاضت كؤوسها بخمر السحر الشرقى الذى اغترفت منه بغير حساب ! عادت إلى معمعة الأحداث والمؤامرات والثورات الأوروبية المستمرة فلم يمر عام ،

حتى كانت الحرب السبعينية بين روسيا وفرنسا قد اغرقت زوجها الامبراطور نابليون الثالث فى بحر من الصراعات الدامية والهزائم المتوالية .. وكانت أصابع الاتهام من جموع الشعب الفرنسى تشير إلى الامبراطورة العابثة المتسلطة وتدمغها بأنها أصل البلاء! وقبعت ساهمة مكتئبة فى قصر التويلرى، حيث تفد بين ساعة واخرى بأنباء الهزائم المتلاحقة .. لقد انقلبت الموازين الأوروبية .. وتزلزل القصر الفرنسى من روع الفواجع فى الخارج ومن غضبة الشعب الثائر الهادر من حولها .. واكتظت ساحات القصر بالآلاف من جماعات الشعب المتحفز للانقضاض والانتقام . وفكرت أوجينى فى أن تنزل اليهم لاسترضائهم وتطلب اليهم الثبات والصمود فأمرت باحضار ـوادها .. وهمت بارتداء ملابس الفروسية التى اعتادت على ائها خارج القصر .. وكانت المفاجأة الكبرى: لقد انتهز ـم والعاملون فى القصر فرصة الهرج والمرج الذى ساد س وأطبق على القصر ، وفروا هاربين وقد سرقوا كل [illegible]ها، ونهبوا كل المحتويات التى كانت فى متناول أيديهم!!

ونظرت حولها مذهولة من هول ما يحدث.. وتهاوت كسيرة القلب مسلوبة العزيمة مشلولة التفكير..

وأفاقت من ذهولها .. وتمالكت .. وعزمت على أن تخرج إلى

قاعة الاستقبال وقد اكتظت بالمستشارين وبعض السفراء والمخلصين.

وما أن رآها «السنيور نيجر» سفير ايطاليا فى باريس ، حتى أسرع اليها يستحثها على أن تتعجل وتخرج فوراً من أبواب القصر الخلفية .. حيث أعدوا لها مركبة خاصة لتوصيلها إلى الشاطىء حيث تستقل اليخت الذى ينتظرها لتهرب به إلى انجلترا.

وذهبت أوجينى إلى لندن .. فى حماية صديقتها فيكتوريا ملكة انجلترا، التى اكرمت وفادتها وأنزلتها فى أحد القصور الملكية، حيث لحق بها زوجها وابنها لويس نابليون بعد ذلك .. وتوالت عليها الكوارث، فقد لقى لويس حتفه بعد سنوات كئيبة وهو فى ريعان الشباب!! فقبعت فى منفاها تجتر آلامها دون أن تتدخل فى امور السياسة من قريب أو بعيد!

... ومرت السنوات ثقيلة متباطئة تطبع بصماتها على الجباه .. وتشعل الرؤوس شيبا .. إلى أن أتى عام ١٩٠٥ ، فتحن الامبراطورة العجوز إلى أرض الذكريات .. إلى امجاد السويس .. إلى ليالى ألف ليلة وليلة وقصور الترف والبذخ والرفاهية.. وتأتى إلى مصر متنكرة .. وتنزل لعدة أيام فى فندق «سافوى» فى بورسعيد وما أن علم شعراء مصر بهذا

الحدث الدرامى المثير .. حتى تبادروا فى التعبير اللاذع عن مفارقات الأمس واليوم ..

... وفى عام ١٩٢٠ كانت قد بلغت الرابعة والتسعين من عمرها .. ففكرت أن تنهى حياتها بزيارة أسبانيا مسقط رأسها، وكانت تربطها بملكتها أواصر صداقة قديمة فذهبت اليها .. وما أن وصلت إلى مدريد حتى اشتد عليها المرض وثقلت على كاهلها وطأة الضعف والشخوخة ، فقضت نحبها فى ١١ يوليو من نفس العام .. وهكذا رحلت احدى فاتنات التاريخ!

... وفى المتاحف العالمية الكبرى، عندما تطالعنا صورها الرائعة التى أبدعتها العبقريات الفنية الملهمة .. لنتمثل فى خاطرنا .. غادة باريس التى تربعت على عرش الامبراطورية الفرنسية وعلى قلوب الاباطرة والملوك فى عصرها .. وكم حدثنا التاريخ عن ‘هماته الحسان عبر أحداثه الجسام..!!

رقم الايداع : ٧٤٦٠ /٩٨
I . S . B . N
977 - 07 - 0594 -2

الفهرس


روايات الهلال تقدم
مدن الملح التيه
بقلم
عبد الرحمن منيف
تصدر ١٥ يونيو ١٩٩٨



كتاب الهلال يقدم
العرش البريطانى
اسرار وفضائح
تأليف
أيه . أن . ويلسون
ترجمة
حسن صبرى
يصدره يوليو ١٩٩٨